مباحث اليوم الآخر

تأليف

د / عيسى بن عبد الله السعدي

أستاذ عقيدة بجامعة الطائف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :-

فقد كتبت سلسلة في العقيدة لطلبة العلم ، بدأتها بمقدمة في عقيدة السلف ، ثم مباحث الربوبية والقدر ، والجامع لمباحث الأسماء والصفات ، وهذا الكتاب في **اليوم الآخر**[1]؛ وهو في أصل عظيم من أصول العقيدة ، وركن من أركان الإيمان التي لا يصح الاعتقاد بدونها ؛ ولهذا عنيت بتتبع دلائله ومسائله ، وتحريره وتقريبه ؛ ليكون بإذن الله تعالى كتابا علميا ميسرا وشاملا لجوانب هذا الأصل العظيم من أصول العقيدة الإسلامية ، أسأل الله تعالى أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به عباده في كل مكان ؛ إنه على كل شيء قدير .

كتبه

د / عيسى بن عبد الله السعدي

أستاذ عقيدة بجامعة الطائف

٢٠/٥ / ١٤٤٧ هـ

(١) لاستكمال جوانب أخرى من العقيدة يحسن أن يضاف لهذه المجموعة ثلاثة كتب ؛ مقاصد كتاب التوحيد ، وتيسير التدمرية ، وخلاصات في مباحث النبوات .

محتويات الكتاب

يتكون هذا الكتاب من خمسة فصول :-

الفصل الأول : أهمية اليوم الآخر .

الفصل الثاني : أشراط الساعة .

الفصل الثالث : أحوال البرزخ .

الفصل الرابع : القيامة الكبرى .

الفصل الخامس : الجنة والنار .

الفصل الأول

أهمية اليوم الآخر

وفيه مبحثان :-

المبحث الأول : معنى اليوم الآخر .

المبحث الثاني : منزلة اليوم الآخر في الإسلام .

المبحث الأول

معنى اليوم الآخر

اليوم الآخر اسم لما بين نفخة البعث إلى الاستقرار في الجنة أو النار ؛ وهو بهذا المعنى مرادف ليوم الدين ، ويوم القيامة . سمي بذلك لتأخره عن الخلق ، كما سميت الدنيا بذلك لدنوها منهم ، أو سمي لتقدم الدار الأولى أمامه ، وتأخره عن أيامها ، أو لأنه آخر الأزمنة المحدودة ؛ أي سمي بذلك لأنه آخر الأيام التي تعاقبت على الخلق ؛ فلا يوم بعده ؛ وهو الاحتمال الأظهر ؛ قال الطبري : إنما سمي يوم القيامة اليوم الآخر ، لأنه آخر يوم ، لا يوم بعده سواه . فإن قال قائل : وكيف لا يكون بعده يوم ، ولا انقطاع للآخرة ولا فناء ، ولا زوال ؟ قيل : إن اليوم عند العرب إنما سمي يوما بليلته التي قبله ، فإذا لم يتقدم النهارَ ليلٌ لم يسم يوما ؛ فيوم القيامة يوم لا ليل بعده ، سوى الليلة التي قامت في صبيحتها القيامة ، فذلك اليوم هو آخر الأيام ؛ ولذلك سمّاه الله جل ثناؤه اليوم الآخر ، ونعته بالعقيم ، ووصفه بأنه يوم عقيم ، لأنه لا ليل بعده[٢]. وأما النصوص التي دلت على أن في الجنة بكرة وعشيا ، وأن رؤية الله تحصل في مثل وقت صلاة الفجر والعصر ، ووقت صلاة الجمعة والعيد[٣]، فإنها لا تستلزم وجود ليل ونهار ؛ لأن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر ، وإنما يعرفون مقدار الأوقات بأنوار تظهر من جهة العرش ؛ فيكون بعض الأوقات عندهم أعظم نورا من بعض ، ولا يتعاقب عليهم نور النهار وظلام الليل ، كما كان الحال في الدنيا[٤]. ومن العلماء

---

(٢) تفسير الطبري ، ١١٧/١ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٤٣٥/٥ .

(٣) كقوله تعالى : (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) ، وقول النبي ﷺ : (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ؛ فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) ؛ فعلم من فحوى النص أن الرؤية تحصل في مثل وقت صلاة الفجر والعصر ، وورد أيضا أنها تحصل في مثل وقت صلاة الجمعة والعيد ، وهي أحاديث وإن كانت لا تخلو من مقال إلا أن تعدد أحاديث الجمعة ، وكثرة طرقها ، وما يعضدها من آثار يورث غلبة الظن بثبوتها .انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٤٩٤/٢ ، ٤٠٣/٦ ، ٤٢٠-٤٣١ .

(٤) انظر : بيان تلبيس الجهمية ، لابن تيمية ، ٢٨٤/٢ ، ٢٨٥ ، مجموع الفتاوى ، لابن تيمية ٣١٢/٤ .

من يتوسع في مدلول اليوم الآخر ؛ فلا يجعله خاصا بيوم الدين أو القيامة ، وإنما يجعله شاملا لكل ما يكون في الدار الآخرة[٥]؛ ولهذا قال الزمخشري : فإن قلت : ما المراد باليوم الآخر؟ قلت : يجوز أن يراد به الوقت الذي لا حد له ؛ وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع ، لتأخره عن الأوقات المنقضية ، وأن يراد الوقت المحدود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، لأنه آخر الأوقات المحدودة الذي لا حدّ للوقت بعده[٦]. ولا شك أن اليوم الآخر اسم لزمن محدود ؛ لقول الله تعالى : (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) النور : ٣٧ ، وقول النبي ﷺ : (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار)[٧]، وقوله : (فيقول آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله)[٨]. ولكن التوسع في مدلوله حتى يكون مرادفا للدار الآخرة كلها توسع صحيح ؛ لأمرين :-

١- أن القرآن يعاقب بينهما في الذكر ؛ فمرة يعبر عن هذا الأصل باليوم الآخر ، ومرة يعبر عنه بالآخرة ، أو لقاء الآخرة ؛ قال تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم

---

(٥) انظر : المفهم ، للقرطبي ١٤٥/١ ، تفسير القرطبي ١٤٣/١ ، مجموع فتاوى ابن تيمية ٣ / ١٤٥-١٤٩ ، جامع العلوم والحكم ، لابن رجب ، ص ٢٤ ، فتح الباري ، لابن حجر ١١٨/١ ، ٣٩٠/١١ . وكذلك تفسير الطبري لقوله تعالى : (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) البقرة : ١٧٧ ، وتفسير ابن كثير ، والماوردي ، والنسفي ، والآلوسي لقوله تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) البقرة : ٧ .

(٦) الكشاف ، للزمخشري ، تفسير سورة البقرة ، آية (٨) ، وانظر كذلك تفسير الرازي ، والآلوسي ، لهذه الآية . وفي قول الزمخشري لا حد للوقت بعده نظر ؛ لدلالة النصوص على أن في الجنة أياما ، وبكرة وعشيا .

(٧) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، ح (٩٨٧).

(٨) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٧١٢).

ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) البقرة : ٦٢ ، وقال : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) الأحزاب : ٢١ ، وقال : (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا مبينا) النساء : ١٣٦، وقال[٩]: (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) البقرة : ٤ ، وقال : (إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) النحل : ٢٢، (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم) الأعراف : ١٤٧ ؛ ولهذا فسر بعض أهل العلم الآخرة في هذه النصوص مرة بالنشأة الآخرة ، ومرة بالدار الآخرة[١٠].

٢- أن النبي ﷺ فسر الإيمان في حديث جبريل عليه السلام بقوله : (أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[١١]، ثم وقع في روايات أخرى زيادات تدل على أن المراد باليوم الآخر كل ما يكون في الدار الآخرة ، وأنه لا يختص بيوم البعث ؛ كقول النبي ﷺ : (أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، ولقائه[١٢]، وتؤمن بالبعث الآخر)[١٣]، وقوله : (أن تؤمن بالله ، وملائكته ، والجنة والنار ، والبعث بعد الموت ، والقدر كله)[١٤]، وقوله : (أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وتؤمن بالموت ، وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار ، والحساب ، والميزان ، وتؤمن بالقدر كله ، خيره وشره)[١٥]. وقد بنى أهل العلم على التوسع في معنى اليوم الآخر تحديد صفة الإيمان

---

(٩) الآيات الآتية مما عبر فيها عن اليوم الآخر بالآخرة ، أو لقاء الآخرة .

(١٠) انظر : المفردات ، للراغب ص ١٣ . وكذلك تفسير الماوردي ، وابن عطية ، والآلوسي لقوله تعالى : (وبالآخرة هم يوقنون) البقرة : ٤ ، وكذلك انظر للآلوسي تفسير قوله تعالى : (له الحمد في الأولى والآخرة) القصص : ٧٠ .

(١١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١) .

(١٢) اللقاء يحتمل أن يراد به رؤية الله تعالى ، ويحتمل أن يراد به الموت ، ويدل على هذا رواية : (وتؤمن بالموت ، وبالحياة بعد الموت) . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ١١٨/١ .

(١٣) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٧٧٧).

(١٤) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٩٢٤) . وإسناده صحيح . انظر : تحقيق أحمد شاكر للمسند ٢٤٣/١ .

(١٥) مسند الإمام أحمد ، ح (١٤٨) . وإسناده حسن . انظر : تحقيق الأرنؤوط وآخرون للمسند ، ٩٥/٥ .

به ؛ فجعلوه شاملا لكل ما يكون بعد الموت ؛ وللقيامة الكبرى ، وما يكون فيها ، وللجنة وأنواع ثوابها ، والنار وأصناف عقابها[١٦]؛ أي ان للإيمان باليوم الآخر أربعة أركان ، عليها مدار جميع مسائله ؛ وهي :-

١- مقدمات اليوم الآخر ؛ وهي أشراط الساعة الصغرى والكبرى ؛ كالفتنة العامة التي لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، وظهور أدعياء النبوة ، وظهور الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام ، وطلوع الشمس من مغربها .

٢- القيامة الصغرى[١٧]؛ وتبدأ بحضور الأجل ، وما يتبع ذلك من فتنة الممات وعذاب القبر ونعيمه ، ومصير الروح في البرزخ ، ومدى إدراكها لأحوال أهل الدنيا وأهل البرزخ .

٣- القيامة الكبرى ؛ وتبدأ بنفخة الصعق ، وتنتهي بدخول السعداء الجنة والأشقياء النار ، ويدخل في ذلك أصول كثيرة ؛ كالبعث ، وتبدل العالم ، وأهوال القيامة ، ومحاسبة العباد ، ووزن الصحف والأعمال وأهلها ، والحوض ، والشفاعة ، والمرور على الصراط .

٤- الجنة والنار ؛ ويدخل في ذلك أصول عظيمة ؛ كخلق الجنة والنار ، وحَقّيتهما[١٨]، ومكان وجودهما ، وصفات الجنة والنار ، وصفات أهلها ، وأبدية الجنة والنار .

****

(١٦) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، ٣/١٤٥-١٤٩ .

(١٧) القيامة الصغرى الموت وما يكون بعده من نعيم أو عذاب ، والقيامة الكبرى قيام الناس من قبورهم لرب العالمين ، وقد جمع الله بينهما في مواضع من كتابه ، كما في سورة الواقعة ، وسورة ق ، والقيامة ، والفجر . انظر : الجواب الصحيح ، لابن تيمية ١/٢٤٥ .

(١٨) أي أن وجودهما وجود حقيقي ؛ خلافا لمن زل من الفلاسفة فزعم أنه وجود تخييلي لاستصلاح الجمهور .

المبحث الثاني

منزلة اليوم الآخر في الإسلام

للإيمان باليوم الآخر مكانة عظمى في الإسلام ؛ والدلائل على ذلك كثيرة ؛ منها :-

١- الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان التي لا يصح الاعتقاد بدونها ؛ قال الله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) البقرة : ١٧٧ ؛ وقال النبي ﷺ لما قال له جبريل عليه السلام : فأخبرني عن الإيمان : (أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[١٩].

٢- أن الإيمان باليوم الآخر أصل من أصول الإيمان والسعادة في الملل كلها ؛ قال الله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) البقرة : ٦٢ ؛ قال ابن القيم : القواعد الضرورية في كل ملة ثلاث ؛ الأولى : معرفة الرب بأسمائه وصفاته وأفعاله معرفة مفصلة . والثانية : بيان الطريق الموصلة إلى الله ، وهو امتثال أمره واجتناب نهيه ، والإيمان بوعده ووعيده . والثالثة : بيان حال العباد بعد الوصول إلى الله تعالى ؛ وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الحساب ، والحوض ، والميزان ، والصراط ، والجنة والنار[٢٠]. ولا يشكل على هذا ما ذكره ابن حزم وغيره من أن التوراة ليس فيها ذكر المعاد أصلا ؛ لأنه مذكور في غير التوراة من كتبهم ، وقيل إنه مذكور فيها ، لكن لم يبسط كما بسط في غير التوراة[٢١].

٣- أن الإعادة من حكم الخلق الكبرى ؛ فحكمة الله تعالى تحيل الخلق عبثا ، وترك العباد سدى ؛ بلا تكليف ، ولا يوم يبعثون فيه ؛ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ،

---

(١٩) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١) .

(٢٠) مدارج السالكين ، ٣٤٨/٣ ، ٣٤٩ (بتصرف) ، وانظر : تفسير السعدي ، ٢٨/١ ، ٢٩ .

(٢١) انظر : الفصل ، ٣٠٩/١ ، ٢٦١/٢ ، الجواب الصحيح ، لابن تيمية ٣٠٢/١ .

ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ؛ قال تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦ ، وقال : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) القيامة : ٣٦ ، وقال : (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) يونس : ٤ ؛ قال ابن القيم : يوم المعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها، ولهذا يقول سبحانه : (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) غافر : ١٦ ، وقال : (الملك يومئذ الحق للرحمن) الفرقان : ٢٦ ، وقال : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله) الانفطار : ١٩ ، حتى إن الله سبحانه ليتعرف إلى عباده ذلك اليوم بأسماء وصفات لم يعرفوها في هذه الدار، فهو يوم ظهور المملكة العظمى، والأسماء الحسنى، والصفات العلا(٢٢).

٤- أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم البواعث على الجد في عمل الآخرة ؛ ولهذا كان قرين الإيمان بالله تعالى في النصوص التي تحث العباد على الإذعان لأحكام الله تعالى ، والاقتداء بسيد المرسلين ﷺ ؛ قال تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) الأحزاب : ٢١ ، وقال : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) النساء : ٥٩ ، وقال : (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) الطلاق : ٢ .

٥- والإيمان باليوم الآخر يعمر قلوب العباد بمحبة الله تعالى ، والشوق إلى لقائه ، ورجاء ثوابه والخوف من عقابه ؛ وهي مقامات الإيمان التي عليها بناؤه ؛ قال تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) الإسراء : ٥٧ ، وقال : (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا) الأنبياء : ٩٠ ، وقال : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع

---

(٢٢) شفاء العليل ، ص ٤٠٣ .

يدعون ربهم خوفا وطمعا) السجدة : ١٦ ؛ قال ابن القيم : القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى عدم الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر(٢٣).

٦- والإيمان باليوم الآخر يرتفع بأهله عن حمأة الشهوات التي انغمس فيها من لا يخطر ذكر الآخرة بقلبه ، وينأى بهم عن شدة البؤس التي يعانيها من وقف عند ذكر الموت ، وأكثر من ذكره ، ورآه غاية الحياة ، دون أن يجاوزه إلى الحياة الدائمة التي تكون بعده ؛ إما نعيم مقيم لمن خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، وإما عذاب أليم لمن طغى وآثر الحياة الدنيا ، وكذلك فإن الإيمان باليوم الآخر يصون أهله عن سلوك أهل الغفلة والنسيان ؛ الذين ضعف ذكر الآخرة في قلوبهم ، حتى كان همهم الأكبر اغتنام اللذات الحاضرة ، دون كبير اكتراث بذنوب ماضية ، أو عقوبات آتية ؛ يقول أحدهم :-

تناثرت أيام هذا العمـر تناثـر الأوراق حـول الشـــجر
فانعم من الدنيا بلذاتها من قبل أن تسفيك كف القدر(٢٤)

٧- والإيمان باليوم الآخر عون المؤمن على الصبر بجميع أنواعه ؛ فيصبر على أداء الطاعة رجاء ثوابها ، ويصبر عن المعصية خوفا من عقابها ، ويصبر على أقدار الله تعالى رغبة في عظيم ثوابها ؛ وبهذا يفوز بمحبة الله تعالى ، ومعيته ، وجزيل ثوابه ؛ قال تعالى : (والله يحب الصابرين) آل عمران : ١٤٦ ، وقال : (إن الله مع الصابرين) البقرة : ١٥٣ ، وقال : (وبشر الصابرين) البقرة : ١٥٥ ، وقال : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) الزمر : ١٠ ، وقال : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) الرعد : ٢٣ ، ٢٤ ، وعن أنس بن مالك ﷺ قال : (انطلق رسول

(٢٣) مدارج السالكين ١/١٥٧ .

(٢٤) رباعيات الخيام ، ص ٥٨ (طبعة دار الشروق) ، وانظر : تعريف عام بدين الإسلام ، للطنطاوي ، ص ١٠٣ .

الله ﷺ وأصحابه ، حتى سبقوا المشركين إلى بدر ، وجاء المشركون ؛ فقال رسول الله ﷺ : ... قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض ؛ فقال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله! جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال : نعم . قال : بخ بخ . فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك : بخ بخ ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها ؛ قال : فإنك من أهلها ، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ؛ ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتل حتى قتل)[٢٥]، وعن عطاء بن أبي رباح قال : قال لي ابن عباس رضي الله عنهما : (ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت : بلى، قال : هذه المرأة السوداء ؛ أتت النبي ﷺ ، فقالت : إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال : إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك . فقالت : أصبر، فقالت : إني أتكشف، فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها)[٢٦]. وإذا كان الإيمان باليوم الآخر بهذه المكانة السامقة فالذي يزهد الناس في الآخرة على عظم خطرها أسباب كثيرة ، منها :-

١- ضعف الإيمان ؛ فالإيمان روح الأعمال ، والباعث عليها ، والآمر بأحسنها ، والناهي عن أقبحها ، وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه ، وائتمار صاحبه وانتهاؤه ، فإذا ضعف الإيمان قل العمل للآخرة ، والشوق إليها .

٢- غفلة القلب ؛ فالغفلة حجاب على القلب يمنعه عن طلب الحياة الآخرة ، وإيثارها على الدنيا الفانية ، فإن بادر العبد إلى كشفه بذكر الآخرة ، وإلا عظم حتى يصير حجاب معاص وكبائر وبدع ، أو حجاب شك وتكذيب.

٣- ضعف العلم بخيرية الآخرة ، وحقيقة نعيمها الأبدي ، الذي لا ينغصه وقوع مكروه ولا توقعه ، قال تعالى : (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة

---

(٢٥) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، ح (١٩٠١).

(٢٦) صحيح البخاري ، كتاب المرضى ، ح (٥٦٥٢).

لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) العنكبوت : ٦٤ ؛ أي الحياة الدائمة التي لا موت فيها[٢٧]، وقال تعالى : (وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون) القصص : ٦٠ ، وقال : (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) الأعلى : ١٦ ، ١٧ .

٤- الطمع في الدنيا ، والاغترار بالظنون الخاطئة ؛ كرجاء المغفرة مع الإصرار على المعاصي ، وكالأمن من العقوبة ، جهلا بسنة الله في الإمهال ؛ قال تعالى : (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) الأعراف : ١٦٩ .

٥- إضلال أهل البدع ؛ فالجهمية حالوا بين القلوب وبين معرفة أسماء الله وصفاته ، التي هي روح العبادات ، وأعظم ما يجذب القلوب إلى المسارعة في عمل الآخرة ، والمرجئة وأصحاب الأهواء والعوائد أوهنوا الوعد والوعيد ، وزينوا مخالفة ما يعارض أهواءهم من أمر الله ونهيه ، وأصحاب الشهوات صدوا كثيرا من الناس عن طريق المعاد ، والاستعداد للجنة ، ولقاء الله ؛ وقالوا : اليوم خمر وغدا أمر ، و ذرة منقودة خير من درة موعودة[٢٨]!!

****

(٢٧) من أهل العلم من رأى أن قوله تعالى : (وإن الدار الآخرة لهي الحيوان) العنكبوت : ٦٤ : يعني أن كل ما في الجنة حي . انظر : المفهم ، للقرطبي ، ١٩٢/٧ .

(٢٨) انظر : قاعدة في المحبة ، لابن تيمية ، ص ٤٢ ، بغية المرتاد ، لابن تيمية ، ص ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، مدارج السالكين ،لابن القيم ، ٤٥٢/١ ، ٢٨٤/٣-٢٨٧ ، ٣٤٨-٣٥٤ ، الوعد الأخروي ، للمؤلف ، ٣٣/١-٣٦ ، وكذلك ميثاق الإيمان ، ص ١١٥-١١٨ .

الفصل الثاني

أشراط الساعة

وفيه مبحثان :-

المبحث الأول : أشراط الساعة الصغرى .

المبحث الثاني : أشراط الساعة الكبرى .

المبحث الأول

أشـراط الساعة الصغرى

أشراط الساعة هي مقدمات ، وعلامات اقتراب الساعة الكبرى[٢٩]؛ وذلك لأن الساعة شرعا أطلقت على ثلاثة معان :-

١- الساعة الصغرى ؛ وهي موت الإنسان ؛ فساعة كل إنسان موته ، فمن مات فقد قامت ساعته ، ومنه حديث أنس ﷺ قال : (كان رسول الله ﷺ قاعدا تحت نخلة فهاجت ريح ، فقام فزعا ، فقيل له ، فقال : إني تخوفت الساعة)[٣٠]؛ يعني موته .

٢- الساعة الوسطى ؛ وهي موت أهل القرن الواحد ؛ كما في قول النبي ﷺ : (إن يعش هذا الغلام فعسى ألا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة)[٣١]؛ أي ساعة المخاطبين ، أو ساعة القرن الذي هم فيه ؛ قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : (كان رجال من الأعراب جفاة يأتون النبي ﷺ فيسألونه متى الساعة ؟ فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول : إن يعش هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم)[٣٢]؛ يعني موتهم ، الذي يفضي بهم إلى الدار الآخرة . وقال ابن عمر ﷺ : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته ، فلما سلم قام ، فقال : (أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد)[٣٣]؛ أي من القرن الذي هم فيه ؛ فموت من كان منهم موجودا في تلك الليلة ، وانقراضهم كلهم هو ساعة ذلك القرن ، وبذلك فسره كبار الصحابة.

---

(٢٩) انظر : تفسير الطبري ، وابن كثير ، والبقاعي للآية (١٨) ، من سورة محمد .

(٣٠) رواه الذهبي بسنده ، ثم قال : إسناده ثقات ، لكن الأعمش مدلس ، مع أنه قد رأى أنس بن مالك ، وحكى عنه . انظر : سير أعلام النبلاء ، ٣٦١/١١ ، ٣٦٢ .

(٣١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٥٣) .

(٣٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥١١).

(٣٣) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، ح (٢٥٣٧).

٣- الساعة الكبرى ؛ وهي وقت نهاية الدنيا وبداية الآخرة ، والساعة في الأصل عبارة عن جزء قليل من ليل أو نهار ؛ يقال : جلست عندك ساعة من النهار ، أي وقتا قليلا منه ، ثم استعير لوقت الساعة الكبرى ؛ لقلة الوقت الذي تقوم فيه . والمعنى الثالث هو المتبادر من معاني الساعة عند الإطلاق ، والمراد منها في كل القرآن ؛ قال الزجاج : معنى الساعة في كل القرآن الوقت الذي تقوم فيه القيامة[٣٤]. وقد استأثر الله تعالى بعلم وقت الساعة العظمى ؛ فلا يعلم جلية أمرها ملك مقرب ولا نبي مرسل ؛ قال الله تعالى : (إن الله عنده علم الساعة) لقمان : ٣٤ ، وقال : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الأعراف : ١٨٧ ، وقال النبي ﷺ : (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ؛ لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)[٣٥]، وقال لجبريل عليه السلام لما قال له : (فأخبرني عن الساعة؟ قال النبي ﷺ : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)[٣٦]؛ يعني قد استوى في العلم بوقتها كل سائل ومسؤول ؛ لأن الألف واللام إن كانت للجنس عمت بطريق اللفظ ، وإن كانت للعهد عمت بطريق الأولى . وإنما يعلم الناس اقترابها ، وأشراطها ، وقيامها قبل شروق شمس آخر جمعة في الدنيا ؛ قال تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر) القمر : ١ ، وقال النبي ﷺ : (بعثت أنا والساعة كهاتين ، وضم السبابة والوسطى)[٣٧]، وقال جبريل عليه السلام : (فأخبرني عن أماراتها ؟ قال النبي ﷺ : أن تلد

---

(٣٤) نقلا عن النهاية ، لابن الأثير ٤٢٢/٢ .

(٣٥) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، ح (٧٣٧٩) .

(٣٦) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١) .

(٣٧) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١) .

الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطالون في البنيان)[٣٨]، وقال ﷺ : (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ؛ فيه خلق آدم ؛ وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه قبض، وفيه تقوم الساعة، ما على الأرض من دابة إلا وهي تصبح يوم الجمعة مصيخة ، حتى تطلع الشمس ؛ شفقا من الساعة إلا ابن آدم)[٣٩]؛ وبهذا يظهر خطأ من زعم أن النبي ﷺ لم يخرج من الدنيا حتى أُطلع على وقت الساعة ، ولكنه أمر بكتمانه[٤٠]، ويظهر كذلك بطلان ما روي في مقدار الدنيا ؛ لأنه لو كان صحيحا لكان كل أحد عالما بما بقي للقيامة ، أو بوقت قيام الساعة ؛ قال ابن كثير : لم يثبت في حديث عن النبي ﷺ أنه حدد وقت الساعة بمدة محصورة ، وإنما ذكر شيئا من أشراطها ، وكل حديث ورد في تحديد وقت يوم القيامة على التعيين لا يثبت إسناده ، وتعيين وقت الساعة لم يأت به حديث صحيح ، بل الآيات والأحاديث دالة على أن علم ذلك مما استأثر الله تعالى به دون أحد من خلقه[٤١].

أنواع الأشراط الصغرى

أشراط الساعة العظمى نوعان ؛ أشراط كبرى ؛ وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة . وأشراط صغرى ؛ وهي التي تكون من نوع المعتاد ، وغالبها متقدم على الأشراط الكبرى ، ومنها ما يكون مقاربا أو مقارنا لها ، وهي ثلاثة أنواع :-

١- ما وقع وفق ما قال النبي ﷺ ؛ كاقتتال فئتين عظيمتين من المسلمين دعواهما

---

(٣٨) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١) .

(٣٩) سنن النسائي ، كتاب الجمعة ، ح (١٤٣٠). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، ح (٣٣٣٤).

(٤٠) انظر : حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ٣٥/٤ .

(٤١) النهاية ، ص ٢٠ (بتصرف) ، وانظر منها أيضا : ص ٢٣ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، وانظر كذلك : التذكرة ، للقرطبي ، ص ٦٢٨ ، الفصل ، لابن حزم ٦٠/٢ ، شرح السنة ، للبغوي ٩٩/١٥-١٠٢ ، المنار المنيف ، لابن القيم ص ٨٠-٨٥ ، تفسير ابن كثير ١٣١/٤ ، ١٣٢ ، فتح الباري ، لابن رجب ، ١٧٦/٣ ، فتح الباري ، لابن حجر ٥٥٦/١٠ ، ٥٥٧ ، ٣٦٣/١١ ، ٣٦٤ ، أشراط الساعة ، للوابل ، ص ٥٧-٧٣ .

واحدة ، وظهور نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى[٤٢]، وتطاول الناس في البنيان .

٢- ما وقعت مباديه ولم يستحكم ؛ كتقارب الزمان[٤٣]، وتقارب الأسواق ، وكثرة الزلازل .

٣- مالم يقع منه شيء ، ولكنه سيقع جزما ؛ كتسافد الناس في الطرق تسافد الحمر ، وتكلم السباع والجماد ؛ فيكلم السباع الإنس ، ويكلم الرجل عذَبَةُ سوطه ، وشراك نعله ، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده[٤٤]. وأدلة الأشراط الصغرى كثيرة ، من أجمعها حديث عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال : أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك ، وهو في قبة من أدم ، فقال : (اعدد ستا بين يدي الساعة ؛ موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم ، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر ، فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا)[٤٥]؛ فتضمن الحديث ستا من العلامات الصغرى ؛ هي :-

١- موت النبي ﷺ ؛ وهو أول أمر دهم المسلمين ، فبموته انقطع الوحي ، ونقص الخير ، وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب ؛ قال أبو بكر ﷺ :

فلتحدثن حوادث من بعده تَعنى بهن جوانح وصدور

وقالت صفية بنت عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

---

(٤٢) هذه النار العظيمة ظهرت بالمدينة النبوية ، في منتصف القرن السابع الهجري . انظر في صفتها وتفاصيلها : البداية والنهاية ، لابن كثير ١٨٧/١٣ .

(٤٣) تقارب الزمان يعني أن السنة تكون كالشهر ، والشهر كالجمعة ، والجمعة كاليوم ، واليوم كالساعة ، والساعة كاحتراق السعفة . انظر : مسند الإمام أحمد ، ح (١٠٩٤٣) ، صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، ح (٧٤٢٢).

(٤٤) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٢٢) . وعذبة السوط أي طرفه . انظر : معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، ٢٦٠/٤ .

(٤٥) صحيح البخاري ، كتاب الجزية ، ح (٣١٧٦).

لعمرك ما أبكي النبي لفقده ولكن ما أخشى من الهرج آتيا[٤٦]

٢- فتح بيت المقدس ، وتم ذلك بعد أن حاصر أبو عبيدة ﷺ وجنوده بيت المقدس ، وضيق عليهم ، حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ، فكتب إليه أبو عبيدة بذلك فاستشار عمر الناس في ذلك فأشار عثمان ﷺ بأن لا يركب إليهم ليكون أرغم لأنوفهم ، وأشار علي ﷺ بالمسير إليهم ليكون أخف وطأة على المسلمين في حصارهم ، فمال لقول علي ، وسار حتى صالح نصارى بيت المقدس ، ثم دخل المسجد من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء ، فصلى فيه تحية المسجد ، وصلى فيه بالمسلمين من الغد صلاة الفجر ، فقرأ في الأولى بسورة ص ، وفي الثانية بسورة الإسراء ، وكان ذلك الفتح على قول أئمة السير سنة ست عشرة للهجرة ، وقيل إنه كان سنة خمس عشرة[٤٧].

٣- كثرة وقوع الموت في المسلمين ؛ وهو المراد بقول النبي ﷺ : (ثم مُوْتان يأخذ فيكم كقُعاص[٤٨] الغنم) ؛ وكان ذلك في طاعون عمواس ، الذي وقع سنة ثماني عشرة من الهجرة ، وقيل إنه كان سنة سبع عشرة ، وتوفي فيه أبو عبيدة ، ومعاذ ، ويزيد بن أبي سفيان ، وغيرهم من أشراف المسلمين ، وعامتهم ، وطال مكثه ، وفني خلق كثير من الناس ، حتى طمع العدو ، وتخوفت قلوب المسلمين لذلك ؛ ولهذا قدم عمر ﷺ بعد ذلك إلى الشام ، فقسم المواريث التي أشكل أمرها ، وطابت قلوب الناس بقدومه ، وانقمع الأعداء من كل جانب لمجيئه[٤٩].

٤- استفاضة المال ، أي كثرته ، حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ، وكان ذلك في خلافة عثمان ﷺ ، بعد الفتوح العظيمة التي تمت في عهده . وفاض المال

---

(٤٦) انظر : التذكرة ، للقرطبي ، ص ٦٢٩ ، ٦٣٠ .

(٤٧) انظر : البداية والنهاية ، لابن كثير ٧/٥٥-٥٩ .

(٤٨) هو داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة ، والظاهر أن طاعون عمواس كان بهذه الصفة ، حتى قيل إنه مات منه سبعون ألفا في ثلاثة أيام . انظر : إرشاد الساري ، للقسطلاني ٥/٢٤١ .

(٤٩) انظر : البداية والنهاية ، لابن كثير ٧/٧٨-٨١ ، ٩٤ ، فتح الباري ، لابن حجر ٦/٢٧٨ .

أيضا في عهد عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، حتى كان الرجل لا يجد من يقبل صدقته ، وسيفيض أيضا آخر الزمان حتى يهم الرجل من يقبل صدقته ، ولكن المراد في الحديث كثرة المال التي كانت في عهد عثمان ؛ كما يشعر بذلك ذكرها قبل الفتنة العامة[٥٠].

٥- الفتنة العامة ، التي لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ؛ وهي مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة خمس وثلاثين من الهجرة ؛ ولعظم شأن هذه الفتنة تنوع الإخبار عنها في النصوص ؛ فعن ابن حوالة رضي الله عنه مرفوعا : (من نجا من ثلاث فقد نجا ، قاله ثلاث مرات ، قالوا : ماذا يا رسول الله ؟ قال : موتي ، ومن قتل خليفة مصطبر بالحق يعطيه ، والدجال)[٥١]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا : (تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين ، أو ست وثلاثين ، أو سبع وثلاثين ، فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يقم لهم دينهم يقم سبعين عاما)[٥٢]، والمراد بدوران رحى الإسلام انتظام شأن المسلمين ، واستقامة أمرهم إلى سنة خمس وثلاثين ، وهي السنة التي وقعت فيها الفتنة الكبرى ، ونشأت عنها الفتن في موقعة الجمل ، وصفين ، والنهروان ، وبسبب هذه الفتن وما نشأ عنها ظهرت أصول الفرق التي حادت عن سبيل أهل السنة والجماعة ؛ قال سعيد بن المسيب : وقعت الفتنة الأولى ـ يعني مقتل عثمان ـ فلم تبق من أصحاب بدر أحدا ، ثم وقعت الفتنة الثانية ـ يعني الحرة ـ فلم تبق من أصحاب الحديبية أحدا ، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طَبَاخ[٥٣].قال ابن أبي

---

(٥٠) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٢٧٨/٦ .

(٥١) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٢٤٨٨) . وإسناده صحيح . انظر : ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة ، للألباني ، ح (١١٧٧).

(٥٢) سنن أبي داود ، كتاب الفتن ، ح (٤٢٥٤) ، وإسناده صحيح . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٩٧٦).

(٥٣) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، ح (٤٠٢٤). والمعنى أن أصحاب بدر ماتوا منذ قامت الفتنة الأولى إلى أن قامت الفتنة الأخرى ، وكان آخر من مات من البدريين سعد بن أبي وقاص ، مات قبل وقعة الحرة ببضع سنين . وهكذا

العز الحنفي : الخوارج والشيعة حدثوا في الفتنة الأولى ، والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية ، والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة[٥٤]. وقد أخبر النبي ﷺ في غير هذا الحديث عن فتن أخرى تعد من جملة الأشراط الصغرى ؛ منها :-

أ- ظهور أدعياء النبوة ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ؛ كلهم يزعم أنه رسول الله)[٥٥]، وقد خرج كثير من هؤلاء الأدعياء ، وسيستمر خروجهم حتى يكون آخرهم الأعور الكذاب.

ب- اتباع سنن من كان قبلنا من الأمم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ[٥٦] القرون قبلها ؛ شبرا بشبر ، وذراعا بذراع . فقيل : يا رسول الله كفارس والروم ؟ قال : ومن الناس إلا أولئك)[٥٧]؛ قال النووي : المراد بالشبر والذراع .. التمثيل بشدة الموافقة لهم ، والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات ، لا في الكفر ، وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله فقد وقع ما أخبر به[٥٨]. ودليل تخصيص الحديث بالموافقة في المعاصي النصوص الدالة على عصمة الأمة من الإطباق على الكفر ، وبقاء طائفة من الأمة ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك[٥٩].

ج- قتال الترك ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون

المعنى فيما بعده . والظاهر أن المراد بالثالثة خروج أبي حمزة الخارجي والله أعلم . ومعنى طباخ أي عقل وقوة . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٣٢٥/٧ ، شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، ص ٥٢٥ .

(٥٤) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٥٢٥ . وانظر : البداية والنهاية ، لابن كثير ، ١٧٠/٧ ، فتح الباري ، لابن حجر ٢٧٨/٦ .

(٥٥) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (١٥٧).

(٥٦) الأخذ بفتح الألف وسكون الخاء على الأشهر هو السيرة ، يقال : أخذ فلان بأخذ فلان ؛ أي سار بسيرته . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ، ٣٠٠/١٣ .

(٥٧) صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام ، ح (٧٣١٩).

(٥٨) شرح صحيح مسلم ، ٢٢٠/١٦ .

(٥٩) انظر : صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، ح (١٩٢٠).

الترك ، قوما وجوههم كالمجان المطرقة ، يلبسون الشعر ، ويمشون في الشعر)[٦٠]؛ قال النووي : هذه كلها معجزات لرسول الله ﷺ ؛ فقد وجد قتال هؤلاء الترك بجميع صفاتهم التي ذكرها ﷺ ؛ صغار الأعين ، حمر الوجوه ، ذلف الآنف ، عراض الوجوه ، كأن وجوههم المجان المطرقة ، ينتعلون الشعر ، فوجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا ، وقاتلهم المسلمون مرات ، وقتالهم الآن ، ونسأل الله الكريم إحسان العاقبة للمسلمين في أمرهم وأمر غيرهم ، وسائر أحوالهم ، وإدامة اللطف بهم ، والحماية ، وصلى الله على رسوله الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى[٦١].

د- ظهور الموبقات وانتشارها ؛ عن أنس رضي الله عنه مرفوعا : (إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويثبت الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنى)[٦٢]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا : (بين يدي الساعة يظهر الربا ، والزنى ، والخمر)[٦٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج ، قالوا : وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : القتل ، القتل)[٦٤]؛ أي القتل الكثير المستمر حتى تقوم الساعة وهم على ذلك[٦٥]. وهذه الفتن وغيرها تحمل أناسا في ذلك الزمان على تمني الموت ، وتنتهي

---

(٦٠) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩١٢). والمجان جمع مجن وهو الترس ، والمطرقة أي التي ألبست الجلد ، ومعنى يمشون في الشعر أي ينتعلون الشعر . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ٣٦/١٨ ، ٣٧ .

(٦١) شرح صحيح مسلم ، ٣٧/١٨ ، ٣٨.

(٦٢) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، ح (٨٠) . ورفع العلم يعني موت حملته ، ويحتمل أن يكون بنزعه من صدور الرجال ، كما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه . ويرتبط برفع العلم أشراط أخرى من أهمها ضياع الأمانة ، وذلك إذا وسد الأمر إلى غير أهله . قال ابن حجر : إسناد الأمر إلى غير أهله إنما يكون عند غلبة الجهل ، ورفع العلم ، وذلك من جملة الأشراط . وأما شرب الخمر وظهور الزنى فالمراد بذلك كثرته وفشوه واشتهاره . انظر : مجمع الزوائد ، للهيثمي ٣٣٢/٧ ، ٣٣٣ ، فتح الباري ١٤٣/١ ، ١٧٨ .

(٦٣) المعجم الأوسط ، للطبراني ، ح (٧٦٩٥) . ورجال إسناده رجال الصحيح ، غير أبي حمزة الكوفي ، وهو حسن الحديث . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢/٣٤١٥).

(٦٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (١٥٧).

(٦٥) انظر : سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ٣٦٦/٤ .

بآخرين إلى الخروج من الدين كلية ؛ لكثرتها وشدتها والتباسها ؛ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ؛ فيقول : يا ليتني مكانه)[٦٦]، وعن أبي موسى الأشعري ﷺ مرفوعا : (إن بين يدي الساعة فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا)[٦٧]، وعن ثوبان ﷺ مرفوعا : (ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان)[٦٨].

٦- غدر بني الأصفر ؛ أي الروم ؛ فيأتون المسلمين تحت ثمانين غاية[٦٩]، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا . وسبب غدرهم مبين في حديث ذي مخمر الحبشي ﷺ مرفوعا : (ستصالحون الروم صلحا آمنا، فتغزون أنتم وهم عدوا من ورائكم، فتنصرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلول، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب

---

(٦٦) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، ح (٧١١٥). قال ابن عبد البر : ظن بعض الناس أن هذا الحديث معارض لنهي المؤمن عن تمني الموت لضر نزل به ، وليس كما ظن ، وإنما هذا خبر عن أن ذلك سيكون لشدة المحن والفتن وخوف ذهاب الدين لا لضر ينزل بالمؤمن . التمهيد ، ١٤٦/١٨ (باختصار) . وفي بعض كلامه نظر ؛ لدلالة النصوص على أن الذي يحمل الناس على تمني الموت في آخر الزمان شدة البلاء ، لا خوف ذهاب الدين ؛ فعن أبي هريرة ﷺ رفعه : (والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ، ويقول : يا ليتني مكان صاحب هذا القبر ، وليس به الدين إلا البلاء) . صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (١٥٧). وعن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعا: (تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم فيقول : من صعق قبلكم الغداة ؟ فيقولون : صعق فلان وفلان) . رواه الإمام أحمد بسند صحيح . المسند بتخريج الأرنؤوط ورفاقه ، ح (١١٦٢٠) ، ١٦٣/١٨. وعن حذيفة ﷺ مرفوعا: (ليأتين على أمتي زمان يتمنون فيه الدجال . قلت : يا رسول الله بأبي وأمي ! مم ذاك ؟! قال: مما يلقون من العناء والعناء). رواه الطبراني بسند صحيح . انظر : المعجم الأوسط ، للطبراني ، ح (٤٢٨٩) ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني ، ح (٣٠٩٠).

(٦٧) سنن أبي داود ، كتاب الفتن ، ح (٤٢٥٩). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٢٠٤٩).

(٦٨) سنن أبي داود ، كتاب الفتن ، ح (٤٢٥٢). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (١٧٧٣).

(٦٩) أي راية ، سميت بذلك لأنها غاية المتبع ، إذا وقفت وقف ، وجملة العدد المشار إليه في الحديث تسعمائة وستون ألفا . قال ابن المنير : أما قصة الروم فلم تجتمع إلى الآن ، فهي من الأمور التي لم تقع بعد . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٢٧٨/٦ .

فيقول : غلب الصليب ؛ فيغضب رجل من المسلمين فيدقه، فعند ذلك تغدر الروم، وتجمع للملحمة)[٧٠]، والقتال في هذه الملحمة شديد جدا ، وعقبه تفتح القسطنطينية بالتكبير[٧١]، ويظهر الدجال ؛ قال ابن مسعود ﷺ : (إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة ، ثم قال بيده هكذا، ونحاها نحو الشأم، فقال : عدو يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام. قلت : الروم تعني ؟ قال : نعم، وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة ، فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدبرة عليهم، فيقتلون مقتلة لا يرى مثلها، أو لم ير مثلها ، حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتا، فيتعاد بنو الأب كانوا مائة، فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح، أو أي ميراث يقاسم، فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ : إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم ؛ فيرفضون ما في أيديهم ويقبلون)[٧٢]، وعن أبي هريرة ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال :(لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق، أو بدابق[٧٣]، فيخرج إليهم جيش من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا والله، لا نخلي بينكم وبين إخواننا ؛ فيقاتلونهم

---

(٧٠) سنن أبي داود ،كتاب الملاحم ، ح (٤٢٩٣) . صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٣٦١٢).

(٧١) تعرف القسطنطينية اليوم بإصطنبول ، قال ياقوت الحموي : إصطنبول بسكون النون وضم الموحدة وسكون الواو ولام اسم لمدينة القسطنطينية . معجم البلدان ٢١٢/١ .

(٧٢) صحيح مسلم ،كتاب الفتن ، ح (٢٨٩٩).

(٧٣) موضعان بالشام قرب حلب . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ٢١/١٨ .

فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبدا، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان : إن المسيح قد خلفكم في أهليكم ، فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشأم خرج، فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم ﷺ ، فأمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته)[٧٤]، وفي حديث آخر لأبي هريرة ﷺ مرفوعا : (سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر ؟ قالوا : نعم يا رسول الله. قال : لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفا من بني إسحاق[٧٥]، فإذا جاءوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا : لا إله إلا الله والله أكبر ؛ فيسقط أحد جانبيها ، ثم يقولوا الثانية : لا إله إلا الله والله أكبر ؛ فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة : لا إله إلا الله والله أكبر ؛ فيفرج لهم، فيدخلوها، فيغنموا، فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءهم الصريخ، فقال : إن الدجال قد خرج ، فيتركون كل شيء ويرجعون)[٧٦].

وهناك أشراط أخرى سوى هذه الأشراط التي ذكرت مجموعة في حديث عوف بن مالك الأشجعي ﷺ ؛ منها :-

١- خروج المهدي ؛ والأحاديث الدالة على خروجه كثيرة ، حتى ذكر بعض أهل

---

(٧٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٨٩٧) .

(٧٥) قال القاضي : كذا هو في جميع أصول صحيح مسلم : " من بني إسحاق " ، وقال بعضهم : المعروف المحفوظ : " من بني إسماعيل " ، وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه ؛ لأنه إنما أراد العرب ، وهذه المدينة هي القسطنطينية . ورأى بعض أهل العلم أن في قوله : " من بني إسحاق " دلالة على إسلام طائفة كبيرة من الروم ، يكون فتح القسطنطينية على أيديهم ، ويقوي هذا القول أن الروم يقولون للمسلمين : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا والله ، لا نخلي بينكم وبين إخواننا . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ١٨ / ٤٣ ، ٤٤ ، أشراط الساعة ، للوابل ، ص ٢٠٩-٢١٩ .

(٧٦) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٢٠).

العلم أنها متواترة تواترا معنويا[٧٧]؛ قال ابن القيم : (تواترت الأخبار واستفاضت عن رسول الله ﷺ بذكر المهدي ، وأنه من أهل بيته ، وأنه يملك سبع سنين ، وأنه يملأ الأرض عدلا ، وأن عيسى يخرج فيساعده على قتل الدجال[٧٨] ، وأنه يؤم هذه الأمة ، ويصلي عيسى خلفه)[٧٩]، وقال أيضا : هو (رجل من أهل بيت النبي ﷺ ، من ولد الحسن بن علي رضي الله عنه ، يخرج في آخر الزمان ، وقد امتلأت الأرض جورا وظلما ، فيملأها قسطا وعدلا ، وأكثر الأحاديث على هذا تدل . وفي كونه من ولد الحسن سر لطيف ؛ وهو أن الحسن رضي الله عنه عنه ترك الخلافة لله ، فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق ، المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض ، وهذه سنة الله في عباده أنه من ترك لأجله شيئا أعطاه الله أو أعطى ذريته أفضل منه ، وهذا بخلاف الحسين رضي الله عنه ؛ فإنه حرص عليها وقاتل عليها فلم يظفر بها . والله أعلم)[٨٠]. وقد غلط في المهدي طائفتان ؛ **الأولى** : أنكروا خروجه ، واحتجوا بحديث : (ولا المهدي إلا عيسى بن مريم)[٨١]. مع أن هذا الحديث لا حجة فيه ؛ لأن محمد بن خالد الجندي تفرد به ، وهو مجهول ، ولو صح لما كان فيه حجة على رد الأحاديث التي دلت على خروج المهدي ؛ لأن عيسى عليه السلام أعظم مهدي بين يدي الساعة ؛ فيحمل الحديث على نفي المهدي المعصوم الأعظم وإن كان غيره مهديا . **والثانية** : ادعوا في مهديهم الموهوم أنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ وأخبر بخروجه ؛ فقد ادعاه الموحدون في محمد بن تومرت ، والباطنية ، في عبيد الله بن ميمون القداح ، والشيعة الإمامية في

---

(٧٧) انظر : فتاوى اللجنة الدائمة بالمملكة السعودية ١٠١/٣ ، شرح كتاب التوحيد ، لابن حميد ، ص ٥٣٨ . وفي تواتر أحاديث المهدي دليل قاطع على بطلان قول من ضعف أحاديث المهدي من الكتاب المعاصرين ، وزعم أنه أسطورة دخلت كتب أهل السنة بتأثير التشيع وغيره . انظر : أشراط الساعة ، للوابل ، ص ٢٦٥-٢٧١ .

(٧٨) أي أن المهدي يساعد عيسى عليه السلام على قتل الدجال .

(٧٩) المنار المنيف ، ص ١٤٢ .

(٨٠) المنار المنيف ، ص ١٥١ .

(٨١) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، ح (٤٠٣٩).

محمد بن الحسن العسكري[٨٢]، وادعاه غيرهم كثير ؛ قال ابن تيمية : هؤلاء كثيرون ، لا يحصي عددهم إلا الله ... واعرف في زماننا غير واحد من المشايخ الذين فيهم زهد وعبادة يظن كل منهم أنه المهدي ، وربما يُخاطب أحدُهم بذلك مرات متعددة ، ويكون المخاطِب له بذلك الشيطان ، وهو يظن أنه من قبل الله[٨٣].

٢- هدم الكعبة هدما لا تعمر بعده[٨٤]؛ قال النبي ﷺ : (يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة)[٨٥]، وقال : (كأني به أسود أفحج يقلعها حجرا حجرا)[٨٦]، وقال : (ثم تأتي الحبشة فيخربونه خرابا لا يعمر بعده أبدا ، وهم الذين يستخرجون كنزه)[٨٧]. وهذا الهدم إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج ؛ لحديث : (ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج)[٨٨]، وثبت أن عيسى ابن مريم عليه السلام يحج البيت العتيق[٨٩]. ورأى بعض أهل العلم أن هدم الكعبة إنما يكون بعد أن يبعث الله ريحا طيبة تقبض أرواح المؤمنين ، حتى لا يبقى على ظهر الأرض مؤمن ؛ قال ابن

---

(٨٢) الشيعة الإمامية هم أشهر من ادعى المهدوية ، مع أن المهدي الذي نعته النبي ﷺ اسمه محمد بن عبد الله ، ومهديهم اسمه محمد بن الحسن العسكري ، وأيضا المهدي من ولد الحسن بن علي لا من ولد الحسين كما يعتقدون ، ويتخيلون أنه موجود من مئات السنين إلا أنه مختف بسرداب بسامراء ؛ ولهذا ينتظرون خروجه كل يوم !

(٨٣) منهاج السنة ٢٥٩/٨ ، وانظر لمزيد تفصيل في خروج المهدي : منهاج السنة ٢٥٤/٨-٢٦٠ ، المنار المنيف ، لابن القيم ، ص ١٤١-١٥٥ .

(٨٤) هذا الهدم يكون على يد ذي السويقتين من الحبشة ، وأما قبل ذلك فهي محفوظة بحفظ الله تعالى ؛ ولهذا أهلك الله أصحاب الفيل لما هموا بهدمها ، ولا يشكل على ذلك تسليط القرامطة ؛ لأنهم لم يصلوا إلى هدمه ونقضه ، ومنع الناس من حجه بالكلية كما أراد أصحاب الفيل . انظر : لطائف المعارف ، لابن رجب ، ص ١٤١ .

(٨٥) صحيح البخاري ، كتاب الحج ، ح (١٥٩٦). والسويقتان تصغير الساقين ، وإحداهما سويقة ؛ وصغرهما لحموشتهما ؛ أي دقتهما ورقتهما ، وهي صفة سوق الحبشة غالبا . انظر : المفهم ، للقرطبي ٢٤٥/٧ ، فتح الباري ٤٦١/٣ .

(٨٦) صحيح البخاري ، كتاب الحج ، ح (١٥٩٥). وأفحج بوزن أفعل ، والفحج تباعد ما بين الساقين . انظر : فتح الباري ٤٦١/٣.

(٨٧) مسند الإمام أحمد ، ح (٧٩١٠). وإسناده صحيح . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٥٧٩) .

(٨٨) صحيح البخاري ، كتاب الحج ، ح (١٥٩٣).

(٨٩) انظر : تفسير ابن كثير ٦٤١/١ ، ٣٦٥/٥ .

حجر : يقع في آخر الزمان قرب قيام الساعة ، حيث لا يبقى في الأرض أحد يقول الله الله ؛ ولهذا وقع في رواية ... لا يعمر بعده أبدا[٩٠] ، وقال القرطبي : تخريب الكعبة على يد هذا الحبشي إنما يكون عند خراب الدنيا ، ولعل ذلك في الوقت الذي لا يبقى فيه إلا شرار الخلق[٩١]. وفي هذا نظر ؛ لأن القحطاني يخرج بعد تخريب البيت ؛ فيهلك من خربه من الحبشة ، إلا إذا أريد بذلك فقد الإيمان من الأرض حتى لا يكون بالدنيا إيمان إلا بأرض اليمن فممكن ، ويكون هذا مما يفسر به حديث : (الإيمان يمان)[٩٢]؛ أي يتأخر الإيمان بها بعد فقده من جميع الأرض[٩٣].

٣- ملك القحطاني ؛ لحديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه)[٩٤]؛ والقحطاني ملك صالح يسير سيرة المهدي ، وفي ملكه شدة وقوة ، كما يفهم من قول النبي ﷺ : (يسوق الناس بعصاه) ، وخروجه إنما يكون بعد تغير الزمان حتى تعبد الأوثان ؛ ولهذا أورده البخاري في باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان . وأخرج الإمام مسلم حديث القحطاني عقب حديث يخرب الكعبة ذو السويقتين ؛ لأنه يخرج بعد أن يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة فيهلكه . وقيل إن القحطاني هو جهجاه ؛ لأن أصل الجهجاه الصياح ، وهي صفة تناسب ذكر العصا . وفي صنيع الإمام مسلم ما يشعر بذلك ؛ لأنه أورد حديث الجهجاه عقب حديث القحطاني ، ولكن يرده إطلاق كونه من قحطان ، فظاهره أنه من الأحرار ، والجهجاه من الموالي ؛ كما ثبت عند الترمذي وغيره :

---

(٩٠) فتح الباري ٤٦١/٣ .

(٩١) المفهم ٢٧٤/٧ ، وانظر : لطائف المعارف ، لابن رجب ، ص ١٤١ .

(٩٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، ح (٤٣٨٨).

(٩٣) انظر : فتح الباري ٧٨/١٣ .

(٩٤) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، ح (٧١١٧).

(لايذهب الليل والنهار حتى يملك رجل من الموالي يقال له : جهجاه)[٩٥]، والله أعلم[٩٦].

****

(٩٥) جامع الترمذي ، أبواب الفتن ، ح (٢٢٢٨) ، مسند الإمام أحمد ، ح (٨٣٦٤) . والحديث صححه الألباني . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٦٨٤).

(٩٦) انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ٣٥/١٨ ، ٣٦ ، المفهم ، للقرطبي ٢٤٥/٧-٢٤٨ ، فتح الباري ، لابن حجر ٥٤٥/٦ ، ٥٤٦ ، ٧٧/١٣ ، ٧٨ ، ١١٥ .

المبحث الثاني

أشراط الساعة الكبرى

الأشراط الكبرى هي الأمور العظام المتتابعة ، التي تظهر قرب قيام الساعة ؛ وهي عشر علامات تضمنها حديث حذيفة بن أَسِيد الغفاري ﷺ قال : (اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات ؛ فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ﷺ ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف ؛ خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم)[٩٧]، وعن عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعا : (الآيات خرزات منظومات في سلك ؛ يقطع السلك فيتبع بعضها بعضا)[٩٨]، قال ابن حجر : ثبت أن الآيات العظام مثل السلك ، إذا انقطع تناثر الخرز بسرعة[٩٩]. وقد دل حديث النواس بن سمعان ﷺ على ترتيب بعض هذه الآيات ، فذكر خروج الدجال أولا ، ثم نزول عيسى عليه السلام ثانيا ، ثم خروج يأجوج ومأجوج[١٠٠]. وأما حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعا : (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ؛ وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبـــا)[١٠١]؛ فالمراد به الآيات التي تدل على بدء حصول الساعة ؛ لأن آيات الساعة الكبرى نوعان ؛ نوع يدل على قربها قربا شديدا ؛ وهي الدجال ، ونزول عيسى ، وخروج يأجوج ومأجوج . ونوع يدل على بدء حصول الساعة ؛ وهي طلوع

---

(٩٧) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٠١).

(٩٨) المستدرك ، للحاكم ، ح (٨٥٥٥) ، والحديث صححه الألباني وغيره . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٧٦٢).

(٩٩) فتح الباري ٧٧/١٣ .

(١٠٠) انظر : صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٣٧).

(١٠١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٤١).

الشمس من مغربها ، والدابة ، والدخان ، والخسوفات الثلاثة ، والنار التي تحشر الناس . وقيل : إن المراد به أول الآيات التي ليست مألوفة ؛ فخروج الدابة التي تخاطب الناس وتسمهم بالإيمان أو الكفر خارج عن العادة التي ألفها الناس ، وذلك أول الآيات الأرضية ، كما أن طلوع الشمس من مغربها خارج عن مألوف عادتهم ، وذلك أول الآيات السماوية . وفي هذا نظر ؛ لأن نزول عيسى عليه السلام بما معه من الآيات ، وظهور الدجال بما معه من الخوارق ، وكذلك ظهور يأجوج ومأجوج ، وإفسادهم العجيب في الأرض ، ثم إهلاكهم ، وطرحهم حيث شاء الله ، كل ذلك من الأمور التي ما ألفها الناس[١٠٢]. وأشراط الساعة الكبرى كلها مما لم يقع إلى الآن ، ولم أر للعلماء نزاعا في ذلك إلا في الدخان والخسوفات الثلاثة ؛ فرأى بعض أهل العلم ، أن الخسوفات قد وقعت وانقضت . وهو قول غير مسلم ، لأن الخسوفات التي ذكروا كانت من جنس المعهود ، ووقعت في أزمنة متباعدة ، وظاهر الحديث يدل على أنها تحدث في زمن واحد أو متقارب ، وتكون أعظم مما عهد من خسوفات[١٠٣]. وهكذا الشأن في الدخان ؛ فقد رأى بعض أهل العلم أنه قد وقع وانقضى ، وهو ما أصاب قريشا ، لما دعا عليهم النبي ﷺ بسنين كسني يوسف ، فأصابهم الجهد والجوع ، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد . وفي هذا القول نظر ؛ لقوله تعالى : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) الدخان : ١٠ ؛ أي بين واضح يراه كل أحد ، وليس مجرد خيال في العين من شدة الجهد والجوع ، وقوله : (يغشى الناس) الدخان : ١١ ، أي يعم الناس كلهم ، ولا يختص بأهل مكة ، وأيضا فالدخان ذكر في النصوص مع الأشراط المنتظرة ، وفي ذلك دلالة بينة على أنه من

---

(١٠٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٥٠٢ ، فتح الباري ، لابن حجر ٣٥٢/١١ ، ٣٥٣ ، أشراط الساعة ، للوابل ، ص ٢٣٩-٢٤٧ .

(١٠٣) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٨٤/١١ ، المفهم ، للقرطبي ٢٣٩/٧ ، أشراط الساعة ، للوابل ، ص ٣٨٢ .

الأمور الآتية ، لا من الأمور الماضية[١٠٤]؛ عن حذيفة بن أَسِيد الغفاري ﷺ مرفوعا : (إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات ؛ فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها الحديث)[١٠٥]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (بادروا بالأعمال ستا ؛ الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة ، وخويصة أحدكم)[١٠٦]، وعن أبي مالك الأشعري ﷺ مرفوعا : (وربكم أنذركم ثلاثا ؛ الدخان ، يأخذ المؤمن منه كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ ويخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال)[١٠٧]. وأما باقي الأشراط الكبرى فكلها مما لم يقع اتفاقا ، ويتعلق بها تفصيلات كثيرة ، أجمل مهماتها فيما يلي :-

١- ظهور الدجال ، وهو أول الآيات الكبرى ظهورا . فيخرج من جهة المشرق رجل من بني آدم عظيم الخلقة ، عظيم الفتنة[١٠٨]، ثم يسير في الأرض ، فلا يدع بلدا إلا دخله إلا مكة والمدينة ، ويتبع دعوته فئام من الناس ، أكثرهم من اليهود والترك ؛ عن أبي بكر ﷺ مرفوعا : (الدجال يخرج من أرض بالمشرق ، يقال لها خراسان ، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة)[١٠٩]، وعن أنس ﷺ مرفوعا : (يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة)[١١٠]، وعن تميم الداري ﷺ قال : (فانطلقنا سراعا حتى دخلنا الدير فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط وأشده وثاقا ...

---

(١٠٤) انظر : تفسير ابن كثير ٥٩١/٦-٥٩٥ ، أشراط الساعة ، للوابل ، ص ٣٨٣-٣٩٠ .

(١٠٥) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٠١).

(١٠٦) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٤٧). وأمر العامة يعني القيامة ، وخويصة أحدكم يعني الموت . انظر : شرح صحيح مسلم ، ٨٧/١٨ .

(١٠٧) المعجم الكبير ، للطبراني ، ح (٣٤٤٠) . قال ابن كثير : إسناده جيد . تفسير ابن كثير ، ٥٩٤/٦ .

(١٠٨) تنازع السلف في ابن صياد ؛ هل هو الدجال الأكبر أو غيره ؟ والصحيح أنه دجال من الدجاجلة ، وليس الدجال الأكبر ؛ لأن حديث تميم الداري ﷺ قاطع في الدلالة على أنه ليس المسيح الدجال . والله أعلم. انظر : النهاية ، لابن كثير ٩٧/١ ، أشراط الساعة ، للوابل ، ص ٢٩٨-٣٠٥ .

(١٠٩) جامع الترمذي ، أبواب الفتن ، ح (٢٢٣٧). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٣٤٠٤).

(١١٠) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٤٤).

قال ... إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج ، فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة، فهما محرمتان علي كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة استقبلني ملك بيده السيف صلتا يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها)[١١١]، وعن أنس بن مالك ﷺ مرفوعا : (ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال ، إلا مكة والمدينة ، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافين تحرسها ، فينزل بالسبخة ، فترجف المدينة ثلاث رجفات ، يخرج إليه منها كل كافر ومنافق)[١١٢]، وعن عمران بن حصين ﷺ مرفوعا : (ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال)[١١٣]؛ أي أكبر فتنة وأعظم شوكة ؛ كما وقع في رواية : (أمر أكبر من الدجال)[١١٤]، وفي رواية ثانية : (ما بين خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أكبر من فتنة الدجال)[١١٥]، وعن أبي أمامة ﷺ مرفوعا : (إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله آدم أعظم من فتنة الدجال ، وإن الله لم يبعث نبيا إلا حذر أمته الدجال)[١١٦]. ومما يدل على عظم فتنته ما يكون معه من الخوارق العجيبة كما في هذه الأحاديث الشريفة :-

أ- عن النواس بن سمعان ﷺ ، قال : (ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ... الحديث ، وفيه : قلنا : يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر،

---

(١١١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٤٢) .

(١١٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٤٣) . وفي هذا الحديث تأويل قول النبي ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شراراها كما ينفي الكير خبث الحديد) . صحيح مسلم ، كتاب الحج ، ح (١٣٨١) ، وأن هذا النفي يكون في آخر الزمان ؛ إذا نزل الدجال بالسبخة ، فترجف المدينة ثلاث رجفات ، يخرج إليه منها كل كافر ومنافق .

(١١٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٤٦).

(١١٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٤٦).

(١١٥) مسند الإمام أحمد ، ح (١٦٢٦٥). وهو حديث صحيح . انظر : تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط وآخرون ، ١٩٤/٢٦ .

(١١٦) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، ح (٤٠٧٧). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٨٧٥).

والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى ، وأسبغه ضروعا، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة، فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين ، رمية الغرض[١١٧]، ثم يدعوه، فيقبل، ويتهلل وجهه يضحك)[١١٨].

ب- عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم عن الدجال حديثا ما حدثه نبي قومه ؛ إنه أعور، وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار، فالتي يقول : إنها الجنة هي النار، وإني أنذرتكم به كما أنذر به نوح قومه)[١١٩].

ج- وعن أبي أمامة ﷺ مرفوعا : (وإن من فتنته أن يقول لأعرابي : أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك ، أتشهد أني ربك ؟ فيقول : نعم ؛ فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان : يا بني ، اتبعه ؛ فإنه ربك)[١٢٠].

وقد أرشد النبي ﷺ إلى ما يعصم من هذه الفتنة العظيمة ، ومن ذلك :-

أ- التعوذ الدائم من فتنة الدجال آخر كل صلاة ؛ لقول النبي ﷺ : (إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع ؛ يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال)[١٢١].

---

(١١٧) جزلتين أي قطعتين ، ومعنى رمية الغرض أنه يجعل بين القطعتين مقدار رمية السهم لهدف الرمي. انظر : شرح صحيح مسلم ٦٧/١٨ .

(١١٨) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٣٧).

(١١٩) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٣٦).

(١٢٠) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، ح (٤٠٧٧). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٨٧٥).

(١٢١) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، ح (٥٨٨). وسمي الدجال مسيحا لأن إحدى عينيه ممسوحة ، وقد رواه قوم بالخاء المعجمة ، وشدد بعضهم السين ؛ ليفرقوا بينه وبين المسيح عيسى بن مريم ، وهو قول غير سديد ؛ لأن النبي ﷺ فرق بينهما بغير ما قالوا ؛ أخرج البزار بسند جيد عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (يخرج مسيح الضلالة فيبلغ ما شاء الله أن يبلغ من الأرض في أربعين يوما) ؛ فدل الحديث بمنطوقه ومفهومه على الفرق بينهما ، وأن عيسى عليه السلام مسيح الهدى ، والدجال مسيح الضلالة . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٩٤/١٣ ، ١٠٠ .

ب- حفظ أول عشر آيات من سورة الكهف ؛ لقول النبي ﷺ : (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال)[١٢٢]، قال ابن القيم :(اختلف فيه ؛ فقال بعض الرواة من أول سورة الكهف ، وقال بعضهم من آخرها ، وكلاهما في الصحيح ، لكن الترجيح لمن قال من أول سورة الكهف ؛ لحديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في قصة الدجال : (فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف)[١٢٣]، ولم يختلف في ذلك ، وهذا يدل على أن من روى العشر من أول السورة حفظ الحديث ، ومن روى من آخرها لم يحفظه)[١٢٤].

ج- البعد عن الدجال ، وعدم المخاطرة بالتعرض لفتنته ؛ لقول النبي ﷺ : (من سمع بالدجال فلينأ عنه ؛ فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات)[١٢٥]. وقد خالف في ظهور الدجال بعض الخوارج والمعتزلة والجهمية ، فأنكروا وجوده ، وردوا الأحاديث الصحيحة في ذلك[١٢٦]، وذهب طوائف منهم ؛ كالجبائي إلى أنه صحيح الوجود ، لكن كل الذي معه مخاريق وخيالات لا حقيقة لها ، لأنه لو كان ما معه خوارق حقيقية لم يوثق بمعجزات الأنبياء ! ووافقه على ذلك ابن حزم ، ورأى أن خوارق الدجال إنما هي حيل من نحو ما صنع فرعون والحلاج ونظرائهما ، لحديث المغيرة رضي الله عنه لما قال للنبي ﷺ : إن معه نهر ماء ، ونهر خبز . فقال له رسول الله ﷺ : هو أهون على الله من ذلك[١٢٧]. والجواب عن مقالتهم أن الخوارق

---

(١٢٢) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، ح (٨٠٩).

(١٢٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٣٧).

(١٢٤) جلاء الأفهام ، ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ (باختصار يسير).

(١٢٥) سنن أبي داود ، أول كتاب الملاحم ، ح (٤٣١٩). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٦٣٠١).

(١٢٦) وافقهم على ذلك بعض المعاصرين ؛ ورأوا أن الدجال إنما هو رمز للخرافات والدجل ، وليس رجلا من بني آدم . انظر : أشراط الساعة ، للوابل ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

(١٢٧) انظر : الفصل ، لابن حزم ١/١٩٠-١٩٣ ، ٢/١١٨ ، فتح الباري ، لابن حجر ١٣/١٠٥ ، فيض القدير ، للمناوي ٣/٥٣٧ ، ٥٤٠ .

التي تظهر مع الدجال لا تدل على صدق دعواه بحال ؛ لأن الله تعالى جعل عليه علامات ظاهرة تدل على بطلان إلهيته ؛ قال النبي ﷺ : (ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه ك ف ر)[١٢٨]، وقال : (إنه يبدأ فيقول : أنا نبي ، ولا نبي بعدي ، ثم يثني فيقول : أنا ربكم ، ولا ترون ربكم حتى تموتوا ، وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، وإنه مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب)[١٢٩]، وفي رواية : (فيه ثلاث علامات ، هو أعور وربكم ليس بأعور ، ومكتوب بين عينيه كافر ، يقرأه كل مؤمن ، أمي وكاتب ، ولا يسخر له من المطايا إلا الحمار ، فهو رجس على رجس)[١٣٠]. ولو قدر ظهور شيء من خوارقه قبل أن يدعي الألوهية فليس في ذلك إضلال لكل ذي عقل كما قال ابن حزم[١٣١]؛ لأنه لم يدع النبوة في زمن إمكانها ؛ ولهذا اكتفى النبي ﷺ في إبطال دعواه بما علم بالضرورة من دين الإسلام من انقطاع زمن النبوة ؛ فقال : (إنه يبدأ فيقول : أنا نبي ، ولا نبي بعدي)[١٣٢]. وأما قوله : (هو أهون على الله من ذلك)[١٣٣]؛ فليس معناه أنه ليس معه شيء من الخوارق أصلا ، وإنما المراد به هو أهون على الله من أن يجعل ما معه من الخوارق مضلا للمؤمنين ، أو أن المراد به هو أهون على الله من أن يجعل الطعام والشراب بيده وحده ، بحيث لا يوجد شيء منهما عند غيره[١٣٤]؛ لما وقع عند ابن ماجة بلفظ : (فقال

---

(١٢٨) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٣٣) .

(١٢٩) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، ح (٤٠٧٧). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٨٧٥).

(١٣٠) المستدرك ، للحاكم ، ح (٨٦١٢) ، كتاب السنة ، لعبد الله بن الإمام أحمد ، ٤٤٤/٢ ، ح (٩٩٥) ، قال الذهبي في التعليق على المستدرك : على شرط البخاري ومسلم ، المستدرك ، ٥٧٤/٤ .

(١٣١) انظر : الفصل ، لابن حزم ١٩١/١ .

(١٣٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، ح (٤٠٧٧). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٨٧٥).

(١٣٣) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، ح (٧١٢٢).

(١٣٤) انظر : الجواب الصحيح ، لابن تيمية ٧٢١/٢ ، فتح الباري ، ٩٣/١٣ ، ١٠٥ .

لي النبي ﷺ : ما تسأل عنه ؟ قلت : إنهم يقولون : إن معه الطعام والشراب ، قال : هو أهون على الله من ذلك)[١٣٥].

٢- نزول عيسى عليه السلام ؛ قال تعالى : (وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها) الزخرف : ٦١ ، أي أن نزول عيسى عليه السلام علامة على قرب الساعة ، يدل لذلك قراءة أبي هريرة وابن عباس وقتادة وغيرهم : (وإنه لعَلَم للساعة) ؛ بفتح اللام والعين ؛ أي أمارة ودليل على قربها[١٣٦]، وقال النبي ﷺ : (إنها لن تقوم ـ أي الساعة ـ حتى ترون قبلها عشر آيات ؛ وذكر منها نزول عيسى بن مريم ﷺ)[١٣٧]، ويتعلق بنزول عيسى عليه السلام أربعة أمور:

الأول : في حياته ؛ فالمسلمون يؤمنون بأن المسيح عليه السلام لم يزل حيا ، وأن الله رفعه إلى السماء بدنا وروحا ، والقول بأن الله أماته حقيقة ، ثم رفعه الله إليه قول شاذ ؛ لأن قوله تعالى : (إني متوفيك ورافعك إلي) آل عمران : ٥٥ ، لا يقصد به الإماتة الحقيقية ، وما روي عن ابن عباس ووهب ابن منبه من تفسير الإماتة في الآية بالإماتة الحقيقية فلا يثبت عنهما ، ويخالف ما صح عن السلف من تفسيرها بالإنامة ، أو بالقبض ، أي قبض بدنه وروحه ورفعه إلى الله حيا ، أو أنامه ورفعه نائما[١٣٨].

الثاني : في الفرق بين معتقد المسلمين والنصارى في مجيئه ؛ فالنصارى وإن آمنوا بمجيء المسيح عليه السلام مرة ثانية ، إلا أن معتقدهم في ذلك يخالف معتقد المسلمين الحق مخالفة جوهرية ؛ فيظنون أنه الله ، وأنه يأتي يوم القيامة لحساب الخلائق وجزائهم . وهو معتقد باطل بلا ريب . وأما قوله تعالى : (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) آل عمران : ٥٥ ، فإنه لا دلالة فيه بوجه على أن النصارى في هذا المعتقد

---

(١٣٥) صحيح سنن ابن ماجة ، ح (٣٣٠٨).

(١٣٦) انظر تفسير البغوي ، والقرطبي ، وابن كثير لسورة الزخرف ، آية (٦١) .

(١٣٧) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٠١).

(١٣٨) انظر : فتاوى اللجنة الدائمة بالمملكة العربية السعودية ٣/٢١٩-٢٢٣ ، ٢٢٩ .

وغيره على الحق ؛ لأن الموعود بالنصر إلى يوم القيامة هم أتباعه ، الذين آمنوا برسالته ، وببشارته بأحمد ، لا من قال إنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة . وهذا لا ينطبق إلا على المسلمين[١٣٩].

الثالث : في تواتر أدلة نزوله ؛ فقد نص الطبري ، وابن كثير ، والألباني ، وغيرهم من أهل العلم على أن أدلة نزول عيسى عليه السلام متواترة . وهذا يبطل وهم من رأى أن نزول عيسى عليه السلام ليس من عقائد المسلمين التي يجب عليهم الإيمان بها ؛ لأنها مبنية على أخبار الآحاد ، وأخبار الآحاد ليست حجة في العقيدة ؛ يقول الألباني : ليس فيهم من تتبع طرقها ، ولو فعل لوجدها متواترة ، كما شهد بذلك أئمة هذا العلم ، كالحافظ ابن حجر وغيره[١٤٠]. ولو سلمنا جدلا أنها ليست من المتواتر فأخبار الآحاد الثابتة حجة في العقائد والأحكام ؛ إذ لا فرق بين البابين عند أحد من علماء السلف ، وإنما عرف التفريق بينهما من قبل المتكلمين[١٤١].

الرابع : في حكمة نزوله ؛ ينزل عيسى عليه السلام عند المنارة البيضاء ، شرقي دمشق ؛ كما ثبت في حديث النواس بن سمعان[١٤٢]، فيمكث في الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى ، فيصلي عليه المسلمون[١٤٣]. وأما قول النبي ﷺ : (ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة)[١٤٤]، فلا يراد به جميع مدة مكثه في الأرض ، وإنما يراد به المدة التي تصفو فيها الحياة من الشرور ، وتقع فيها الأمنة على الأرض بعد هلاك الدجال

---

(١٣٩) انظر : الفصل ، لابن حزم ٢٠٩/٢ ، الجواب الصحيح ، لابن تيمية ٤٦٠/١.

(١٤٠) تخريج وتعليق الألباني على شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٥٠١ .

(١٤١) انظر : تفسير الطبري ٢٩١/٣ ، تفسير ابن كثير ٥٨٢/٦ ، مختصر الصواعق المرسلة ١٥٧٠/٤-١٥٧٢ ، تخريج وتعليق الألباني على شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٥٠١ ، الإسلام عقيدة وشريعة ، لمحمود شلتوت ، ص ٦٤ ، أشراط الساعة ، للوابل ، ص ٣٤٨-٣٥٤ .

(١٤٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٣٧).

(١٤٣) انظر : سنن أبي داود ، أول كتاب الملاحم ، ح (٤٣٢٤) ، صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، ح (٥٣٨٩).

(١٤٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٤٠).

ويأجوج ومأجوج ؛ ولهذا قيدها بقوله : (ليس بين اثنين عداوة)[١٤٥]. وقيل : إن هذه الرواية محمولة على مدة إقامته بعد نزوله ، ورواية مكثه في الأرض أربعين سنة محمولة على جميع مدة بقائه في الأرض ؛ أي قبل نزوله من السماء وبعد ذلك ؛ لأنه رفع إلى السماء وعمره ثلاث وثلاثون سنة ، فإذا ضمت إليها السبع صار جميع المدة أربعون سنة[١٤٦]. وفي هذا القول نظر ؛ لأن الرسل إنما تبعث على رأس الأربعين ، وما يذكر عن رفع المسيح عليه السلام وله ثلاث وثلاثون سنة لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه[١٤٧]؛ ولهذا اختلف في عمره في الدنيا منذ ولد إلى أن رفع ؛ فقيل ثلاث وثلاثون ، وقيل ثلاث وثمانون ، وهذا أشهر ، وقيل أربع وثمانون ، وقيل مائة وعشرون ، وقيل غير ذلك[١٤٨]. ولنزول عيسى عليه السلام حكم عظيمة[١٤٩]؛ منها :-

أ- قتل الدجال ، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه ، قال : (ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ... فقال : ... إنه خارج خلةً بين الشأم والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمالا ... فبينما هو كذلك ، إذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء

---

(١٤٥) وهكذا الشأن في الرواية التي نقلها ابن حجر عن نعيم بن حماد أنه روى في كتاب الفتن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن عيسى عليه السلام إذ ذاك يتزوج في الأرض ، ويقيم بها تسع عشرة سنة . انظر : فتح الباري ٤٩٣/٦ . فهذه إن ثبتت فهي محمولة على مدة بقائه بعد زواجه ، لا جميع مدة مكثه بعد نزوله . ومما يناسب ذكره هنا ما ذكره ابن حجر في سيرة عيسى عليه السلام أن نشأ زاهدا في الدنيا ، لم يتخذ بيتا ولا زوجه ، وقد جاء أنه يتزوج بعد نزوله ، ويولد له ، ويدفن عند النبي ﷺ . وهكذا ذكر غيره من أهل العلم أنه يتزوج بعد نزوله . انظر : الإصابة ، لابن حجر ٦٣٦/٤-٦٣٩ ، طبقات الحنابلة ، ٢٠/٢ .

(١٤٦) انظر : النهاية ، لابن كثير ١٥١/١ .

(١٤٧) انظر : زاد المعاد ، لابن القيم ، ٨٤/١ .

(١٤٨) انظر : الإصابة ، لابن حجر ٦٣٦/٤-٦٣٩ ، فتح الباري ، لابن حجر ٤٩٣/٦ .

(١٤٩) وهناك أعمال أخرى لعيسى عليه السلام إلى جانب هذه الأعمال العظيمة ، من أجلها حج بيت الله الحرام ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجا أو معتمرا ، أو ليثنينهما) . صحيح مسلم ، كتاب الحج . ح (١٢٥٢). ومعنى قوله : ليثنينهما ، أي يقرن بينهما . وأما فج الروحاء فهو موضع بين مكة والمدينة ، وكان طريق رسول الله ﷺ إلى بدر ، وإلى مكة عام الفتح وعام حجة الوداع . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ٢٣٤/٨ .

شرقي دمشق ، بين مهرودتين ، واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله)[١٥٠]، وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ مرفوعا : (إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ أن ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال ... الحديثَ ، وفيه ، قيل : فأين العرب يومئذ ؟ قال : هم يومئذ قليل ، وجلهم ببيت المقدس ، وإمامهم رجل صالح ، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم الصبح ، فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القهقرى ، ليتقدم عيسى يصلي بالناس ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ، ثم يقول له : تقدم فصل ، فإنها لك أقيمت ، فيصلي بهم إمامهم[١٥١]، فإذا انصرف[١٥٢] قال عيسى : افتحوا الباب ، فيفتح ووراءه الدجال ، معه سبعون ألف يهودي ، كلهم ذو سيف محلى وساج ، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء ، وينطلق هاربا ، ويقول عيسى : إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها ، فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقتله ، فيهزم الله اليهود ، فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي ...

---

(١٥٠) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٣٧). ولد بضم اللام وتشديد الدال ، بلدة قريبة من بيت المقدس . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ٦٨/١٨ .

(١٥١) الظاهر أنه المهدي ، وأنه المقصود في قول النبي ﷺ : (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم ، وإمامكم منكم) . صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، ح (٣٤٤٩) ، وكذلك في قوله : (فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ؛ تكرمة الله هذه الأمة) . صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٥٦) ، وفي رواية : (ينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم المهدي : تعال صل بنا ... الحديث بنحوه) ، رواه الحارث بن أسامه في مسنده ، وقال ابن القيم : إسناده جيد . المنار المنيف ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ . وحكمة صلاة عيسى عليه السلام خلف المهدي تكرمة هذه الأمة ، وبيان أنه على شرع سيد المرسلين ، وليس بناسخ له . انظر : مرقاة المفاتيح ، لملا علي قاري ٢٣٤/٨ .

(١٥٢) الحديث فيه اختصار تقديره فإذا انصرف إلى بيت المقدس ، والمسلمون محصورون فيه ، قال : افتحوا الباب . انظر : صحيح الجامع الصغير ١٣٠١/٢ .

إلا قال : يا عبد الله المسلم ، هذا يهودي فتعال اقتله)[١٥٣]، وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله إلا الغرقد ؛ فإنه من شجر اليهود)[١٥٤]؛ ولهذا قال العلماء : الحكمة في نزول عيسى عليه السلام دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه ، فبين الله كذبهم ، وأنه هو الذي يقتلهم ، ويقتل زعيمهم الدجال[١٥٥].

ب- الدعاء على يأجوج ومأجوج ؛ وهم طائفتان من بني آدم ، من سلالة أبي الترك ، يافث بن نوح عليه السلام ، وهم يشبهون أبناء جنسهم من الترك ، عراض الوجوه ، صغار العيون ، كأن وجوههم المجان المطرقة[١٥٦] . وكانوا يعيثون في الأرض فسادا حتى حصرهم ذو القرنين داخل سد من حديد ونحاس بين جبلين ، فهم خلف هذا السد العظيم حتى يأذن الله في خرقه ودكه ، وخروجهم على الناس قبيل قيام الساعة[١٥٧]؛ عن النواس بن سمعان رضي الله عنه ، قال : (ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل ... الحديثَ ، وفيه ، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك، إذ أوحى الله إلى عيسى : إني قد أخرجت عبادا لي، لا يدان لأحد

---

(١٥٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، ح ٤٠٧٧ ، صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٨٧٥) .

(١٥٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٢٢).

(١٥٥) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤٩٣/٦ ، أشراط الساعة ، للوابل ، ص ٣٥٥ .

(١٥٦) هذا التشبيه حمل القرطبي على أن قال في التتر : قد خرج من الترك في هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم. انظر : تفسير القرطبي ٥٨/١١. وهو قول يخالف الأحاديث الصحيحة التي دلت على أن خروجهم إنما يكون بعد نزول عيسى عليه السلام ، وقتل الدجال . انظر : النهاية ، لابن كثير ١٥٢/١ .

(١٥٧) انظر : النهاية ، لابن كثير ١٥٢/١-١٥٩ .

بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء. ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرا كأعناق البخت، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض، حتى يتركها كالزلفة ، ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك، وردي بركتك)[١٥٨]، وفي رواية : (فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء ، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخَمَر[١٥٩]، وهو جبل بيت المقدس، فيقولون : لقد قتلنا من في الأرض، هلم فلنقتل من في السماء. فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دما)[١٦٠]، وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في السد، قال : (يحفرونه كل يوم، حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم : ارجعوا فستخرقونه غدا. فيعيده الله كأشد ما كان، حتى إذا بلغ مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس، قال الذي عليهم : ارجعوا فستخرقونه غدا إن شاء الله. واستثنى فيرجعون فيجدونه كهيئته حين تركوه، فيخرقونه فيخرجون على الناس فيستقون المياه، ويفر الناس منهم، فيرمون بسهامهم في السماء، فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون : قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء قسوة وعلوا، فيبعث الله عليهم نغفا في

---

(١٥٨) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٣٧).

(١٥٩) بخاء معجمة وميم مفتوحتين ، والخمر هو الشجر الملتف الذي يستر من فيه ، وقد فسره في الحديث بأنه جبل بيت المقدس . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ٧١/١٨.

(١٦٠) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٣٧).

أقفائهم، فيهلكون، فوالذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض تسمن وتبطر، وتشكر شكرا من لحومهم)[١٦١].

ج- إبطال الملل كلها إلا الإسلام ؛ فيجتمع الناس على الحق والعدل ، وتكون الدعوة واحدة ، وتتم على الناس نعمة الخلاص من شر الدجال ويأجوج ومأجوج ، والاجتماع على الهدى ودين الحق ؛ ولهذا تُرَدُّ البركة في الأنعام والثمرات ، ويفيض المال ، وتطهر القلوب من غلها ، وتضع الحرب أوزارها ، وتقع الأمنة على الأرض ، ويقبل الناس على العبادة ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها ؛ قال تعالى : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) النساء : ١٥٩، أي قبل موت المسيح على الصحيح ؛ أي لا يبقى أحد من أهل الكتاب إذا نزل عيسى عليه السلام إلا آمن به ، وعلم أنه عبد الله ورسوله ؛ قال الحسن : والله إنه لحي الآن ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون[١٦٢]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا[١٦٣]، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم قوله تعالى : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا)[١٦٤]، وفي رواية :

---

(١٦١) جامع الترمذي ، أبواب تفسير القرآن ، ح (٣١٥٣) ، صححه الألباني . انظر : صحيح سنن الترمذي ، للألباني ، ح (٣١٥٣).

(١٦٢) انظر الجواب الصحيح ٤٦٠/١ ، فتح الباري ، لابن حجر ٤٩٢/٦.

(١٦٣) أي حاكما عادلا بشريعة محمد ﷺ لا برسالة مستقلة ، وليس في وضع الجزية دلالة على مجيئه بشرع جديد ؛ لأن مشروعيتها مقيدة بنزوله ، ونبينا ﷺ هو المبين للنسخ بقوله هذا . شرح صحيح مسلم ، للنووي ٢/ ١٩٠ ، ١٩١ ، فتح الباري ٤٩١/٦-٤٩٤ .

(١٦٤) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، ح (٣٤٤٨).

(ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد)[١٦٥]، وعن النواس بن سمعان ﷺ مرفوعا : (ويبعث الله يأجوج ومأجوج...الحديث ، وفيه فيرسل الله طيرا كأعناق البخت، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض، حتى يتركها كالزلفة ، ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك، وردي بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها ، ويبارك في الرسل ، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس)[١٦٦]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (وإنه نازل ... الحديث ، وفيه فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال ، فيمكث في الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون)[١٦٧]، وفي رواية : (وتكون الدعوة واحدة)[١٦٨]، وفي رواية ثانية : (وتضع الحرب أوزارها)[١٦٩] ، وفي رواية ثالثة : (ثم تقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمار مع البقر ، والذئاب مع الغنم ،

---

(١٦٥) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٥٥). القلاص جمع قلوص ، وهي من الإبل كالفتاة من النساء ، والحدث من الرجال ، ومعناه أنه يزهد فيها لكثرة الأموال ، وقلة الآمال ، للعلم بقرب القيامة . انظر : شرح صحيح مسلم ١٩٢/٢.

(١٦٦) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٣٧).

(١٦٧) سنن أبي داود ، أول كتاب الملاحم ، ح (٤٣٢٤). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٥٣٨٩).

(١٦٨) مسند الإمام أحمد ، ح (٩١٢١) ، وإسناده حسن . انظر : تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط ورفاقه ٦٢/١٥ ، ولعل هذا المعنى هو المراد بالرواية الثابتة : (وتجمع له الصلاة) ، أي أن الناس يؤمنون في وقته ، فيجتمع كلهم للصلاة . انظر : مسند الإمام أحمد ، بتخريج الأرنؤوط ورفاقه ٢٨١/١٣.

(١٦٩) مسند الإمام أحمد ، ح (٩٣٢٣) . وإسناده صحيح . انظر : تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط ورفاقه ١٨٨/١٥.

ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم) [١٧٠]، فطوبى لعيش بعد المسيح، طوبى لعيش بعد المسيح ؛ يؤذن للسماء في القطر ، ويؤذن للأرض في النبات، فلو بذرت حبك على الصفا لنبت، ولا تشاح ولا تحاسد ولا تباغض، حتى يمر الرجل على الأسد ولا يضره، ويطأ على الحية فلا تضره[١٧١]. ولا يعارض ذلك ما ثبت من أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق ؛ لأن الله يبعث ريحا كريح المسك ، مسها مس الحرير ؛ فلا تترك نفسا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس ، عليهم تقوم الساعة[١٧٢].

٣- طلوع الشمس من مغربها ؛ قال الله تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) الأنعام : ١٥٨ ؛ وقال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا ، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا)[١٧٣]، وقال : (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ؛ وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبـــا) [١٧٤]؛ أي أول الآيات التي تدل على بدء حصول الساعة ؛ ولهذا لا يقبل بعدها إيمان كافر ، ولا توبة عاص ؛ لأن شرط قبول الإيمان حصوله حال الاختيار لا حال الضرورة ، فلا ينفع إيمان ولا تقبل توبة عند معاينة العذاب[١٧٥]، أو حصول ما يلجئ إلى الإيمان ؛ كمشاهدة ملك الموت ، أو

---

(١٧٠) مسند الإمام أحمد ، ح (٩٢٧٠). وهو حديث صحيح . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤٩٣/٦ ، تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط ورفاقه ١٥٤/١٥ .

(١٧١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني ، ح (١٩٢٦).

(١٧٢) انظر : صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، ح (١٩٢٤) ، فتح الباري ، لابن حجر ٥٥٧/٦ ، ٨٣/١٣-٨٦ .

(١٧٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٠٦).

(١٧٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٤١).

(١٧٥) يستثنى من ذلك قوم يونس عليه السلام ؛ لأن الله خصهم بقبول الإيمان حال المعاينة ؛ لصدق إيمانهم ؛ ولهذا استمروا عليه بعد كشف الخزي عنهم بخلاف غيرهم ؛ فلو رحمهم الله وكشف ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون .

طلوع الشمس من مغربها . وإغلاق باب التوبة لا يختص بيوم الطلوع ، بل يمتد إلى يوم القيامة ، وقد ذكر ابن حجر جملة آثار تدل على ذلك ، ثم قال : هذه آثار يشد بعضها بعضا متفقة على أن الشمس إذا طلعت من المغرب أغلق باب التوبة ، ولم يفتح بعد ذلك ، وأن ذلك لا يختص بيوم الطلوع ، بل يمتد إلى يوم القيامة[١٧٦].

خلافا لمن قال بقبولها إذا امتدت الأيام إلى أن ينسى هذا الطلوع ؛ اعتمادا على حديث : (يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها عشرين ومائة سنة)[١٧٧]؛ لأن هذا الخبر لا يثبت مرفوعا ، وإنما هو موقوف على عبد الله بن عمرو ﷺ ، ومعارض بحديث آخر لعبد الله بن عمرو ذكر فيه طلوع الشمس من المغرب ، وقال : (فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل)[١٧٨]. وعلى تقدير عدم المعارض فالمدة لو كانت كما ذكروا فإنها تمر مرورا سريعا ؛ كمقدار مرور عشرين ومائة شهر ؛ لقول النبي ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان ، فتكون السنة كالشهر)[١٧٩]. وأما قوله ﷺ : (ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ؛ طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض)[١٨٠]؛ فالمراد به ظهور هذه الآيات الثلاث بأسرها ؛ لأن عيسى عليه السلام ينزل بعد ظهور الدجال ، ويدعو إلى الإسلام حتى تكون الملة واحدة ، والدابة يحتمل أن تخرج يوم الطلوع ، أو على إثره قريبا ، فتكون مكملة للمقصود من إغلاق باب التوبة

---

(١٧٦) فتح الباري ٣٥٥/١١ .

(١٧٧) أخرجه عبد بن حميد في تفسيره بسند جيد عن عبد الله بن عمرو ﷺ موقوفا . ولهم دليل آخر على قبول التوبة بعد يوم الطلوع من طريق عمران بن حصين ، تركت ذكره لأنه لا أصل له ، انظر : فتح الباري ٣٥٤/١١ .

(١٧٨) المستدرك ، للحاكم ، ح (٨٥٢٦) . قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي .

(١٧٩) مسند الإمام أحمد ، ح (١٠٩٤٣). إسناده صحيح ، على شرط مسلم . انظر : تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط ورفاقه ٥٥٠/١٦ .

(١٨٠) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٥٨).

؛ فتسم الناس ؛ لتميز المؤمن من الكافر[١٨١]؛ قال تعالى : (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) النمل : ٨٢ ، قال ابن مسعود : وقْعُ القول يكون بموت العلماء ، وذهاب العلم ، ورفع القرآن[١٨٢]. وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ مرفوعا : (تخرج الدابة ، فتسم الناس على خراطيمهم ، ثم يغمرون[١٨٣] فيكم ، حتى يشتري الرجل البعير ، فيقول : ممن اشتريته ؟ فيقول : اشتريته من أحد المخطمين)[١٨٤]. وقد اختلف العلماء في تعيين الدابة وصفتها ومكان خروجها اختلافا كثيرا[١٨٥]؛ يقول الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ : الدابة بين الله أمرها في قوله : (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) النمل : ٨٢ ، وقد جاء فيها أحاديث صحيحة أنها تخرج في آخر الزمان قبل طلوع الشمس من مغربها أو بعدها، أيتهما خرجت فالثانية على إثرها . أما تفصيلها وبيان صفاتها فلا أعلم فيها شيئا ثابتا ، إنما هي أقوال وروايات فيها ضعف ، وأخبار عن بعض السلف وعن بعض أهل الكتاب ، ولكن ليس عليها دليل واضح في صفاتها وتمييز طولها وقوائمها وكبر جسمها، ليس فيها فيما أعلم حديثا ثابتا، أما خروجها فثابت، تخرج في آخر الزمان[١٨٦].

٤- نار الحشر ؛ وهي آخر أشراط الساعة الكبرى ؛ لقول النبي ﷺ : (وآخر ذلك

---

(١٨١) انظر : فتح الباري ٣٥٢/١١-٣٥٧ ، ٨٨/١٣ ، تحفة الأحوذي ٤٤٩/٨ ، أشراط الساعة ، للوابل ، ص ٣٩١-٤٠٢ ، دراسات في دلالات المثلات ، للمؤلف ، ١٠٤-١١٣ .

(١٨٢) تفسير القرطبي ٢٣٤/١٣ .

(١٨٣) الظاهر أن المراد أنهم يكثرون ، ومنه الغمر ، وهو الماء الكثير . انظر : مقاييس اللغة ٣٩٢/٤ ، النهاية ، لابن الأثير ٣٨٣/٣ .

(١٨٤) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٢٣٠٨). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٢٩٢٧).

(١٨٥) انظر : تفسير القرطبي ٢٣٥/١٣-٢٣٩ ، تفسير ابن كثير ٦٩١/٥-٦٩٥ ، أشراط الساعة ، للوابل ، ص ٤٠٣-٤١٧ .

(١٨٦) فتاوى نور على الدرب ، الحلقة ، (٩٠٥) .

نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم)[١٨٧]. ويتعلق بهذه العلامة ثلاثة أمور:-

أ- في التوفيق بين هذا الحديث وبين قول النبي ﷺ : (أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب)[١٨٨]؛ وذلك باعتبار آخريتها بالنسبة لأشراط الساعة الكبرى ، وأوليتها باعتبار أنها أول الآيات المتصلة بالساعة ، التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلا ، بل يقع بانتهائها النفخ في الصور ، بخلاف غيرها من الأشراط فإنه يبقى بعد كل آية منها أشياء من أمور الدنيا[١٨٩].

ب- خروج هذه النار من اليمن لا ينافي حشر الناس من المشرق إلى المغرب ؛ وذلك أن ابتداء خروجها من اليمن ، فإذا خرجت انتشرت في الأرض كلها ، وبعد انتشارها أول ما تحشر أهل المشرق إلى الشام ، والشام بالنسبة إلى المشرق مغرب ، ويؤيد ذلك أن ابتداء الفتن دائما من المشرق[١٩٠].

ج- الحشر لأرض الشام يكون في الدنيا لا عند الخروج من القبور ، لقول النبي ﷺ : (هاهنا تحشرون، هاهنا تحشرون، هاهنا تحشرون ، ركبانا ومشاة، وعلى وجوهكم . قال الراوي : فأشار بيده إلى الشام، فقال : إلى هاهنا تحشرون)[١٩١]، وقوله : (الشام أرض المحشر والمنشر)[١٩٢]، وصفة هذا الحشر كما قال النبي ﷺ : (يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم

---

(١٨٧) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٠١).

(١٨٨) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٤٨٠).

(١٨٩) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٨٢/١٣ .

(١٩٠) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٣٧٨/١١ ، ٣٧٩.

(١٩١) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٠٠١١). وإسناده حسن . انظر : تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط ورفاقه ٢١٤/٣٣.

(١٩٢) أحاديث فضائل الشام ، لأبي الحسن الربعي ، بتخريج الألباني ، ص ١٤ ، وقد صححه الألباني في تخريج هذا الكتاب ، وفي صحيح الجامع الصغير ، ح (٣٧٢٦).

حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا)[١٩٣]؛ قال ابن كثير : هذا الحشر هو حشر الموجودين في آخر الدنيا من أقطار الأرض إلى محلة الحشر، وهي أرض الشام ، وأنهم يكونون على أصناف ثلاثة ، فقسم طاعمين كاسين راكبين ، وقسم يمشون تارة ويركبون أخرى ، وهم يعتقبون على البعير الواحد من قلة الظهر ، وتحشر بقيتهم النار التي تخرج من قعر عدن ، فتحيط بالناس من ورائهم ، تسوقهم من كل جانب إلى أرض المحشر ، ومن تخلف منهم أكلته النار[١٩٤]، وهذا كله مما يدل على أن هذا في آخر الدنيا حيث الأكل والشرب والركوب على الظهر المشترى وغيره، وحيث يهلك المتخلفين منهم النار، ولو كان هذا بعد نفخة البعث لم يبق موت، ولا ظهر يشترى، ولا أكل، ولا شرب، ولا لبس في العرصات[١٩٥]. وذهب بعض أهل العلم إلى أن هذا الحشر يكون عند الخروج من القبور . وهو قول ضعيف ؛ لأن الحشر من القبور إلى الموقف على خلاف هذه الصورة من الركوب على الإبل والتعاقب عليها ، والقيلولة والمبيت وغير ذلك من الأوصاف المختصة بالدنيا ، وإنما هو على ما ورد في حديث ابن عباس ﷺ حفاة عراة غرلا[١٩٦].

****

(١٩٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٢٢).

(١٩٤) ويزيد ابن حجر صفة هذا الحشر وضوحا ؛ فيقول : من اغتنم الفرصة سار على فسحة من الظهر ويسرة في الزاد ، راغبا فيما يستقبله راهبا فيما يستدبره . وهؤلاء هم الصنف الأول في الحديث ، ومن تواني حتى قل الظهر وضاق عن أن يسعهم لركوبهم اشتركوا وركبوا عقبةً ، وهؤلاء هم الصنف الثاني في الحديث . وأما الصنف الثالث فعبر عنه بقوله تحشر بقيتهم النار ، إشارة إلى أنهم عجزوا عن تحصيل ما يركبونه ولم يقع في الحديث بيان حالهم ، بل يحتمل أنهم يمشون ، أو يسحبون فرارا من النار التي تحشرهم . فتح الباري ٣٨١/١١ (باختصار).

(١٩٥) النهاية ، ٢١٨/١، ٢١٩ . (باختصار).

(١٩٦) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، ح (٣٣٤٩). وانظر في بسط مناقشة هذا القول : فتح الباري ٣٧٩/١١-٣٨٣ .

الفصل الثالث

أحوال البرزخ

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : القيامة الصغرى .

المبحث الثاني : حقيقة الروح وأحكامها.

المبحث الثالث : عذاب القبر ونعيمه .

المبحث الأول

القيامة الصغرى

القيامة صغرى وكبرى ؛ فالكبرى هي التي تعم الناس ويكون ابتداؤها بنفخة الصعق ، وانتهاؤها بدخول السعداء الجنة ، والأشقياء النار ، والصغرى هي ما يقوم على الإنسان في خاصته من خروج روحه ، وفراق أهله ، وانقطاع عمله ؛ قال المغيرة بن شعبة ﷺ : يقولون القيامة القيامة ، وإنما قيامة أحدهم موته ، وشهد علقمة جنازة فلما دفن قال : أما هذا فقد قامت قيامته[١٩٧]. ويتعلق بالقيامة الصغرى سبع مسائل:-

الأولى : حضور الأجل ؛ فالأجل من مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها، فلم يطلع عليهن ملكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا ؛ قال تعالى : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) لقمان : ٣٤ ، وقال النبي ﷺ : (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ؛ لا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)[١٩٨]، وقال : (إن من العلم مالا يعلمه إلا الله ؛ الخمس إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير)[١٩٩]، ويذكر عن الخليفة أبي جعفر المنصور أنه أهمه معرفة مدة عمره ، فرأى في منامه كأن خيالا أخرج يده من البحر وأشار إليه بالأصابع الخمس ، فأوله العلماء بخمس سنين ، وخمسة أشهر ، وغير ذلك ، حتى قال أبو حنيفة : تأويلها أن مفاتيح الغيب خمس ، ولا

---

(١٩٧) تفسير الطبري ١٧٤/٢٩ .

(١٩٨) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٦٩٧).

(١٩٩) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٣١٢٧). قال ابن كثير : إسناده صحيح . تفسير ابن كثير ١٣٤/٦ .

يعلمها إلا الله ، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل إليه[٢٠٠]. وإنما السبيل إلى معرفة علامات اقتراب الأجل ؛ ومن ذلك :-

١- بلوغ سن معترك المنايا ؛ وهي ما بين الستين إلى السبعين ؛ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك)[٢٠١].

٢- الرؤى الصادقة ؛ وهي كثيرة من أشهرها رؤيا عمر ﷺ قال : (إني رأيت ديكا نقرني ثلاث نقرات ، وإني لا أراه إلا حضور أجلي)[٢٠٢]، وسئل ابن سيرين ؛ فقال: رأيت كأن الجوزاء تقدمت الثريا ؟ قال : هذا الحسن يموت قبلي، ثم أتبعه، وهو أرفع مني[٢٠٣]، وقال خارجة بن زيد بن ثابت : رأيت في المنام كأني بنيت سبعين درجة، فلما فرغت منها تهورت، وهذه السنة لي سبعون سنة قد أكملتها، فمات فيها[٢٠٤]، وكذلك رؤيا إياس بن معاوية قال : رأيت في المنام كأني وأبي على فرسين معا ، فلم أسبقه ولم يسبقني ، وعاش أبي ستا وتسعين سنة ، وها أنا فيها ، فلما كان آخر لياليه قال : الليلة استكملت عمري ، ونام فأصبح ميتا[٢٠٥]. وقد يقع الإنذار باقتراب الأجل في اليقظة ؛ قال المدائني : خرجت مع المنصور في حجته التي مات فيها، فسألني عن سني، فقلت :ثلاث وستون، فقال، وأنا فيها، وهي دقاقة الأعناق، فنزلنا منزلا، فوجد مكتوبا على الحائط:

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لا شك نازل

---

(٢٠٠) انظر : فيض القدير ، للمناوي ٥٢٦/٥ .

(٢٠١) جامع الترمذي ، أبواب الدعوات ، ح (٣٥٥٠) . صححه الألباني . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (١٠٧٣).

(٢٠٢) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، ح (٥٦٧).

(٢٠٣) سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ٦١٨/٤ .

(٢٠٤) تهذيب الكمال ، للمزي ، ١٢/٨ .

(٢٠٥) شذرات الذهب ، لابن العماد ، ٩٥/٢ .

أبا جعفر هل كـــاهن أو منجـــم يرد قضاء الله أم أنت جاهل

فجعل يراه وينظر إليه ولا نرى نحن شيئا[٢٠٦]. وقال المهدي لمن كان معه :أما رأيتم ما رأيت؟ قالوا : ما رأينا شيئا ، قال : وقف على الباب رجل لو أنه في ألف رجل ما خفي علي صوته ولا صورته فقال:

كأني بهذا القصر قد باد أهله وأوحش منه ربعه ومنـــازله

وصار عميد القوم من بعد بهجة وملك إلى قبر عليه جنادله

فلم يبق إلا ذكره وحديثـــــه تنادي عليه معولات حلائله

فما أتت على المهدي بعدها إلا عشرة أيام حتى توفي[٢٠٧].

٣- المرض العضال ؛ فالمرض من علامات اقتراب الأجل ؛ قال بعض السلف : المعاصي بريد الكفر ، والمرض أو الحمى بريد الموت[٢٠٨]؛ ولهذا ذهب بعض أهل العلم إلى كراهة الرقى والمعالجة ؛ لأن على المؤمن أن يتوكل على الله تعالى ، ويعلم أن الأجل مقدر ، لا يزيد بالرقى والعلاجات ولا ينقص بتركها ؛ ولأن النبي ﷺ أخبر أن من أمته سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ؛ (هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون)[٢٠٩]؛ ولهذا لما مرض أبو الدرداء رضي الله عنه قيل له : ألا ندعو لك طبيبا ؟ فقال : رآني الطبيب ، قيل له : ما قال لك ؟ قال : إني فعال لما أريد[٢١٠]. وذهب جمهور العلماء إلى إباحة التداوي بالرقى وغيرها من العلاجات ، واحتجوا بحديث أبي خزامة ، عن أبيه قال : (سألت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله، أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله

---

(٢٠٦) شذرات الذهب ، لابن العماد ، ٢٦٣/٢ .

(٢٠٧) شذرات الذهب ، لابن العماد ، ٣١٠/٢ ، ظاهر القصة يدل على أنها لم تكن رؤيا ، وإنما كانت يقظة بعد نومة نامها ؛ ولهذا بكى ، وقال لمن معه : أما رأيتم ما رأيت ؟ فقالوا : ما رأينا شيئا .

(٢٠٨) مدارج السالكين ، لابن القيم ، ٢٥/٢ ، الداء والدواء ، ص ١٢٥ .

(٢٠٩) صحيح البخاري ، كتاب الطب ، ح (٥٧٠٥).

(٢١٠) التمهيد ، لابن عبد البر ، ٢٦٩/٥.

شيئا ؟ قال : هي من قدر الله)[٢١١]، وحديث أسامة بن شريك ﷺ قال : (جاء الأعراب من هاهنا وهاهنا فقالوا : يا رسول الله ، أنتداوى ؟ فقال : تداووا ؛ فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد؛ الهرم)[٢١٢]، ولأن النبي ﷺ أرشد أمته إلى الأدوية النافعة ؛ كالحبة السوداء ، والعسل ، وألبان البقر ، واحتجم ، ورقى نفسه ورقى أصحابه ، وأمرهم بالرقية ، وكوى أسعد بن زرارة ، وأبي ابن كعب ، واكتوى ابن عمر من اللقوة ؛ قال إبراهيم النخعي : كانوا لا يرون بالاستشفاء بأسا ، وإنما كرهوا منه ما كرهوا مخافة أن يضعفهم[٢١٣]. وقول الجمهور كما هو ظاهر إنما يبيح التداوي ولا يوجبه ؛ ولهذا قال ابن تيمية : التداوي غير واجب ، ومن نازع فيه خصمته السنة ، في المرأة السوداء التي خيرها النبي ﷺ بين الصبر على البلاء ودخول الجنة ، وبين الدعاء والعافية ، فاختارت البلاء والجنة ، ولو كان رفع المرض واجبا لم يكن للتخيير موضع ، وخصمه حال السلف في إيثار الصبر على التداوي ، ولست أعلم سالفا أوجب التداوي ، وإنما كان كثير من أهل الفضل يتركه إيثارا لما اختار الله ، ورضى به ، وتسليما له ، وهذا هو المنصوص عن أحمد ، وإن كان من أصحابه من يوجبه أو يستحبه استمساكا بما خلقه الله من الأسباب ، وجعله من سنته في عباده[٢١٤].

الثانية : تمني الموت ؛ وهو لا يخلو من حالتين :-

١- أن يكون لضر دنيوي ؛ كمرض أو فقر أو محنة بعدو ، فلا يجوز تمني الموت في هذه الحالة ؛ لحديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (ولا يتمنين أحدكم الموت ؛ إما محسنا

---

(٢١١) جامع الترمذي ، أبواب الطب ، ح (٢٠٦٥). حسنه الألباني . انظر : تخريج أحاديث مشكلة الفقر ، ص ١٣ ، التعليقات الحسان ، ٤٥٦/٨ .

(٢١٢) سنن أبي داود ، كتاب الطب ، ح (٣٨٥٥). وإسناده صحيح . انظر : تخريج أحاديث زاد المعاد ، للأرنؤوط ١٣/٤ .

(٢١٣) انظر : التمهيد ، لابن عبد البر ٢٦٥/٥-٢٨٧ .

(٢١٤) مجموع الفتاوى ، ٥٦٣/٢١ ، ٥٦٤ (بتصرف).

فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب)[٢١٥]، أي يسترضي الله بالإقلاع والاستغفار ؛ ولأن عزيمة من تمنى الموت قد تنفسخ إذا حضره الموت ؛ كما كان القاسم بن مخيمرة يدعو بالموت ، فلما حضره الموت قال لجاريته : كنت أدعو بالموت فلما نزل بي كرهته ! قال الذهبي : هكذا يتم لغالب من يتمنى الموت ، والنبي ﷺ قد نهى أن يتمنى أحدنا الموت لضر نزل به[٢١٦]، وقال ابن رجب : وجه كراهيته في هذه الحال أن المتمني للموت لضر نزل به إنما يتمناه تعجيلا للاستراحة من ضره ، وهو لا يدري إلى ما يصير بعد الموت ، فلعله يصير إلى ضر أعظم ، فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار[٢١٧]. ولا يشكل على النهي عن تمني الموت في هذه الحالة قوله تعالى عن يوسف عليه السلام : (توفني مسلما وألحقني بالصالحين) يوسف : ١٠١، وقوله عن سليمان عليه السلام : (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) النمل : ١٩ ؛ لأن المراد توفني مسلما عند حضور أجلي ، وعلى تقدير أنه تمنٍ للموت كما ثبت عن قتادة فهو من شرع من قبلنا ، وقد ورد في شرعنا ما يخالفه . ومحل النهي عن تمني الموت لضر دنيوي إذا كان التمني مطلقا ، وأما إن كان مقيدا بالصيغة الشرعية ، أو بحال الاحتضار فإنه جائز ؛ لحديث أنس رضي الله عنه مرفوعا : (لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلا فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي)[٢١٨]، وحديث عائشة رضي الله عنها قالت : (سمعت النبي ﷺ وهو مستند إلي يقول : اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق)[٢١٩]، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه :(لا يتمنى أحدكم الموت ، ولا يدع به من قبل أن يأتيه)[٢٢٠]، قال ابن حجر : مفهومه

---

(٢١٥) صحيح البخاري ، كتاب المرضى ، ح (٥٦٧٣).

(٢١٦) سير أعلام النبلاء ، ٢٠٣/٥ .

(٢١٧) لطائف المعارف ، ص ٣٩٦ .

(٢١٨) صحيح البخاري ، كتاب المرضى ، ح (٥٦٧١).

(٢١٩) صحيح البخاري ، كتاب المرضى ، ح (٥٦٧٤).

(٢٢٠) صحيح مسلم ، كتاب الذكر ، ح (٢٦٨٢).

أنه إذا حل به لا يمنع من تمنيه ؛ رضىً بلقاء الله ، ولا من طلبه من الله لذلك ، وهو كذلك ، ولهذه النكتة عقب البخاري حديث أبي هريرة بحديث عائشة : اللهم اغفر لي وارحمني ، وألحقني بالرفيق الأعلى ؛ إشارة إلى أن النهي مختص بالحالة التي قبل نزول الموت ، فلله دره ما كان أكثر استحضاره ، وإيثاره للأخفى على الأجلى ؛ شحذا للأذهان[٢٢١]، وألحق ابن رجب بذلك تمني الموت عند حضور أسباب الشهادة ، وكذلك إذا وثق المرء بعمله شوقا إلى الله تعالى ؛ ولهذا كان الصحابة ﷺ يسألون الشهادة عند حضور القتال ، وسأل معاذ ﷺ الموت لنفسه وأهل بيته لما وقع الطاعون ، وقال أبو الدرداء ﷺ : أحب الموت اشتياقا إلى ربي[٢٢٢].

٢- أن يكون تمني الموت لضر أخروي ؛ كأن يخشى على دينه فتنة من الفتن المضلة[٢٢٣]، فهذا النوع لا يدخل في النهي ؛ لقوله تعالى عن مريم : (قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) مريم : ٢٣ ؛ قال ابن كثير : فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها[٢٢٤]. ومما يدل على هذا النوع من التمني حديث ابن عباس ﷺ مرفوعا : (وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير

---

(٢٢١) فتح الباري ١٠/١٣٠ .

(٢٢٢) انظر : لطائف المعارف ، ص ٣٩٧ .

(٢٢٣) التقييد بالفتن المضلة لإخراج الفتن التي لا يخلو منها الإنسان ؛ قال ابن مسعود ﷺ : لا يقل أحدكم : أعوذ بالله من الفتن ، ولكن ليقل أعوذ بالله من مضلات الفتن ، ثم تلا قوله تعالى : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) التغابن : ١٥ ، يشير إلى أنه لا يستعاذ من المال والولد وهما فتنة ، وأما الفتن المضلة التي يخشى منها فساد الدين فهي التي يستعاذ منها، ويسأل الموت قبلها، فمن مات قبل وقوعه في شيء من هذه الفتن فقد حفظه الله وحماه ؛ عن محمود بن لبيد ﷺ مرفوعا : (اثنتان يكرههما ابن آدم ، يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلة المال ، وقلة المال أقل للحساب) . مسند الإمام أحمد ، ح (٢٣٦٢٦) . وإسناده جيد . انظر : رسائل ابن رجب ٤/٧٩-٨٣ ، تخريج أحاديث المسند ، ٣٩/٣٦ .

(٢٢٤) تفسير ابن كثير ، ٥/٢١٨ ، ٢١٩ .

مفتون)[٢٢٥]؛ ولهذا المعنى تمنى الموت جماعة من السلف ؛ فقال عمر ﷺ : اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني إليك غير مفرط ولا مضيع ، ودعا علي ﷺ ربه أن يريحه من رعيته فقتل عن قريب ، ودعت زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما جاءها عطاء عمر من المال فاستكثرته ، وقالت : اللهم لا يدركني عطاء عمر بعدها ، فماتت قبل العطاء الثاني ، ولما ثقل على رعية عمر بن عبد العزيز قيامه فيهم بالحق وضجر منهم ، طلب من رجل كان معروفا بإجابة الدعاء أن يدعو له بالموت، فدعا له ولنفسه بالموت فماتا ، وكان سفيان الثوري يتمنى الموت كثيرا ؛ فسئل عن ذلك، فقال : ما يدريني ؛ لعلي أدخل في بدعة، لعلي أدخل فيما لا يحل لي، لعلي أدخل في فتنة، أكون قد مت فسبقت هذا[٢٢٦]؛ ولهذا لما سئل عبد الرحمن بن مهدي عن الرجل يتمنى الموت مخافة الفتنة على دينه ؟ قال : ما أرى بذلك بأسا ، لكن لا يتمناه من ضر به أو فاقة ؛ تمنى الموت أبو بكر وعمر ومن دونهما[٢٢٧].

الثالثة : في حسن الخاتمة ؛ من أسباب حسن الخاتمة المحافظة على الاستقامة حال الصحة ؛ لقوله تعالى : (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) آل عمران : ١٠٢ ؛ قال ابن كثير : أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ؛ فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أن من عاش على شيء مات عليه[٢٢٨]؛ ولهذا قال أهل العلم : إن الغالب أن سوء الخاتمة لا يقع لمن استقام باطنه ، وصلح ظاهره ، وإنما يقع لمن في طويته فساد أو ارتياب ، ويكثر وقوعه للمصر على الكبائر ، والمجتريء على العظائم ، فيهجم عليه الموت بغتة ، فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة ، فيكون ذلك

---

(٢٢٥) جامع الترمذي ، أبواب تفسير القرآن ، ح (٣٢٣٣). وإسناده صحيح. انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح (٥٩).

(٢٢٦) انظر : رسائل ابن رجب ٤/٧٨-٨٣ ، تفسير ابن كثير ٥/٢١٨ ، ٢١٩ ، فتح الباري ، لابن حجر ١٠/١٢٧-١٣٢ ، ١٣/٢٢٠-٢٢٣ .

(٢٢٧) سير أعلام النبلاء ٩/٢٠٧ .

(٢٢٨) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٩ .

سببا لسوء الخاتمة[٢٢٩]. ولحسن الخاتمة علامات ، منها :-

١- أن يفتح للعبد عمل صالح قبل موته ، أو يموت عقب طاعة كبيرة ؛ روى الإمام أحمد بسنده عن أبي عنبة الخولاني ﷺ مرفوعا : (إذا أراد الله بعبد خيرا عسله ، قيل : وما عسله ؟ قال : يفتح الله له عملا صالحا قبل موته ثم يقبضه عليه)[٢٣٠]؛ وقال ابن رجب : كان السلف يستحبون أن يموتوا عقب عمل صالح؛ من صوم رمضان، أو رجوع من حج، وكان يقال: من مات كذلك غفر له[٢٣١].

٢- أن يكون في ساعات الاحتضار خائفا راجيا ؛ لحديث أنس ﷺ : (أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال : كيف تجدك ؟ قال : والله يا رسول الله إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي . فقال رسول الله ﷺ : لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف)[٢٣٢]. واستحب بعض أهل العلم تغليب الرجاء عند الاحتضار ؛ لحديث جابر بن عبد الله ﷺ قال : (سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل)[٢٣٣]. والظاهر أن حسن الظن بالله تعالى لا ينافي خوف المحتضر على نفسه في هذا المقام ؛ لأنه إذا نظر لكمال ربه ورحمته وإحسانه حسُن ظنه بربه ، وإذا نظر إلى تقصيره في العمل وشكر النعم ، وعدم تحقيق شروط قبول العمل خاف على نفسه[٢٣٤].

---

(٢٢٩) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤٨٩/١١ ، ٤٩٠ ، وانظر أمثلة واقعية لحسن الخاتمة وسوئها في كتاب الداء والدواء ، لابن القيم ، ص ٢١٦-٢١٩ ، وكذلك البداية والنهاية ، لابن كثير ، ٢٦٢/١٣ ، ٢٦٣ .

(٢٣٠) المسند ، ح (١٧٧٨٤) ، وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٣٠٧).

(٢٣١) لطائف المعارف ، ص ١٧٧ .

(٢٣٢) جامع الترمذي ، أبواب الجنائز ، ح (٩٨٣) ، وإسناده حسن . انظر : أحكام الجنائز ، للألباني ، ص ٣ .

(٢٣٣) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٧٧) .

(٢٣٤) انظر : رسائل ابن رجب ٩٥/٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٤٣٧-٤٤٠ ، الوعد الأخروي ٨٩٧/٢-٩١٢.

٣- محبة لقاء الله تعالى ؛ فالمؤمن المستقيم[٢٣٥]إذا احتضر بشرته الملائكة بالجنة؛ قال الله تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) الفجر ٢٧-٣٠ ، وقال النبي ﷺ : (الميت تحضره الملائكة ؛ فإذا كان رجلا صالحا قالوا : أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، أخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان)[٢٣٦]، وإذا فاز المؤمن بهذه البشرى أحب لقاء الله تعالى فأحب الله لقاءه ؛ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : قال رسول الله ﷺ : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . فقلت : يا نبي الله، أكراهية الموت فكلنا نكره الموت ؟ فقال : ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه)[٢٣٧]، وعن شريح بن هانئ قال : (أتيت عائشة ، فقلت : يا أم المؤمنين ، سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله ﷺ حديثا، إن كان كذلك فقد هلكنا ؛ فقالت : إن الهالك من هلك بقول رسول الله ﷺ ، وما ذاك ؟ قال : قال رسول الله ﷺ : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، وليس منا أحد إلا وهو يكره الموت ؛ فقالت : قد قاله رسول الله ﷺ ، وليس بالذي تذهب إليه، ولكن إذا شخص البصر، وحشرج الصدر، واقشعر الجلد، وتشنجت الأصابع، فعند ذلك من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)[٢٣٨].

---

(٢٣٥) وأما المؤمن المخلط ، الذي شاء الله عذابه فيقال له : أبشر يا عبد الله بالجنة بعد الانتقام . انظر : طبقات الحنابلة ٢/٢٧ .

(٢٣٦) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، ح (٤٢٦٢). وإسناده صحيح . انظر : صحيح ابن ماجه ، للألباني ٢/٤٢٠.

(٢٣٧) صحيح مسلم ، كتاب الذكر ، ح (٢٦٨٤).

(٢٣٨) صحيح مسلم ، كتاب الذكر ، ح (٢٦٨٥). ومعنى كلام أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في صفة المحتضر أنه إذا أشرف على مفارقة الدنيا فتح عينه إلى فوق ، ولم يطرف ، وترددت روحه في صدره ، وتشنجت أصابعه ؛ أي اجتمعت وانقبضت ملتصقة . انظر : جامع الأصول ٩/٥٩٧ ، ٥٩٨ ، فتح الباري ١١/٣٥٩.

الرابعة : في فتنة الممات ؛ عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع ؛ يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال)[٢٣٩]؛ وفتنة الممات تحتمل معنيين :-

١- أن يراد بها الفتنة عند الموت ، أضيفت إليه لقربها منه، ويدخل فيها ابتلاء العبد وقت الموت بتخبط الشيطان ؛ أي باستيلائه على المحتضر حتى يضله ، أو يحول بينه وبين التوبة ، ويعوقه عن الخروج من المظالم ، ويؤيسه من رحمة الله تعالى ، وهي فتنة عظيمة تشرع الاستعاذة منها بخصوصها ؛ عن أبي اليسر الأنصاري ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يقول : (اللهم إني أعوذ بك من التردي ، والهدم ، والغرق ، والحريق ، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت)[٢٤٠]، وعرض الأديان عند الموت من أعظم أنواع هذا التخبط الشيطاني ، ولكنه ليس عاما لكل محتضر ، وإنما يخشى على بعض المفرطين في دينهم ؛ كمن استطاع الحج ولم يحج .

٢- أن يراد بها فتنة الملكين في القبر ؛ فالناس يفتنون في قبورهم مثل أو قريبا من فتنة الدجال ، وقد يتراءى الشيطان للميت ليضله عند سؤال الملكين ؛ قال سفيان الثوري : الميت إذا سئل من ربك ؟ تراءى له الشيطان فيشير إلى نفسه : إني أنا ربك ؛ ولهذا كانوا يستحبون إذا وضع الميت في القبر أن يقال : اللهم أعذه من الشيطان[٢٤١].

الخامسة : رؤية المحتضر للملائكة ؛ قال تعالى : (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ

---

(٢٣٩) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، ح (٥٨٨).

(٢٤٠) سنن النسائي ، كتاب الاستعاذة ، ح (٥٥٣١) ، صححه الألباني . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (١٢٨٢) . ومن الأسباب التي يرجى أن تعصم من هذه الفتنة ذكر الله تعالى في الأسحار ؛ قال السخاوي : صح عمن حضر الكازروني أنه سمعه وقت النزع يقول : أنا ما أعرفك يا شيطان ، أو أنت الشيطان ، أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، ثم فاضت روحه ، ولعل ذلك ثمرة ذكره لله في الأسحار . الضوء اللامع ، للسخاوي ، ٣١/٥ .

(٢٤١) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٥٥/٤ ، ٢٥٦ ، ٢٠٢/١٤ ، مجموع رسائل ابن رجب ٧٦/٤ ، فتح الباري ، لابن حجر ٣١٩/٢ ، فيض القدير ، للمناوي ، ١٤٨/٢.

للمجرمين) الفرقان : ٢٢ ؛ قال ابن كثير : الملائكة في يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين ؛ فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين[٢٤٢]. وقال ابن القيم : الملائكة تنزل على المحتضر ، وتجلس قريبا منه ، ويشاهدهم عيانا ، ويتحدثون عنده ، ومعهم الأكفان والحنوط ، إما من الجنة أو من النار ، ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير أو الشر[٢٤٣]. ورؤية الملائكة خاصة بالمحتضر دون من يحضره من أهله وغيرهم ؛ قال تعالى : (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) الواقعة ٨٣-٨٥ ؛ أي أن ملك الموت[٢٤٤] وأعوانه أقرب إلى المحتضر ممن عنده من الناس ، ولكن لا يرى أحد منهم الملائكة [٢٤٥]، وليس معنى هذا أنهم لا يعلمون بوجودهم مطلقا ؛ إذ قد يرون أو يسمعون من المحتضر ما يدل على حضورهم ؛ كما وقع لعمر بن عبد العزيز لما احتضر ؛ فقد سمعوه وهو يقول : مرحبا بهذه الوجوه، ليست بوجوه إنس ولا جان، ثم تلا : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) القصص :٨٣، ثم قبض[٢٤٦]. وقال فضالة بن دينار : حضرت محمد بن واسع، وقد سجي للموت، فجعل يقول : مرحبا بملائكة ربي، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وشممت رائحة طيبة لم أشم رائحة قط أطيب منها ،ثم شخص ببصره فمات[٢٤٧]، وقال الخليفة المقتدي لقهرمانتة شمس النهار : من هؤلاء الأشخاص الذين قد دخلوا علينا بغير إذن؟ قالت : فالتفت فلم أر أحدا ، ورأيته قد تغيرت

---

(٢٤٢) تفسير ابن كثير ٥/٥٨٥ ، (باختصار يسير). وانظر : تفسير القرطبي ١٣/٢٠.

(٢٤٣) كتاب الروح ، لابن القيم ١/١٨٨ .

(٢٤٤) ملك الموت هو الاسم الثابت في الكتاب والسنة ، وأما ما اشتهر من تسميته بعزرائيل فمما لا أصل له ، ولعله من الإسرائيليات . انظر : أحكام الجنائز ، للألباني ، ص ١٥٦ ، ح (٢).

(٢٤٥) انظر : تفسير ابن كثير ٧/١٦١.

(٢٤٦) سير أعلام النبلاء ٥/١٤٢ .

(٢٤٧) كتاب الروح ، لابن القيم ١/١٨٩ .

حالته ، واسترخت يداه ورجلاه وانحلت قواه ، وسقط إلى الأرض فأغلقت عليه الباب ، وخرجت فأعلمت ولي العهد بذلك ، وجاء الأمراء ورؤوس الدولة يعزونه بأبيه ، ويهنئونه بالخلافة[٢٤٨]. وقد يفسح في أجل بعض المحتضرين لحكمة ، فيخبر الناس بما رأى من الملائكة ؛ عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : غشي على عبد الرحمن بن عوف ﷺ في وجعه حتى ظنوا أنه قد فاضت نفسه ، حتى قاموا من عنده وجللوه، فأفاق يكبر، فكبر أهل البيت، ثم قال لهم : غشي علي آنفا ؟ قالوا : نعم ، قال : صدقتم ؛ انطلق بي في غشيتي رجلان ، أجد فيهما شدة وفظاظة ، فقالا : انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين ، فانطلقا بي حتى لقيا رجلا ، قال : أين تذهبان بهذا؟ قالا : نحاكمه إلى العزيز الأمين ، فقال : ارجعا ؛ فإنه من الذين كتب الله لهم السعادة والمغفرة وهم في بطون أمهاتهم ، وإنه سيمتع به بنوه إلى ما شاء الله ، فعاش بعد ذلك شهرا [٢٤٩].

السادسة : في سكرات الموت ؛ وهي غمراته وشدائده التي تغلب على العقل والفهم ؛ قال تعالى : (وجاءت سكرة الموت بالحق) ق : ١٩ ؛ أي جاءت بالحق الذي أخبرت به الرسل ، وهو ما يكون بعد الموت من ثواب وعقاب[٢٥٠]، وقال النبي ﷺ : (لا إله إلا الله، إن للموت سكرات)[٢٥١]، وقال : (اللهم أعني على غمرات الموت أو سكرات الموت)[٢٥٢]، ولما احتضر أبو بكر ﷺ وثقل قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

---

(٢٤٨) انظر : البداية والنهاية ، لابن كثير ، ١٤٦/١٢ ، شذرات الذهب ، لابن العماد ٣٧٤/٥ .

(٢٤٩) سير أعلام النبلاء ٨٩/١ . والأثر إسناده صحيح . انظر : تحقيق وتخريج سير أعلام النبلاء ٨٩/١ . وقد سمعنا في زماننا ما يشبه هذه القصة من بعض الوجوه ، فسبحان من يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب .

(٢٥٠) وقيل : إن المراد أنها جاءت بالحق الذي هو الموت . والأول أولى ؛ لأن الموت لا نزاع فيه حتى يقال : إن سكرة الموت جاءت بحقيته . انظر : تفسير البغوي ٢٢٣/٤ ، مجموع الفتاوى ، لابن تيمية ٢٦٥/٤ .

(٢٥١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥١٠).

(٢٥٢) جامع الترمذي ، أبواب الجنائز ، ح (٩٧٨). وإسناده حسن . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٣٦٢/١١ .

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولي : وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد[٢٥٣]. وكان عمرو بن العاص ﷺ يقول : عجبا لمن نزل به الموت، وعقله معه كيف لا يصفه ، فلما نزل به الموت، قال له ابنه عبد الله ﷺ : فصف لنا الموت وعقلك معك ؛ فقال : يا بني ، الموت أجل من أن يوصف، ولكني سأصف لك منه شيئا ؛ أجدني كأن على عنقي جبال رضوى، وأجدني كأن في جوفي شوك السلاح، وأجدني كأن نفسي تخرج من ثقب إبرة[٢٥٤]! وسكرات الموت لا دلالة فيها على نقص في المرتبة ؛ لأنها تحصل للبر والفاجر ؛ قال ابن حجر : شدة الموت لا تدل على نقص في المرتبة ، بل هي للمؤمن إما زيادة في حسناته ، وإما تكفير لسيئاته[٢٥٥]، وقال : كل من البر والفاجر يجوز أن يشدد عليه عند الموت وأن يخفف، والأول هو الذي يحصل له سكرات الموت ، ولا يتعلق ذلك بتقواه ولا بفجوره، بل إن كان من أهل التقوى ازداد ثوابا، وإلا فيكفر عنه بقدر ذلك ثم يستريح من أذى الدنيا الذي هذا خاتمته[٢٥٦]؛ ولهذا قال عمر بن عبد العزيز: ما أحب أن يهون علي سكرات الموت ؛ إنه لآخر ما يكفر به عن المؤمن[٢٥٧]، وهذا من باب الأخذ بالعزائم وإلا فقد أخذ بعض السلف بالأسباب التي تخفف سكرات الموت كما ثبت عن غضيف بن الحارث الثمالي حين اشتد سوقه أنه قال : هل منكم أحد يقرأ يس ؟ قال : فقرأها صالح بن شريح السكوني، فلما بلغ أربعين منها قبض، قال الراوي : وكان المشيخة يقولون : إذا قرئت عند الميت خفف عنه بها[٢٥٨]. ومن الأسباب التي

---

(٢٥٣) تفسير ابن كثير ١٣/٧.

(٢٥٤) المستدرك ، للحاكم ، ح (٥٩١٥) ، وسكت عنه الذهبي في التلخيص .

(٢٥٥) فتح الباري ٣٦٣/١١ .

(٢٥٦) فتح الباري ٣٦٥/١١ (بتصرف يسير).

(٢٥٧) فتح الباري ٣٦٥/١١.

(٢٥٨) مسند الإمام أحمد ، ح (١٦٩٦٩). قال ابن حجر : وهو حديث حسن الإسناد . الإصابة ٢٤٩/٥ . وقد رأى الألباني أنه لا يصح في قراءة يس على المحتضر حديث ؛ ولهذا أنكرها ورأى أنها من البدع . انظر : أحكام الجنائز ،

يرجى أن يحصل بها التخفيف عن المحتضر التوسل بالعمل الصالح ؛ كما ذكروا عن الحكم بن حنطب ، الذي كان من أجواد العرب المعروفين ، فلما احتضر لقي من الموت شدة ؛ فقال رجل : اللهم هون عليه الموت ؛ فلقد كان ولقد كان ، فأثنى عليه ، فأفاق من غشيته قال من المتكلم ؟ قال الرجل : أنا ؛ قال : إن ملك الموت يقول : إني بكل رجل سخي رفيق . ثم مات سريعا ؛ كأنه فتيلة أطفئت[٢٥٩].

السابعة : الميت مستريح ومستراح منه ؛ فالعبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب[٢٦٠]؛ فالعباد يستريحون من ظلمه ومنكراته ، والبلاد والدواب تستريح من آثار معصيته ؛ قال أبو هريرة ﷺ : إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم ، وقال مجاهد : البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة ، وأمسك المطر ، وتقول : هذا من شؤم ذنوب بني آدم[٢٦١]. وهذا بخلاف حال المؤمن ، لحسن آثار عمله على العباد والبلاد ، وخاصة إذا كان عالما عاملا ؛ عن أبي أمامة الباهلي ﷺ : (إن الله، وملائكته، وأهل السماوات، والأرضين، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ؛ ليصلون على معلم الناس الخير)[٢٦٢]، وعن علي ﷺ ، قال : إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله من السماء، ثم تلا : (فما بكت عليهم

للألباني ، ص ١١ ، ٢٤٣ . وقول الألباني بأن قراءتها من البدع يشكل على قاعدة من القواعد التي وضعها لمعرفة بدع الجنائز ، وهي كل أمر لا يمكن أن يشرع إلا بنص أو توقيف ولا نص عليه فهو بدعة إلا ما كان عن صحابي ؛ لأن قراءة يس وردت عن صحابي ، هو غطيف بن الحارث ، ونص ابن حجر على أن إسناده حسن ، فلا تكون بدعة بمقتضى هذه القاعدة . انظر : الإصابة ، ٢٤٩/٥ ، انظر : أحكام الجنائز وبدعها ، ص ٢٤٢.

(٢٥٩) روضة العقلاء ، لابن حبان ص ٢٨٦ .

(٢٦٠) انظر : صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥١٢).

(٢٦١) انظر : تفسير البغوي ١٣٤/١ ، الداء والدواء ، لابن القيم ، ص ١٤٥ ، ١٤٦،فتح الباري لابن حجر ٣٦٥/١١.

(٢٦٢) جامع الترمذي ، أبواب العلم ، ح (٢٦٨٥). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته ، للألباني ، ح (٤٢١٣).

السماء والأرض وما كانوا منظرين) الدخان : ٢٩؛ قال ابن عباس ﷺ : تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحا ، وقال مجاهد : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحا، فقيل له : أتبكي الأرض؟ فقال : أتعجب ؛ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ، وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل[٢٦٣]!

****

(٢٦٣) شرح السنة ، للبغوي ٢٧١/٥ ، تفسير ابن كثير ٥٩٩/٦.

المبحث الثاني

حقيقة الروح وأحكامها

إطلاقات الروح

أطلقت الروح في القرآن على عدة معان :

أحدها : الوحي ، كما في قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) الشورى : ٥٢، وقوله : (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده) غافر : ١٥ ، سمي الوحي روحا لأنه سبب حياة الأرواح والأبدان حياة نافعة .

الثاني : النصرة التي يثبت الله ويؤيد بها من يشاء من عباده المؤمنين ، كما في قوله تعالى : (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) المجادلة : ٢٢.

الثالث : المسيح ابن مريم عليه السلام ؛ قال تعالى: (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) النساء : ١٧١ ، سمي روحا لأنه حدث عن نفخة جبريل عليه السلام في درع مريم بأمر الله تعالى .

الرابع : جبريل عليه السلام ، كما في قوله تعالى : (نزل به الروح الأمين على قلبك) الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤، وقوله : (قل نزله روح القدس من ربك) النحل : ١٠٢ ، وقوله : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) الإسراء : ٨٥ ، وقوله : (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون) النبأ : ٣٨ ، وقوله : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم) القدر : ٤. وقيل إن المراد بالروح في آية الإسراء وما بعدها ملك عظيم من أعظم الملائكة خلقا ، والأظهر أن المراد بذلك جبريل عليه السلام ؛ لإطلاق اسم الروح عليه في عدة آيات من القرآن . وأما أرواح بني آدم فلم تسم في القرآن إلا بالنفس ؛ قال تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ ، وقال : (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم) الأنعام ٩٣. وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح ؛ ولهذا اختلف العلماء في الروح والنفس ؛ هل هما شيء واحد أو شيئان ؟ فقال بعض أهل العلم : الروح والنفس شيء واحد ؛

ولهذا يعبر عنها في النصوص والآثار مرة بلفظ النفس ومرة بلفظ الروح ؛ كما في قول النبي ﷺ : (إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء)[٢٦٤]، وقوله : (إن الروح إذا قبض تبعه البصر)[٢٦٥]، وقوله : (والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك)[٢٦٦]، وقول بلال رضي الله عنه : (أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك بأبي أنت وأمي يا رسول الله)[٢٦٧] ؛ فعبر عن الروح بلفظ النفس ، ولم ينكر عليه النبي ﷺ . وقال آخرون : النفس غير الروح ؛ واحتجوا بأن الروح لم تخاطب ، ولم يلحقها شيء من التوبيخ ، بخلاف النفس التي خوطبت ولحقها التوبيخ ؛ كما في قوله تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ ، وقوله : (أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله) الزمر : ٥٦. والصحيح أن النفس تكون مرادفة للروح في حال ومغايرة لها في حال ؛ فتكون بمعنى الروح كما في قوله تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة) الفجر : ٢٧، وقوله : (أخرجوا أنفسكم) الأنعام : ٩٣ ، وقول النبي ﷺ : (الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل صالحا قالوا : أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب)[٢٦٨]، وتقول العرب : خرجت نفسه ، وفاضت نفسه ، أي خرجت روحه . وتكون مغايرة للروح في استعمالات أخرى ؛ فتطلق على الروح والجسد معا ؛ أي على الذات بجملتها ؛ كما في قوله تعالى : (فسلموا على أنفسكم) النور : ٦١ ، وقوله : (ولا تقتلوا أنفسكم) النساء : ٢٩ ، وقوله : (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) النحل : ١١١، وتطلق على الجسد وحده ، كما في قول ذي الرمة :-

---

(٢٦٤) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، ح (٧٤٧١).

(٢٦٥) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، ح (٩٢٠).

(٢٦٦) صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، ح (١٨٩٤).

(٢٦٧) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، ح (٤٣٦). وإسناده صحيح . انظر : صحيح سنن أبي داود ، ح(٤٦٢).

(٢٦٨) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، ح (٤٢٦٢). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، ح ، (١٩٦٨).

يا قابض الروح من نفس إذا احتضرت وغافر الذنب زحزحني عن النار

وتطلق أيضا على الدم السائل ، كقول الفقهاء : ليست له نفس سائلة، وقول الشاعر :

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

والنفس التي بمعنى الروح لها ثلاث صفات ، تسمى باعتبار كل صفة منها باسم يميزها عن غيرها ؛ قال تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة) الفجر : ٢٧ ، وقال : (ولا أقسم بالنفس اللوامة) القيامة : ٢ ، وقال : (إن النفس لأمارة بالسوء) يوسف : ٥٣ ؛ فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى عبوديتة ربها ، وتوكلها عليه ، وتسمى لوامة إما لتلومها وتقلبها ؛ فتذكر وتغفل ، وتقبل وتعرض ، وإما لأنها تلوم صاحبها على غشيان الذنوب ، والتقصير في الطاعات ، وتسمى أمارة لأنها طبعت على الأمر بالسوء إلا إذا أعانها الله ووفقها للخير ، كما قال تعالى : (إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي) يوسف : ٥٣ ، والنفس الأمارة هي الغالبة على الناس ، وأما النفس المطمئنة فأهلها أقل الناس عددا ، وأعظمهم عند الله قدرا[٢٦٩].

حقيقة الروح

اختلف الناس في حقيقة الروح على ثلاثة أقوال :-

الأول : أن الروح جسم ، وهي إما نفس البدن ، أو جزء من أجزائه ، أو صفة من صفاته ؛ ولهذا تعدم بعدم البدن كما تعدم سائر صفات البدن . وهذا قول جمهور المتكلمين . وهو غير صحيح لوجوه ، منها :-

١- مخالفته للنصوص ؛ فقد ثبت أن الملك يقبض الروح ، وتأخذها الملائكة من يده ، فيوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على الأرض ، وكذلك ثبت أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة ؛ أي تأكل ، فهذه النصوص ونظائرها تدل على أن

(٢٦٩) انظر : التمهيد ، لابن عبد البر ٥/٢٤١-٢٤٩ ، الرد على الشاذلي ، لابن تيمية ، ص١٧٠-١٧٤ ، الروح ،لابن القيم ٢/٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٦١٤-٦١٨ ، ٦٢٢-٦٥٠ ، ٧٤٢ .

الروح ذات قائمة بنفسها مغايرة للبدن ، وليست من جملة أعراضه ؛ لأن الأعراض لا ريح لها ، ولا تقبض وتؤخذ ، ولا تأكل .

٢- القول بأن الروح تعدم بعدم البدن يعني نفي الروح المفارقة ، وهو خلاف النصوص المستفيضة الدالة على بقاء الروح بعد الموت ؛ قال تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ ، وقال النبي ﷺ : (أرواحهم - أي الشهداء - في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل)[٢٧٠]؛ ولهذا قال ابن تيمية : إنكار بقاء النفس بعد الموت قول مبتدع في الإسلام ، لم يذهب إليه أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان[٢٧١].

٣- لو كانت الروح عرضا من أعراض البدن كما زعم بعضهم لكان الإنسان كل وقت تبدل روحه ، فيكون الإنسان الذي هو الآن غير الذي قبله بلحظة وبعده بلحظة ! وهذا من الهوس .

الثاني : أن الروح جوهر مجرد ؛ أي مجردة عن المادة وعلائقها ، وعن كل وصف ثبوتي ؛ فليست بجسم ، ولا حالة في جسم ، وتعلقها بالبدن تعلق تدبير وتصرف ، لا تعلق مساكنة ومداخلة ، فلا هي في البدن ولا خارجه ، ولا داخل العالم ولا خارجه ، ولا تدخل ولا تخرج ، ولا تصعد ولا تنزل ، ولا تتحرك ولا تسكن ، ولا يتميز منها شيء عن شيء ، ولا تدرك الجزئيات المعينة . وهذا رأي الفلاسفة . وهو أيضا غير صحيح لوجوه ، منها :-

١- أنه خلاف النصوص ؛ لأنها وصفت الروح بالإمساك والإرسال والخروج والدخول والقبض والانتقال والتحيز بمكان ، وكل هذه الصفات ونظائرها تنافي تجرد الروح ؛ لأن المجرد عبارة عما ليس بجسم ولا قوة حالة في الجسم ، وإنما يتعلق بالبدن تعلق

---

(٢٧٠) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، ح (١٨٨٧).

(٢٧١) الصفدية ، ٢/ ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

التدبير والتصرف .

٢- أن الروح لو كانت مجردة، وتعلقها بالبدن ليس بالمساكنة والمداخلة ، وإنما هو تعلق تدبير فقط، كتعلق الملاح بالسفينة، والجمال بجمله لأمكنها ترك تدبير البدن، واشتغالها بتدبير بدن آخر، كما يمكن الملاح والجمال ذلك ، وفي ذلك تجويز تنقل النفوس من أبدان إلى أبدان .

٣- أن روح الإنسان لو كانت جوهرا مجردا، لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة عنه، لكان يعلم بالضرورة أنه موجود بهذه الصفة، لأن علم الإنسان بنفسه وصفاتها أظهر من كل معلوم ، وجماهير أهل الأرض يعلمون أن إثبات هذا الموجود محال في العقول شاهدا وغائبا ؛ فمن قال ذلك في نفسه أو في ربه فلا عرف نفسه ولا عرف ربه .

٤- أنها لو كانت جوهرا مجردا، لا داخل العالم ولا خارجه لكان بعض الإنسان في العالم وبعضه لا داخل العالم ولا خارجه ، وكل عاقل يعلم بالضرورة بطلان ذلك، وأن الإنسان بجملته داخل العالم .

الثالث : أن الروح ذات قائمة بنفسها ، وحقيقتها مغايرة للبدن وصفاته ، وللجواهر المجردة ؛ لأنها وصفت في النصوص بالقبض والرد ، والصعود ، والنزول ، والتوفي ، والإمساك ، والإرسال ، والرجوع ، والدخول ، والرضى ، ومباشرة النعيم والعذاب ، ورأى النبي ﷺ ليلة الإسراء أرواح الناس متحيزة بمكان ؛ عن يمين آدم عليه السلام ويساره ، وفي هذه الصفات ونظائرها دلالة قاطعة على أنها ليست من المجردات ، وإنما هي ذات قائمة بنفسها ، مغايرة للبدن وصفاته ؛ ولهذا لا يصح إطلاق القول بجسميتها لا إثباتا ولا نفيا ؛ لأنه إن أريد بالجسم معناه اللغوي وهو البدن فليست جسما بهذا الاعتبار ، وإن أريد بالجسم معناه الاصطلاحي ، وهو القائم بنفسه فهي جسم بهذا

الاعتبار . وهذا قول أهل السنة[٢٧٢].

حدوث الروح

الأدلة على حدوث الروح ، وأنها من جملة مخلوقات الله تعالى كثيرة ؛ منها :-

١- قول الله تعالى : (الله خالق كل شيء) الزمر : ٦٢ ؛ فعموم الآية يشمل الأرواح والأبدان.

٢- قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) الإنسان : ١ ، والإنسان اسم للروح والجسد ، فلو كانت روحه قديمه لكان بعض الإنسان لم يزل شيئا مذكورا .

٣- قوله تعالى لزكريا عليه السلام : (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) مريم : ٩ ، والخطاب شامل لروح زكريا وبدنه .

٤- قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) الزمر : ٤٢ ؛ فوصف الروح بالوفاة والإمساك والإرسال، وهذا شأن المخلوق المحدث .

٥- قول النبي ﷺ : (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[٢٧٣]؛ فالحديث برهان على أن الروح لا يمكن أن تكون قديمة ؛ لأنها حادثة بنفخة الملك الموكل بالأرحام[٢٧٤]، وهو مخلوق كسائر الملائكة .

---

(٢٧٢) انظر : الرد على الشاذلي ، لابن تيمية ، ص ١٧٠-١٧٤ ، الروح ، لابن القيم ١/١٠٧-١١٥ ، ٢/ ٥١١-٦١٢ .

(٢٧٣) صحيح مسلم ، كتاب الزهد ، ح (٢٩٩٦).

(٢٧٤) الملك لا يرسله الله تعالى إلى الجنين بروح قديمة أزلية ينفخها فيه كما قد يتوهم ، وإنما يرسله لينفخ في الجنين نفخة تحدث له الروح بواسطتها ، فتكون النفخة سبب حصول الروح وحدوثها له، كما كان الوطء والإنزال سبب تكوين جسمه، فمادة الروح من نفخة الملك، ومادة الجسم من صب الماء في الرحم ، فهذه مادة سماوية، وهذه مادة أرضية ، فالملك أب لروحه، والتراب أب لبدنه وجسمه . انظر : كتاب الروح ، لابن القيم ، ٢/٤٣١ .

وقد أجمع المسلمون على مقتضى هذه النصوص ، وسار على القول بحدوث الروح أهل القرون المفضلة من غير اختلاف بينهم في ذلك ، حتى نبغت نابغة من أهل البدع ؛ فقالوا بقدم الروح واحتجوا على ذلك بدليلين :-

١- قول الله تعالى : (قل الروح من أمر ربي) الإسراء : ٨٥ ؛ فالروح من أمر الله ، وأمر الله غير مخلوق. والجواب عن استدلالهم من وجهين :-

أ- كون الروح من أمر الله لا يدل على قدمها ، وأنها غير مخلوقة ؛ لأنه ليس المراد بالأمر في الآية الكلام الذي يأمر به الله تعالى ، وإنما المراد به المأمور المخلوق ، والمصدر قد يذكر ويراد به اسم المفعول ؛ كما في قوله تعالى : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) النحل : ١ ؛ أي مأموره الذي قدره وقضاه ؛ وهي الساعة التي استعجلوها ، وقوله تعالى : (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك) هود : ١٠١؛ أي مأموره الذي أمر به ؛ وهو إهلاكهم وعذابهم .

ب- أكثر السلف على أن الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم ، لأنهم إنما سألوا عن أمر لا يعرف إلا بالوحي ، ليكون الإخبار عنه من أعلام النبوة ؛ وذلك هو الروح الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله : (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون) النبأ : ٣٨ ، وهو إما ملك عظيم من أعظم الملائكة خلقا ، أو جبريل عليه السلام على الأظهر ؛ فهذا الملك هو الروح التي وقع السؤال عنها ، وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب المطلق ؛ ولهذا تكلم الناس في ما هيتها وأحكامها .

٢- قوله تعالى : (ونفخت فيه من روحي) الحجر : ٢٩، وقوله : (ونفخ فيه من روحه) السجدة : ٩ ؛ فأضاف الروح إليه ، كما أضاف إليه علمه ، وقدرته ، وسمعه وبصره ؛ فعلم من ذلك أنها كالصفات في القدم . والجواب عن هذه الشبهة أن يقال : إن المضاف إلى الله تعالى نوعان ؛ معان لا تقوم بأنفسها ، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها . والثاني إضافة أعيان منفصلة عن الله تعالى ، كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح ، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه،

وفيها دلالة على تشريف المضاف إليه عن غيره ؛ ولهذا كانت الروح أشرف من البدن وإن كان أسبق منها في الخلق عند جمهور أهل العلم ؛ فآدم عليه السلام خلق بدنه أولا ثم خلقت روحه ؛ قال تعالى : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) الحجر : ٢٩ ، وهكذا الشأن في بنيه ، فالله خلق أبدانهم أولا ثم أرواحهم ؛ قال النبي ﷺ : (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه في أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات ؛ رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد)[٢٧٥]؛ فدل على أن الملك يرسل وحده ، لا بروح قديمة ، وأن الروح تحدث بنفخته ، وهذا يبطل قول من رأى أن الروح أسبق في الخلق من الجسد ، إذ لو كان كذلك لقال : يرسل الملك إليه ومعه الروح فيدخلها في بدن الجنين ، ولا حجة في نصوص الميثاق على أسبقية الروح في الخلق ؛ لأنها لا تدل على خلق الأرواح قبل الأجساد خلقا مستقرا، وإنما تدل على أن الله تعالى مسح ظهر آدم عليه السلام فأخرج من صلبه ذريته كالذر ، وكلمهم قبلا ، وقدر آجالهم وأعمالهم ، ثم ردهم إلى أصلهم ، ولا تدل على أنها خلقت خلقا مستقرا، ثم استمرت موجودة حية ، ثم ترسل إلى الأبدان جملة بعد جملة، كما قالوا[٢٧٦].

خلود الروح

رأى بعض أهل العلم أن الروح تموت ؛ لأنها نفس ، وكل نفس ذائقة الموت ، ولأن الأدلة دلت على أنه لا يبقى إلا الله وحده ؛ قال تعالى : (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) الرحمن :٢٦ ،٢٧. والصحيح أن موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها ؛ فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم بالكلية

---

(٢٧٥) مسند الإمام أحمد ، ح (٣٦٢٤) . وإسناده صحيح ، على شرط الشيخين . انظر : تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط ورفاقه ١٢٥/٦.

(٢٧٦) انظر : كتاب الروح ، لابن القيم ، ٢/ ٤٢٠-٤٥٢ ، ٤٥٣-٥١١ ، شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز ، ص ٣٩١ ، ٣٩٢.

فهي لا تموت بهذا الاعتبار ؛ لأنها خلقت للبقاء لا للفناء ؛ كما دلت على ذلك نصوص نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، فإذا كان يوم المعاد ردت إلى أبدانها، فتنعم معها أو تعذب . وهذا هو الحق الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة ؛ قال النبي ﷺ : (إنما نسمة المؤمن طير يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه)[٢٧٧]؛ قال ابن عبد البر : النسمة ههنا الروح ، يدلك على ذلك قوله ﷺ في الحديث نفسه حتى يرجعه الله إلى جسده يوم القيامة ... وقوله : تعلق في شجر الجنة يروى بفتح اللام ، وهو الأكثر ، ويروى بضم اللام ، والمعنى واحد ، وهو الأكل والرعي ، يقول : تأكل من ثمار الجنة ، وترعى وتسرح بين أشجارها[٢٧٨]. ولا يعارض خلود الروح قول الله تعالى : (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله) الزمر ٦٨؛ لأنه إما أن يقال إن الصعق لا يستلزم الموت ؛ كما في قول النبي ﷺ : (الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور)[٢٧٩]، وإما أن يقال إنها تدل على موت كل من لم يذق الموت من الخلق ، وأما من ذاق الموت فلا تدل على أنه يموت موتة ثانية ؛ لقوله تعالى : (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) الدخان : ٥٦، فلو ماتوا عند صعقة النفخ لكانوا قد ذاقوا موتتين لا موتة واحدة ، وحينئذ تكون الأرواح مما استثنى الله تعالى من الموت عند النفخ في الصور ، كما استثني غيرها مما لم يكتب عليه الفناء ؛ كالحور والولدان وغيرهم . وخالف في خلود الروح كل من ذهب إلى أن الروح ليست قائمة بنفسها ، تساكن البدن وتفارقه ، وتتصل به وتنفصل عنه ، وإنما هي قوة من

---

(٢٧٧) موطأ الإمام مالك ، كتاب الجنائز ، ح (٦٤٣). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح (٢٣٧٣).

(٢٧٨) التمهيد ، ٥٨/١١ ، ٥٩.

(٢٧٩) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، ح (٣٣٩٨).

قوى البدن ، وعرض من أعراضه. وهؤلاء قسمان ؛ أحدهما : من أنكر معاد الأبدان ، والثاني : من قال بمعادها ، وأن الله إذا أعاد قوى البدن وأعراضه أعاد الروح من جملتها . وهذا لا يعني أنهم ينكرون عذاب القبر ونعيمه ؛ لأنهم يثبتونه على نحو يرونه مطردا على أصلهم ؛ فيقولون بخلق الحياة في عجب الذنب ، أو في جزء من أجزاء البدن لينعم أو يعذب . وهي دعوى بلا دليل ، لأن النصوص إنما دلت على أن عجب الذنب لا يأكله التراب ، وأن منه ابتداء الخلق والنشأة الثانية ، وليس فيها دلالة على رد الحياة إلى عجب الذنب وحده ، أو إلى أقل جزء من البدن ليعذب أو ينعم[٢٨٠].

مصير الروح

اختلف الناس في مصير الأرواح بعد الموت على أقوال كثيرة :-

١- أن أرواح المؤمنين في الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين ؛ لقول النبي ﷺ : (إنما نسمة المؤمن طير يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه)[٢٨١]، وقوله : (أرواحهم ـ يعني الشهداء ـ في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت)[٢٨٢]، وتخصيص الشهداء بالذكر للدلالة على أن نعيمهم في البرزخ أكمل من نعيم غيرهم ، ؛ ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير ؛ ليكون تنعمها بواسطة هذه الأبدان أكمل من تنعيم الأرواح المجردة عنها . ولا يعارض هذا حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا : (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة

---

(٢٨٠) انظر : درء التعارض ، لابن تيمية ، ١٤٨/٢ ، مدارج السالكين ، لابن القيم ، ٣ / ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، كتاب الروح ، لابن القيم ، ٩٧/١-١٠٧ ، شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، شرح النونية ، للهراس ٣٩/١-٤٣ ، الوعد الأخروي ، للمؤلف ، ٢٨١/١ .

(٢٨١) موطأ الإمام مالك ، كتاب الجنائز ، ح (٦٤٣). وإسناده صحيح . انظر : كتاب الروح ٢٦٨/١ ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح (٢٣٧٣).

(٢٨٢) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، ح (١٨٨٧).

والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة)[٢٨٣]، ولا حديث أبي هريرة ﷺ موقوفا : (إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها ... فينطلق به إلى ربه ﷻ ، ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل ، وإن الكافر إذا خرجت روحه ... ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض ؛ فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل)[٢٨٤]؛ أي إلى انقضاء أجل الدنيا[٢٨٥]؛ لأنه مع هذا المنع وذلك العرض تَرِدُ روحه أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها ، وأما المقعد الخاص به والبيت الذي أعد له، فإنه إنما يدخله يوم القيامة ؛ لأن الدخول التام الكامل إنما يكون يوم القيامة، ودخول الأرواح الجنة في البرزخ أمر دون ذلك ؛ ولهذا قال : (إنما نسمة المؤمن طير يعلق في شجر الجنة)[٢٨٦]؛ أي يأكل العلقة من شجرها ، وأما تمام الأكل والشرب واللبس والتمتع فإنما يكون إذا ردت الأرواح إلى أجسادها يوم القيامة.

٢- أن أرواح المؤمنين بفناء الجنة على بابها ، يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها ، عن ابن عباس ﷺ مرفوعا : (الشهداء على بارق ، نهر بباب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا)[٢٨٧]. وهذا القول إن كان المراد به نفي الدخول الكامل فمسلم ، وإن أريد به نفي الدخول مطلقا فلا يسلم ؛ لأن الحديث لا ينافي كونهم في الجنة، لأن نهر بارق من الجنة، ورزقهم يخرج عليهم من الجنة، فهم في الجنة ، وإن لم يدخلوها الدخول التام ، الذي لا يكون إلا يوم القيامة.

٣- الأرواح على أفنية قبورها ، لحديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ خرج إلى

---

(٢٨٣) صحيح مسلم ،كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٦٦).

(٢٨٤) صحيح مسلم ،كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٧٢).

(٢٨٥) انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ، ٢٠٥/١٧.

(٢٨٦) موطأ الإمام مالك ،كتاب الجنائز ، ح (٦٤٣). وإسناده صحيح . انظر :كتاب الروح ٢٦٨/١ ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح (٢٣٧٣).

(٢٨٧) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٣٩٠). وإسناده حسن . انظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح (٣٧٤٢).

المقبرة، فقال : (السلام عليكم دار قوم مؤمنين)[٢٨٨]؛ فالسلام بصيغة الخطاب يدل على أن الأرواح بأفنية القبور . وأصحاب هذا القول إن أرادوا أنها لا تفارق أفنية القبور فهذا مخالف لنصوص الكتاب و السنة ، وإن أرادوا أن لها إشراف على قبورها وهي في مقرها فهذا حق . والسلام على أهل القبور وخطابهم لا يدل على أن أرواحهم على أفنية قبورهم ؛ فالنبي ﷺ روحه في أعلى عليين ، ويرد سلام من سلم عليه عند قبره ؛ لأن شأن الروح غير شأن البدن ، إما لانتقالها في لمح البصر ، وإما لأن المتصل منها بالقبر بمنزلة شعاع الشمس يكون في الأرض وجرم الشمس في السماء .

٤- أرواح المؤمنين عند الله ﷻ ، ولم يزيدوا على ذلك ؛ لقول الله تعالى : (بل أحياء عند ربهم يرزقون) آل عمران : ١٦٩، وقول النبي ﷺ : (الميت تحضره الملائكة ؛ فإذا كان رجلا صالحا قالوا : أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، أخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء ... حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ)[٢٨٩]، وقال ابن عمر رضي الله عنهما : إن الجثة ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله[٢٩٠]. وهذا لا ينافي القول بأنهم في الجنة ؛ لأن الجنة عند الله تعالى .

٥- أرواح المؤمنين بالجابية ، وأرواح الكفار ببرهوت . وهذا إن أريد به التشبيه ، وأن أرواح المؤمنين تجتمع في مكان فسيح يشبه الجابية لسعته وطيب هوائه فهذا قريب ، وإن أريد نفس الجابية دون سائر الأرض فهذا لا يعلم إلا بتوقيف ، ولعله مما تلقي عن أهل الكتاب . وهكذا الشأن في بئر برهوت بحضرموت إن أريد التشبيه ، وأن أرواح الكفار في مكان يشبهه في قبحه ووحشته فهذا قريب ، وإن أريد نفس هذه البئر التي بحضرموت فلا دليل على ذلك إلا ما نقله الأصمعي عن رجل من أهل

---

(٢٨٨) صحيح مسلم ، كتاب الطهارة ، ح (٢٤٩).

(٢٨٩) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، ح (٤٢٦٢). وإسناده صحيح . انظر : كتاب الروح ٣١٧/١ ، صحيح ابن ماجه ، للألباني ٤٢٠/٢.

(٢٩٠) المصنف ، لابن أبي شيبة ، ح (٣٢٧٠٥).

برهوت ؛ أنهم يجدون الريح المنتن الفظيع منها ، ثم يمكثون حينا فيأتيهم الخبر بأن عظيما من الكفار مات ، فيرون أن الريح منه[٢٩١]. وهذا رأي مجرد ، ليس مبنيا على نقل ثابت ، فلا يكون حجة.

٦- أرواح المؤمنين تجتمع في الأرض التي قال الله تعالى فيها : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) الأنبياء : ١٠٥. وهذا يعود إلى القول الأول ؛ لأن أكثر المفسرين على أن المراد بالأرض في الآية أرض الجنة.

٧- أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة ، وأرواح الكفار في سجين في الأرض السابعة . ولا ريب أن النصوص دلت على أن الميت إذا خرجت روحه عرج بها إلى السماء ، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة التي فيها الله ﷻ ، ولكن هذا لا يدل على استقرارها هناك دائما، بل يصعد بها إلى هناك للعرض على ربها ﷻ ، فيقضي فيها أمره، ويكتب كتابه من أهل عليين، أو من أهل سجين ، ثم تعود إلى القبر للمسألة، ثم ترجع إلى مقرها ؛ فأرواح المؤمنين في عليين بحسب منازلهم، وأرواح الكفار في سجين بحسب منازلهم.

٨- أرواح المؤمنين ببئر زمزم ، وأرواح الكفار ببئر برهوت . ولا دليل على هذا القول ، وتصوره بعيد ؛ لأن بئر زمزم لا تسع أرواح المؤمنين جميعا ، وهكذا بئر برهوت لاتسع أرواح الكافرين جميعا ، وهو مع ذلك مخالف لما دلت عليه النصوص من أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة ، وأن أرواح الكفار وبعض العصاة تعذب في النار بحسب جرائمهم التي قارفوها .

٩- أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت، وأرواح الكفار في سجين . وكأنهم أرادوا في أرض بين الدنيا والآخرة ؛ لأن الأرواح فارقت الدنيا، ولم تلج الآخرة، بل هي في برزخ بينهما ؛ فأرواح المؤمنين في برزخ واسع فيه الروح والريحان والنعيم، وأرواح الكفار في برزخ ضيق فيه الغم والعذاب ؛ قال تعالى : (ومن وراءهم

---

(٢٩١) فيض القدير ، للمناوي ٤٨٩/٣ .

برزخ إلى يوم يبعثون) المؤمنون : ١٠٠ .

١٠- أرواح المؤمنين عن يمين آدم عليه السلام ، وأرواح الكفار عن يساره ؛ لقول النبي ﷺ في حديث الإسراء والمعراج : (علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال : مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه ؛ فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى)[٢٩٢]. ويشكل على هذا القول ما ثبت من أن أرواح الشهداء في ظل العرش ، والعرش فوق السماء السابعة . ويمكن الجواب عن ذلك بأنه لا يمتنع كونها عن يمين آدم عليه السلام في جهة العلو، كما كانت أرواح الأشقياء عن يساره في جهة السفل ، أو أنها عرضت على النبي ﷺ في سماء الدنيا، وإن كان مستقرها فوق ذلك ، أو أن النبي ﷺ لم يخبر أنه رأى أرواح السعداء جميعا في سماء الدنيا ، بل قال فإذا عن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة. ومعلوم قطعا أن أرواح الأنبياء والشهداء فوق السماء الدنيا بكثير . وقد رأى ابن حزم أن هذا البرزخ ليس هو مستقر الأرواح بعد الموت فحسب ، وإنما هو مستقرها قبل خلق الأجساد ، وبيان ذلك أن الأرواح في رأيه خلقت جملة قبل الأجساد ، وأخذ الله ميثاقها وهي مخلوقة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وقبل أن يدخلها الأجساد ، ثم أقرها في البرزخ الذي ترجع إليه عند الموت ، ثم يبعث منها جملة بعد جملة فينفخها في الأجساد ، فيبلوهم الله في الدنيا كما شاء ، ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذي رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج ، أرواح السعادة عن يمين آدم عليه السلام ، وأرواح الشقاوة عن يساره ، وتعجل أرواح الأنبياء الشهداء إلى الجنة؛ وهذا معنى قوله تعالى : (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم) الواقعة ٨-

(٢٩٢) صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، ح (٣٤٩).

١٢. والصحيح أن البدن أسبق من الروح في الخلق ، فآدم خلق بدنه قبل روحه ، وهكذا الشأن في بنيه ، وقد تقدم ذكر الأدلة على ذلك في مسألة حدوث الروح ، وبيان أن نصوص الميثاق لا دلالة فيها على أسبقية الروح في الخلق .

١١- أن مصير الروح كمصير غيرها من أعراض البدن ؛ فكما أن أعراض البدن تنعدم كلها بموت البدن فكذلك الروح لأنها من جملتها ! وقد تقدم في مسألة حقيقة الروح بيان دلالة النصوص على أن الروح ليست من جملة أعراض البدن ؛ لأنها وصفت فيها بالقبض ، والصعود ، والنزول ، والتوفي ، والإمساك ، والإرسال وغير ذلك من الصفات التي تدل على أنها ذات قائمة بنفسها لا مجرد صفة من صفات البدن ؛ ولهذا لم يذهب إلى إنكار بقاء النفس بعد الموت أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

١٢- أن الروح تنتقل بعد الموت إلى أبدان تناسب صفاتها التي كانت عليها في حياتها ، إما من نوع أبدانها أو من غيرها ، على خلاف بينهم في ذلك[٢٩٣]. وهذا هو القول بالتناسخ الخارج عن أدلة الشرع ، وعن أقوال أهل الإسلام كلها ، ولا يشكل على هذا ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في أرواح الشهداء: (أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت)[٢٩٤]؛ لأن هذا تعويض للشهداء عن أبدانهم التي ذهبت في سبيل الله بأبدان تتنعم بها في البرزخ ، فإذا كان يوم القيامة رد الله أرواحهم إلى أبدانهم التي كانت في الدنيا ، وهذا ليس من التناسخ الباطل الذي يقوله من أنكر المعاد ، لأن الأرواح بزعمهم لا ترجع إلى البدن الأول ، وإنما هي دائمة الانتقال في أجساد غير متناهية .

١٣- أن الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت ؛ فمنها أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى ، وهي أرواح الأنبياء عليهم السلام ، وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم

---

(٢٩٣) انظر : الوعد الأخروي ، للمؤلف ٢٥٧/١.

(٢٩٤) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، ح (١٨٨٧).

النبي ﷺ ليلة الإسراء ، ومنها أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، وهي أرواح بعض الشهداء لا كلهم ؛ لأن منهم من يكون على نهر بارق ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا ، ومنهم من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين أو غلول ، ومن الأرواح من يكون محبوسا على باب الجنة ، أو في القبر ، أو في الأرض ، ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه، وتلقم الحجارة ، فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد ، بل هي متفاوتة ؛ فمنها المرسل والمحبوس ، والعلوي والسفلي . وهذا هو القول الراجح الذي يدل على صحته مجموع السنن والآثار في هذا الباب[٢٩٥].

إدراك الروح المفارقة

رأى بعض أهل العلم أن الروح بعد مفارقة البدن لا ينقطع علمها بما في الدنيا من كل وجه ، وإنما تدرك بعض أمور أهل الدنيا بحسب صلتها بهم ؛ فالنبي ﷺ تعرض عليه أعمال أمته ، وكذلك من مات من المؤمنين تعرض عليه أعمال الأحياء من أقاربه ؛ قال تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) التوبة : ١٠٥ ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا : (حياتي خير لكم، تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم، تعرض علي أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم) [٢٩٦]، قال سعيد بن المسيب : ليس من يوم إلا تعرض فيه على النبي ﷺ أمته غدوة وعشية، فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم، فلذلك يشهد عليهم[٢٩٧]. وعن جابر رضي الله عنه مرفوعا : (إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقربائكم في قبورهم،

---

(٢٩٥) انظر : التمهيد ، لابن عبد البر ، ١١/٥٩-٦٦ ، الفصل ، لابن حزم ، ٤/١٢١-١٢٥ ، الروح ، لابن القيم ، ١/٢٧٤-٣٥١ ، شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ص ٤٠١-٤٠٤ ، أحكام الجنائز ، للألباني ، ص ١٥.

(٢٩٦) مسند البزار ، ح (١٩٢٥) . وهو حديث ضعيف بجميع طرقه . انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ح(٩٧٥) ، موسوعة الفتاوى البازية ، السؤال رقم (١٠٢٧).

(٢٩٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد . نقلا عن فتح الباري ، لابن حجر ٩/٩٩ .

فإن كان خيرا استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم، ألهمهم أن يعملوا بطاعتك)[٢٩٨]، وعن أنس ﷺ مرفوعا : (إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيرا استبشروا به، وإن كان غير ذلك، قالوا : اللهم لا تمتهم، حتى تهديهم كما هديتنا)[٢٩٩]، وعن عدي بن الخيار ﷺ أنه قال : يا بني أذكرك الله ألا تعمل بعدي عملا يمعر وجهي ؛ فإن عمل الأبناء يعرض على الآباء[٣٠٠]، وصح عن عمرو بن دينار أنه قال : ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده[٣٠١]، وصح عن مجاهد أنه قال : إن الرجل ليبشر في قبره بصلاح ولده من بعده[٣٠٢]؛ فهذه الأخبار والآثار ونظائرها تدل على أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى ؛ فإن رأوا حسنا استبشروا ، وإن رأوا غير ذلك قالوا : اللهم راجع به[٣٠٣]. ولا شك أن النصوص دلت على علم النبي ﷺ وعلم من مات من المؤمنين ببعض ما يكون من أهل الدنيا ، ومن ذلك :-

١- علم النبي ﷺ بصلاة المسلمين عليه يوم الجمعة ؛ لقول النبي ﷺ : (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ؛ فأكثروا علي من الصلاة فيه ؛ فإن صلاتكم معروضة علي . قالوا : يا رسول الله ، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ فقال : إن الله ﷻ حرم على الأرض أجساد الأنبياء)[٣٠٤]. وهذا العلم يكون بوساطة الملائكة ، أو بسماع المسلم إذا زائرا ؛ لقول

---

(٢٩٨) مسند الطيالسي ، ح (١٩٠٣). وإسناده ضعيف . انظر : تخريج حكمت بشير لأحاديث تفسير ابن كثير ٣٤٥/٤ .

(٢٩٩) مسند الإمام أحمد ، ح (١٢٦٨٣). وإسناده ضعيف . انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ح (٨٦٣).

(٣٠٠) رواه ابن شاهين في كتاب الجنائز ، كما ذكر ابن حجر : انظر : الإصابة ٣٩٠/٤ .

(٣٠١) كتاب الروح ، لابن القيم ٢٩/١ .

(٣٠٢) كتاب الروح ، لابن القيم ٢٩/١.

(٣٠٣) انظر : كتاب الروح ، لابن القيم ١٤/١-١٧، رسائل ابن رجب ٤٢٥/٢ .

(٣٠٤) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، ح (١٠٤٧). وإسناده صحيح . انظر : الجامع الصغير وزيادته ، ح (٢٢١٢).

النبي ﷺ : (إن لله ملائكة سياحين في الأرض ، يبلغوني من أمتي السلام)[٣٠٥]، وقوله : (ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام)[٣٠٦].

٢- علم الميت بانصراف المشيعين عنه ، لقول النبي ﷺ : (إن الميت إذا وضع في قبره إنه ليسمع خفق نعالهم إذا انصرفوا)[٣٠٧].

٣- العلم بزيارة الأحياء وسلامهم ؛ عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر ؛ فكان قائلهم يقول : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون ، أسأل الله لنا ولكم العافية)[٣٠٨]؛ فشرع النبي ﷺ لأمته السلام على أهل القبور بصيغة الخطاب لأنهم يسمعون الخطاب ويردون السلام . وقد استدل بعض أهل العلم على ذلك بما رواه ابن عبد البر عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا : (ما من أحد مر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام)[٣٠٩]، ولكن في إسناده ضعف وإن صححه بعض أهل العلم ، واحتجوا به[٣١٠].

٤- العلم بتقريع الزائر وتوبيخه ؛ قال تعالى : (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) الأعراف : ٧٨ ، ٧٩ ؛ قال ابن كثير : قال لهم صالح عليه السلام ذلك بعد هلاكهم ؛ تقريعا وتوبيخا وهم يسمعون ذلك[٣١١]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : (أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثا ، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال : يا أبا جهل بن هشام

---

(٣٠٥) سنن النسائي ،كتاب السهو ، ح (١٢٨٢). وإسناده صحيح . سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح(٢٨٥٣).

(٣٠٦) سنن أبي داود ،كتاب المناسك ، ح (٢٠٤١). وإسناده حسن . انظر : الجامع الصغير وزيادته ، ح (٥٦٧٨).

(٣٠٧) صحيح مسلم ،كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٧٠).

(٣٠٨) صحيح مسلم ،كتاب الجنائز ، ح (٩٧٥).

(٣٠٩) الاستذكار ١/١٨٥.

(٣١٠) انظر :كتاب الروح ، لابن القيم ١/٥-٨ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ح (٤٤٩٣).

(٣١١) تفسير ابن كثير ٤/٥٨.

، يا أمية بن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا ؟ فسمع عمر ﷺ قول النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا ؟ قال: والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا)[٣١٢]. وسماع تقريع الزائر يحتمل أن يكون خاصا بخطاب الأنبياء ، ويحتمل أن يكون عاما في كل خطاب ؛ لقول النبي ﷺ : (حيثما مررت بقبر مشرك فبشره بالنار)[٣١٣].

وأما عرض أعمال الأمة على النبي ﷺ ، وعرض أعمال الأحياء على من مات من أقاربهم المؤمنين ففيه نظر ؛ لأن الأصل أن الميت انقطع احساسه ، فلا يسمع ، ولا يدري عن أحوال الدنيا شيئا ، قال الله تعالى : (إنك لا تسمع الموتى) النمل : ٨٠ ، وقال : (وما أنت بمسمع من في القبور) فاطر : ٢٢ ، ولأن النبي ﷺ قال : (يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب أصيحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم)[٣١٤]؛ فدل على أن شهادة النبي ﷺ على أعمال أمته علما ورؤية مقيدة بحال حياته ، وأما بعد وفاته فلا يدري عن أعمالهم ، ولا يدري غيره عنها من باب أولى ، لا آدم عليه السلام[٣١٥]ولا أحد من ذريته ، وأما ما استدلوا به من الأحاديث على عرض الأعمال فهي مع معارضتها لهذا الأصل أحاديث ضعيفة الإسناد لا تقوم بها حجة ، وكذلك الشأن في الآثار فلا حجة فيها على عرض الأعمال على الموتى ، لأنها تعارض النصوص الدالة على انقطاع علم الموتى بحال أهل الدنيا ، ومنها ما هو مع ذلك ضعيف الإسناد ؛ كأثر سعيد بن

---

(٣١٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٧٤).

(٣١٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الجنائز ، ح (١٥٧٣). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٣١٦٥).

(٣١٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٦٢٥).

(٣١٥) روى ابن مردوية عن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعا : (آدم في السماء الدنيا ، تعرض عليه أعمال ذريته) ، وهو حديث منكر . انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ح (١٤٨٥).

المسيب[٣١٦].

تلاقي الأرواح

اختلف أهل العلم في تلاقي أرواح الموتى ؛ فرأى بعضهم أن هذا التلاقي ليس عليه دليل يعتمد عليه ، ورأى آخرون أن أرواح المؤمنين المرسلة[٣١٧]تتلاقى وتتذاكر ما كان منها في الدنيا ، وما يكون من أهل الدنيا ، وتكون كل روح مع من كان على مثل عملها . وهو القول الأظهر ؛ لقول الله تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا) النساء : ٦٩ ؛ وهذه المعية ثابتة في الدنيا والبرزخ والآخرة ، وقوله : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي) الفجر : ٢٧-٢٩ ؛ أي ادخلي في جملتهم وكوني معهم ، وقوله تعالى في الشهداء : (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) آل عمران : ١٧٠ ؛ أي يبشر بعضهم بعضا ، وهذا لا يكون إلا بتلاقيهم ، ولقول النبي ﷺ : (إذا حضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : اخرجي راضية مرضيا عنك ... الحديث ، وفيه فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه ماذا فعل فلان ، ماذا فعل فلان)[٣١٨]، وهذا صريح في التلاقي والسؤال . وقد تواترت المرائي بتلاقيهم ، ومن ذلك أن عبد الله بن المبارك رأى سفيان الثوري في النوم ، فقال : ما فعل الله بك ؟ قال : لقيت محمدا وحزبه[٣١٩]. وهكذا الشأن في أرواح الأحياء والأموات فإنها يمكن أن تتلاقى في

---

(٣١٦) انظر : تفسير ابن كثير ١١٠/٣ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ح (٦٨٣ ، ٩٧٥) ، موسوعة الفتاوى البازية ، السؤال رقم (١٠٢٧).

(٣١٧) هذا القيد لإخراج نوع من أرواح المؤمنين لايؤذن لهم بالتزاور ؛ وهي الأرواح المعذبة أو المحبوسة في دين أو غلول.

(٣١٨) سنن النسائي ، كتاب الجنائز ، ح (١٨٣٣). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٤٩٠) ، وفي معناه حديث أبي أيوب ﷺ موقوفا . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢٧٥٨).

(٣١٩) انظر : كتاب الروح ، لابن القيم ٤٤/١-٥٦ ، فتاوى اللجنة الدائمة بالمملكة ٣٣٠/٣ .

المنام[٣٢٠]؛ لقوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) الزمر : ٤٢ ؛ قال بعض السلف : تقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ، فيمسك الله التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، قال السدي : إلى بقية أجلها[٣٢١]. وهذا اللقاء مجرد علم بأمر معين ، ولا يعني بحال أن الأموات يعلمون بأعمال الأحياء ؛ لأن حديث : (إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك) [٣٢٢] ، صريح في الدلالة على أن النبي ﷺ بعد وفاته لا يدري عن أعمال أمته ، ولا يدري عنها غيره من باب أولى ؛ ولهذا يسألون من لحق بهم من الأحياء عن أحوال أهل الدنيا ؛ كما قال النبي ﷺ : (إذا حضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة ... الحديث ، وفيه : فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه ماذا فعل فلان ، ماذا فعل فلان)[٣٢٣]؛ فلو كانوا يعلمون عنهم ، أو تعرض عليهم أعمالهم لما سألوا عنهم.

حياة الأنبياء في قبورهم

دلت النصوص على أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنهم أحياء في قبورهم يصلون ؛ قال النبي ﷺ : (إن الله عز وجل حرم على الأرض أجساد الأنبياء) [٣٢٤]، وقال : (الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون) [٣٢٥]، وقال : (مررت على موسى ليلة

---

(٣٢٠) هذا هو الطريق الوحيد لاتصال أرواح الأموات بالأحياء ، خلافا لما يدعيه المشعوذون من قدرتهم على تحضير أرواح من يشاؤون من الأموات . وهي شعوذة قائمة على الاستعانة بالشياطين المقترنة بالأموات ؛ فتخبرهم بما تعلمه من حال الميت في حياته . انظر : مجموع فتاوى ابن باز ٣/٣١٠-٣١٧ .

(٣٢١) تفسير ابن كثير ٦/٤٥٥ ، وانظر : كتاب الروح ١/٥٦-٩٦.

(٣٢٢) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٦٢٥).

(٣٢٣) سنن النسائي ، كتاب الجنائز ، ح (١٨٣٣). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٤٩٠).

(٣٢٤) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، ح (١٠٤٧). وإسناده صحيح . انظر : الجامع الصغير وزيادته ، ح (٢٢١٢).

(٣٢٥) مسند البزار ، ح (٦٨٨٨) ، وإسناده قوي . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٦٢١).

أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره)[٣٢٦]، ويتعلق بحياتهم في قبورهم أربع مسائل مهمة :-

الأولى : حياة الأنبياء في قبورهم ليست حياة حقيقية ؛ إذ لو كانت كذلك لاقتضت جميع لوازمها ، وإنما هي حياة برزخية أكمل من حياة الشهداء بكثير ، وصلاتهم فيها بحكم التشريف لا بحكم التكليف ، ولا يعلم حقيقة حياتهم وصلاتهم إلا الله سبحانه وتعالى ؛ فيجب الإيمان بذلك كله دون أن يُشبَّه بالحياة المعهودة في الدنيا ، خلافا لمن ادعى أنها حياة حقيقية ، وأثبت لها خصائص الحياة الحقيقية من نطق وأكل وشرب وغير ذلك ؛ يقول السيوطي : (النبي ﷺ حي بجسده وروحه ، ويتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض وفي الملكوت ، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته ، لم يتبدل منه شيء ، وهو مغيب عن الأبصار كما غيبت الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم ، فإذا أراد الله تعالى رفع الحجاب عمن أراد إكرامه برؤيته رآه على هيئته التي هو عليها)[٣٢٧]. وقد جنح إلى القول بحياة النبي ﷺ في قبره حياة حقيقية متأخرو المتكلمين ؛ فرارا من قول متقدميهم : إن النبي ﷺ بعد موته ليس نبيا ؛ بناء على أن الروح عرض من أعراض البدن ؛ فكما أن أعراض البدن تنعدم كلها بموت البدن فكذلك الروح والنبوة ؛ لأنها من جملة أعراض البدن ! والقولان كلاهما مخالفان لدلالة النصوص ؛ فقول متقدميهم مخالف لكل دليل يدل على أن الروح ذات قائمة بنفسها لا مجرد صفة من صفات البدن[٣٢٨]، وقول متأخريهم يخالف قول الله تعالى : (إنك ميت وإنهم ميتون) الزمر: ٣٠ ، وقول النبي ﷺ : (ألا أيها الناس فإنما أنا بشر ، يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب)[٣٢٩]، وقوله : (ما من أحد يسلم علي إلا رد

---

(٣٢٦) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، ح (٢٣٧٥).

(٣٢٧) نقلا عن روح المعاني ، للآلوسي ، ٣٦/٢٢ ، ٣٧ (بتصرف يسير) .

(٣٢٨) تقدم ذكر بعضها في مسألة حقيقة الروح .

(٣٢٩) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، ح (٢٤٠٨).

الله علي روحي حتى أرد عليه السلام)[٣٣٠]، وهذا من أصرح الأدلة على انتفاء الحياة الحقيقة ، وإلا لما كان لرد روحه الشريفة معنى كلما سلم عليه مسلم ؛ وقد حاول القائلون بالحياة الحقيقية دفع دلالته بغرائب التأويل التي تبطلها دلالة النصوص الصريحة على وفاته ، وإجماعُ الصحابة ﷺ على ذلك ؛ قال أبوبكر ﷺ في خطبته المشهورة : من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ! وكان ذلك بمحضر الصحابة ، ولم يقل أحد منهم بخلاف ذلك ، ولم يعرف عن أحد منهم بعد ذلك أنه لقي النبي ﷺ يقظة ؛ مع علو منزلتهم ، وحاجتهم لذلك فيما وقع لهم من مسائل دينية وأمور دنيوية.

الثانية : لا يشكل على حياة الأنبياء في قبورهم رؤية النبي ﷺ لبعضهم في السماء ؛ لأنه إنما رأى في السماء أرواحهم لا أشخاصهم ، إلا عيسى عليه السلام فإنه رفع بجسده إلى السماء[٣٣١]. وذهب بعض السلف إلى أن جميع النبيين لا يتركون بعد موتهم في الأرض أكثر من أربعين يوما، ثم ترفع أجسادهم إلى السماء ؛ لحديث : (ما مكث نبي في قبره من الأرض أكثر من أربعين ليلة حتى يرفع)[٣٣٢]؛ فعلى هذا القول يكون المرئي في السماء أشخاصهم لا أرواحهم فحسب . وهذا الحديث وإن كان قوي الإسناد إلا أنه موقوف على سعيد بن المسيب ، ويعارضه ما رواه أوس بن أوس ﷺ مرفوعا : (إن الله عز وجل حرم على الأرض أجساد الأنبياء)[٣٣٣]؛ فصرح بأن من خصوصيات الأنبياء أن الأرض لا تبلي أجسادهم ، وهذه الخصوصية تنتفي على القول برفع أجسادهم من قبورهم ، وهو كذلك يعارض خصوصية عيسى عليه السلام ؛ وأنه حي في السماء بروحه وجسده . وأما ما ورد مرفوعا في رد أرواحهم بعد أربعين ليلة

---

(٣٣٠) سنن أبي داود ،كتاب المناسك ، ح (٢٠٤١). وإسناده جيد . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢٢٦٦) .

(٣٣١) ألحق بعض أهل العلم بعيسى عليه السلام في هذا الحكم إدريس وإلياس عليهما السلام . انظر : مجموع الفتاوى ، لابن تيمية ٥٢٦/٥ ، ٥٢٧ ، هداية الحيارى ، لابن القيم ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

(٣٣٢) حياة الأنبياء في قبورهم ، للبيهقي ، ح (٥).

(٣٣٣) سنن أبي داود ،كتاب الصلاة ، ح (١٠٤٧). وإسناده صحيح . انظر : الجامع الصغير وزيادته ، ح (٢٢١٢).

؛ كحديث : (ما من نبي يموت فيقيم في قبره إلا أربعين صباحا حتى ترد إليه روحه) ، وحديث : (إن الأنبياء لا يتركون في قبورهم بعد أربعين ليلة) ؛ فلا حجة فيهما ؛ لأنهما حديثان موضوعان[٣٣٤]، وهما مع ذلك يعارضان قول النبي ﷺ : (ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام)[٣٣٥]؛ ووجه المعارضة أن هذا الحديث الثابت يدل على أن روح سيد المرسلين ﷺ ليست مستقرة في جسده الشريف، بل هي ترد إليه ليرد سلام المسلمين عليه ، والحديثان الموضوعان يدلان على أن روح كل نبي ترد إليه بعد أربعين صباحا من وفاته ردا مستقرا !

الثالثة : قد يستشكل قول النبي ﷺ : (إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا)[٣٣٦]، ويظن أن في الحديث دلالة على أن الأرض أبلت جسد يوسف عليه السلام ، ولم يبق منه إلا العظام ! وهذا الظن يبطله أمران ؛ أحدهما : عموم قول النبي ﷺ : (إن الله عز وجل حرم على الأرض أجساد الأنبياء)[٣٣٧]. والثاني : أن العرب يطلقون العظام ويريدون بذلك البدن كله ؛ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما بدن قال له تميم الداري : (ألا أتخذ لك منبرا يا رسول الله يجمع أو يحمل عظامك ؟ قال : بلى)[٣٣٨].

الرابعة : الصلاة في القبور لا تختص بالأنبياء ، لأن أتباعهم من المؤمنين يصلون في قبورهم أيضا ؛ لقول النبي ﷺ : (فيقال له : اجلس، فيجلس وقد مثلت له الشمس

---

(٣٣٤) سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ح (٢٠١ ، ٢٠٢).

(٣٣٥) سنن أبي داود ، كتاب المناسك ، ح (٢٠٤١) . وإسناده جيد . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢٢٦٦) .

(٣٣٦) مسند أبي يعلى ، ح (٧٢٥٤) . وإسناده صحيح على شرط مسلم . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٣١٣).

(٣٣٧) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، ح (١٠٤٧). وإسناده صحيح . انظر : الجامع الصغير وزيادته ، ح (٢٢١٢).

(٣٣٨) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، ح (٤٥٥) . وإسناده جيد على شرط مسلم . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ٥٦٠/١ .

وقد أدنيت للغروب، فيقال له: أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقولون: إنك ستفعل)[٣٣٩]؛ قال الألباني : هذا الحديث صريح في أن المؤمن أيضا يصلي في قبره[٣٤٠]. والصلاة في القبر ليست تكليفا وإنما هي إكرام وتشريف ؛ ولهذا كان ثابت البناني يقول : اللهم إن كنت أعطيت أحدا الصلاة في قبره، فأعطني الصلاة في قبري ، فيقال : إن هذه الدعوة استجيبت له، وإنه رئي بعد موته يصلي في قبره[٣٤١]. وأما تحريم الأرض على الأجساد فالأصل في غير الأنبياء بلى أجسادهم ؛ لقول النبي ﷺ : (كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب)[٣٤٢]. وقد يستثنى من هذا الأصل العلية من الشهداء والصالحين ؛ فقد شوهد عدد منهم بعد موتهم بمدد طويلة وأجسادهم كما هي ، لم يأكلها التراب ؛ عن جابر رضي الله عنه قال : لما أجرى معاوية رضي الله عنه العين عند قتلى أحد بعد أربعين سنة استصرخنا إليهم فأتيناهم فأخرجناهم ، فأصابت المسحاة قدم حمزة فانبعث دما ، وفي رواية : فأخرجناهم كأنما دفنوا بالأمس ، ويقال : إنه فاح من قبورهم مثل ريح المسك ، وذلك بعد ست وأربعين سنة من يوم دفنوا[٣٤٣]. وفي سنة (٢٧٦ هـ) انفرج تل بنهر في البصرة عن سبعة أقبر في مثل الحوض، وفيها سبعة أبدان صحيحة أجسادهم وأكفانهم يفوح منهم ريح المسك، أحدهم شاب وله جمة وعلى شفته بلل كأنه قد شرب ماء الآن، وكأن عينيه مكحلتان وبه ضربة في خاصرته، وأراد أحدهم أن يأخذ من شعره شيئا فإذا هو قوي الشعر

---

(٣٣٩) صحيح ابن حبان ، ح (٥٠٥٨) ، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي ، ورأى الألباني أنه حسن فقط ؛ لأنه فيه محمد بن عمرو ، ولم يحتج به مسلم ، وإنما روى له مقرونا أو متابعة . انظر : أحكام الجنائز ، ص ٢١٣.

(٣٤٠) أحكام الجنائز ، ص ٢١٣ .

(٣٤١) سير أعلام النبلاء ٢٢٢/٥ .

(٣٤٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٥٥).

(٣٤٣) البداية والنهاية ، لابن كثير ، ٤٣/٤ . وانظر : التمهيد ، لابن عبد البر ، ١٧٣/١٨ ، ١٧٤ .

كأنه حي ، فتركوا على حالهم[٣٤٤]. وفي سنة (٣٠٤هـ) ورد كتاب من خراسان بأنهم وجدوا قبور شهداء قتلوا في سنة سبعين من الهجرة ، مكتوبة أسماؤهم في رقاع مربوطة بآذانهم ، وأجسادهم طرية كما هي[٣٤٥]. وقال أبو الحسن بن الزاغوني : كشف قبر أحمد حين دفن الشريف أبو جعفر بن أبي موسى إلى جانبه فوجد كفنه صحيحا لم يبل ، وجنبه لم يتغير ، وذلك بعد موته بمائتين وثلاثين سنة[٣٤٦]. وورد في حامل القرآن أن الأرض لا تأكله ؛ عن جابر ﷺ مرفوعا : (إذا مات حامل القرآن أوحى الله إلى الأرض أن لا تأكلي لحمه ، قالت : إلهي كيف آكل لحمه وكلامك في جوفه) [٣٤٧]، وفي ثبوت هذه الخاصية لحامل القرآن نظر ؛ لأن الحديث تفرد أحمد بن يعقوب البلخي به عن سفيان ، قال الذهبي : أحمد بن يعقوب البلخي عن سفيان وغيره أتى بمناكير وعجائب[٣٤٨].

****

(٣٤٤) البداية والنهاية ، لابن كثير ، ٥٦/١١ .

(٣٤٥) المرجع السابق ، ١٢٦/١١ .

(٣٤٦) التمهيد ، لابن عبد البر ، ١٧٣/١٨ ، ١٧٤ .

(٣٤٧) زهر الفردوس ، لابن حجر ، ح (٤٠٥) .

(٣٤٨) ميزان الاعتدال ١٦٥/١ . وانظر في حياة الأنبياء والصالحين في قبورهم : طبقات الحنابلة ٣٠٣/٢ ، اجتماع الجيوش الإسلامية ، لابن القيم ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، فتح الباري ، لابن رجب ١١٣/٢ ، ١١٤ ، روح المعاني ، لمحمود الآلوسي ٣٨/٢٢ ، ٣٩ ، جلاء العينين ، لنعمان الآلوسي ، ص ٥٢٨-٥٣١ ، شرح النونية ، للهراس ٤/٢-٢٣ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني ، ٥٦٠/١ ، ١٩٠/٢ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة ، للألباني ٢٣٥/١-٢٤٠.

المبحث الثالث

عذاب القبر ونعيمه

ثبوت العذاب والنعيم في القبر .

أدلة عذاب القبر ونعيمه متواترة ؛ ولهذا أطبق أهل السنة والجماعة على الإيمان به ، واعتقاد أنه حق لا ريب فيه ؛ قال الإمام أحمد : عذاب القبر حق ، لا ينكره إلا ضال مضل[٣٤٩]. وأنكر الزنادقة وبعض أهل البدع من المعتزلة والجهمية عذاب القبر أصلا ، وأثبته آخرون من المعتزلة على وجه لا يوافق الحق ؛ فأنكروا أولا تسمية الملكين بمنكر ونكير ، وقالوا : إن عذاب القبر خاص بأصحاب الخلود في النار[٣٥٠]، ومنهم من قال إنه إنما يكون بين النفختين ، أو قال : بأن الله سبحانه يعذب الموتى في قبورهم، وهم لا يشعرون ، فإذا حشروا أحسوا بألم العذاب ؛ وذلك كالسكران والمغمى عليه، لو ضرب لم يجد الألم ، فإذا عاد إليه العقل أحس بألم الضرب . ولمنكري عذاب القبر ونعيمه عدة شبهات ، منها :-

١- أنه يخالف الحس ؛ وذلك أنا نرى المصلوب مدة طويلة، لا يسأل ولا يجيب، ولا يتحرك، ولا يتوقد جسمه نارا ، ونكشف القبر، فلا نجد فيه ملائكة يعذبون الموتى ، ولا نجد حيات ولا ثعابين ولا نيرانا تأجج ، ولو وضعنا على عين الميت الزئبق ، وعلى صدره الخردل ثم كشفنا عنه لوجدناه على حاله لم يتغير ، ولوجدنا مساحة القبر كما هي لم تفسح أو تضيق.

٢- أنه يخالف العقل ؛ إذ لا يمكن أن يتسع القبر على ضيقه للميت ، والملائكة ، وصورة العمل التي تؤنس الميت أو توحشه ، وكذلك لا يعقل فيمن احترق أو غرق أو افترسته السباع ، لتعذر تصور السؤال والعذاب فيمن تفرقت أجزاؤه في بطون

---

(٣٤٩) طبقات الحنابلة ، ص ١٧٤ ، وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٦٢/٤.

(٣٥٠) يقصدون بذلك الكافر والفاسق ؛ بناء على أصلهم في خلود صاحب الكبيرة في النار .

السباع والحيتان ومدارج الرياح . وزعم من أُشْرِب هذه الشبهات من أهل البدع أن كل ما ورد من الأحاديث في إثبات عذاب القبر ونعيمه مقطوع بخطأ ناقليه ؛ لمخالفته الحس والعقل[٣٥١]. والجواب عن شبهاتهم من وجوه :

١- أن الأحاديث الواردة في إثبات عذاب القبر ونعيمة لا يتطرق إليها احتمال الخطأ ؛ لأنها متواترة مقطوع بثبوتها ؛ عن ابن عباس ﷺ قال : (مر النبي ﷺ بقبرين ، فقال : إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)[٣٥٢]، وعن زيد بن ثابت ﷺ مرفوعا : (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، فلولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه)[٣٥٣]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع ؛ يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال)[٣٥٤].

٢- أن أدلة عذاب القبر ليست قاصرة على السنة كما توهموا ، فقد ذُكر في عدة آيات من القرآن الكريم ؛ قال تعالى : (فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) غافر : ٤٥ ، ٤٦؛ قال ابن القيم : ذكر عذاب الدارين ذكرا صريحا لا يحتمل غيره[٣٥٥]، وقال ابن كثير : هذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على

---

(٣٥١) انظر : طبقات الحنابلة ، ص ٣٢ ، ٣٤ ، كتاب الروح ، لابن القيم ، ١/١٦٧-١٦٩، ١٨١ ، ١٨٢ .

(٣٥٢) صحيح البخاري ، كتاب الوضوء ، ح (٢١٨). وقد اختلف أهل العلم في هذين الرجلين ؛ هل كانا كافرين أو مسلمين ؛ والأظهر أنهما كانا مسلمين ؛ لأن الشرك أكبر الكبائر ، والنبي ﷺ نص على أنهما ما يعذبان في كبير ، ونفى عنهما التعذيب بغير السببين المذكورين في الحديث . واستدل ابن حجر بمجموع طرق الحديث على أنهما كانا مسلمين ؛ كرواية : (مر بقبرين جديدين) ، ورواية : (من دفنتم اليوم ههنا) . انظر : كتاب الروح لابن القيم ١/١٧٨-١٨١ ، فتح الباري ، لابن حجر ، ١/٣٢١ .

(٣٥٣) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٦٧).

(٣٥٤) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، ح (٥٨٨).

(٣٥٥) كتاب الروح ، ١/٢١٩.

عذاب البرزخ في القبور[٣٥٦]، وقال تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) الأنعام : ٩٣؛ قال ابن القيم : هذا خطاب لهم عند الموت قطعا ، وقد أخبرت الملائكة – وهم الصادقون – أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم : اليوم تجزون[٣٥٧]. وقال تعالى : (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا) طه : ١٢٤ ؛ والمعيشة الضنك هي عذاب القبر ؛ كما فسرها بذلك النبي ﷺ[٣٥٨]، وقال تعالى : (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) السجدة : ٢١؛ قال ابن القيم : احتج بهذه الآية جماعة من السلف على عذاب القبر ؛ فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين أدنى وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا، فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ؛ ولهذا قال من العذاب الأدنى ولم يقل ولنذيقنهم العذاب الأدنى . وهذا نظير قول النبي ﷺ : وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها[٣٥٩]، ولم يقل فيأتيه حرها وسمومها، فإن الذي وصل

---

(٣٥٦) تفسير ابن كثير ٤٩٧/٦ . وقد أورد ابن كثير على الاستدلال بهذه الآية سؤالا مضمونه أن الآية مكية ، وقد ثبت في السنة أن النبي ﷺ لم يعلم بعذاب القبر إلا في المدينة ، وذكر على ذلك أجوبة أقواها أن الآية إنما دلت على عذاب الكافر في البرزخ ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره ، ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد بسند صحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهي تقول :أشعرت أنكم تفتنون في القبور ؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال : إنما تفتن يهود. قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ : أشعرت أنه أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور . وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر . انظر : مسند الإمام أحمد ، ح (٢٦١٠٥)، تفسير ابن كثير ٤٩٧/٦ ، ٤٩٨ .

(٣٥٧) كتاب الروح ٢١٩/١ .

(٣٥٨) رواه ابن أبي حاتم من طريق أبي هريرة رضي الله عنه، وجود الحافظ ابن كثير إسناده ، وقال السيوطي : رواه البزار بسند جيد . انظر : تفسير ابن كثير ٣١٦/٥ ، الإتقان ، للسيوطي ٢٥٥/٢.

(٣٥٩) سنن أبي داود ، أول كتاب السنة ، ح (٤٧٥٤). والحديث صححه الحاكم وابن القيم والألباني وغيرهم . انظر : أحكام الجنائز وبدعها ، للألباني ، ص ١٥٩.

إليه بعض ذلك، وبقي له أكثر ، والذي ذاقه أعداء الله في الدنيا بعض العذاب الأدنى، وبقي لهم ما هو أعظم منه[٣٦٠].

٣- أن عذاب القبر ونعيمه ليس من جنس عذاب الدنيا ونعيمها ، ولا تجري عليه أحكامها ؛ ولهذا لا يشاهده أهل الدنيا ولا يحسون به ، وأعجب من ذلك أن الرجلين يدفنان، أحدهما إلى جنب الآخر، وهذا في حفرة من حفر النار، لا يصل حرها إلى جاره ، وذلك في روضة من رياض الجنة، لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره ، وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك ؛ يذكر عن عيسى عليه السلام أنه كان واقفا على قبر ومعه الحواريون ؛ فذكروا القبر ووحشته وظلمته وضيقه ؛ فقال عيسى :كنتم في أضيق منه ، في أرحام أمهاتكم ؛ فإذا أحب الله أن يوسع وسع[٣٦١].

٤- أن الحس لا يدرك كثيرا من الأمور المقطوع بثبوتها ؛ فجبريل عليه السلام كان ينزل على النبي ﷺ بالوحي فيكلمه ويدارسه القرآن ومن إلى جواره لا يراه ولا يسمعه ، وكانت الملائكة في غزوة بدر تضرب الكفار بالسياط، وتضرب رقابهم، وتصيح بهم؛ والمسلمون معهم لا يرونهم، ولا يسمعون كلامهم ، والجن يخالطون الإنس ، ويتكلمون ويأكلون ويشربون والإنس لا يرونهم ، ولا يسمعون كلامهم . وهكذا الشأن في عذاب القبر ونعيمه ؛ لأن الله تعالى جعل أمر الآخرة وما كان متصلا بها غيبا، وحجبها عن إدراك المكلفين في هذه الدار ؛ ليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم ؛ ولو كشف لفاتت حكمة التكليف ، ولما تدافن الناس ؛ عن أنس رضي الله عنه مرفوعا : (لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر)[٣٦٢]، وليس معنى هذا أنه لا يمكن الإحساس به بحال ؛ فالبهائم تشعر بعذاب القبر ، ويرى الناس أثر شعورها به ؛ كما

---

(٣٦٠) كتاب الروح ، ١/٢٢٠ ، ٢٢١ (باختصار وتصرف يسير).

(٣٦١) فيض القدير ، للمناوي ٥/٤٤٦ .

(٣٦٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح(٢٨٦٨).

حادت برسول الله ﷺ بغلته، وكادت تلقيه لما مر بأصحاب أقبر ماتوا في الإشراك[٣٦٣]، وربما استطلقت بطون الدواب فزعا مما سمعت من العذاب ؛ قال بعض أهل العلم : ولهذا السبب يذهب الناس بداوبهم إذا مغلت إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين ، فإذا سمعت عذاب القبر أحدث ذلك لها فزعا وحرارة تذهب بالمغل[٣٦٤]. وقد يطلع الله بعض الناس على عذاب القبر ، كما تقع لهم رؤية الملائكة والجن أحيانا ؛ قال ابن عمر رضي الله عنهما : مات أبي بن خلف ببطن رابغ، فإني لأسير ببطن رابغ بعد هوي من الليل، فإذا أنا بنار تأجج، فهبتها، وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبها يهيجه العطش، فإذا رجل يقول : لاتسقه ؛ فإنه قتيل رسول الله ﷺ هذا أبي بن خلف[٣٦٥].

٥- أن الله تعالى أعاد الحياة إلى أبدان فارقتها الأرواح ؛ كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وكالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، فإذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعد ما بردت بالموت، فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يجمع ما تفرق من الأجساد في بطون السباع والحيتان ومدارج الرياح ، ويحييها بعد موتها حياة برزخية حتى تنعم أو تعذب بأعمالها ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه : إذا أنا مت فاحرقوني ، ثم اطحنوني ، ثم ذروني في الريح ؛ فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحد ، فلما مات فعل به ذلك فأمر الله الأرض فقال : اجمعي ما فيك منه ؛ ففعلت فإذا هو قائم ؛ فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : يا رب خشيتك

---

(٣٦٣) انظر : صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٦٧).

(٣٦٤) كتاب الروح ، لابن القيم ، ١٥٢/١ ، ١٥٣ (باختصار) ، وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨٧/٤.

(٣٦٥) البداية والنهاية ، لابن كثير ، ٣٢/٣ . وانظر أمثلة أخرى لرؤية عذاب القبر ونعيمه في شرح أصول اعتقاد السنة ، لهبة الله اللالكائي ، ١١٤١/٦ ، كتاب الروح ، لابن القيم ، ١٩١/١ ، ١٩٤ ، ١٩٥- ٢٠٧ ، البداية والنهاية ، لابن كثير ، ٢١٧/١٣ ، ٣١١ ، سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ٣٥٨/٣ ، ٩٥/٤ ، ٩٦ ، فيض القدير ، للمناوي ، ٣١٠/٤.

، فغفر له)[٣٦٦]؛ قال ابن القيم : عذاب القبر هو عذاب البرزخ ؛ فكل من مات، وهو مستحق للعذاب، ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر ، فلو أكلته السباع، أو أحرق حتى صار رمادا، أو نسف في الهواء، أو صلب، أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور[٣٦٧]، وقال : سمي عذاب القبر ونعيمه باعتبار غالب الخلق ، فالمصلوب والغريق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيه أعماله[٣٦٨].

٦- أن العقول بمجردها لا تدرك تفاصيل البرزخ واليوم الآخر ؛ ولهذا تحار في عذاب القبر ونعيمه ولكنها لا تحيله ؛ لأن الله تعالى أرانا من ذلك أنموذجا في الدنيا ، فما ينعم به النائم أو يعذب يجري على روحه أصلا، والبدن تبع له ، وقد يقوى حتى يؤثر في البدن تأثيرا مشاهدا، فيرى النائم في نومه أنه ضرب، فيصبح، وأثر الضرب في جسمه ، ويرى أنه قد أكل أو شرب، فيستيقظ وقد ذهب عنه الجوع والظمأ ، وأعجب من ذلك أنك تجد النائمين في فراش واحد، وهذا روحه في النعيم، ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه ، وهذا روحه في العذاب، ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه ، وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر ؛ فإذا كانت الروح حال النوم تتألم وتتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع، فهكذا في البرزخ، بل أعظم، فإن تجرد الروح هناك أكمل وأقوى ، وأحكام البرزخ كلها تجري على الأرواح أصلا فتسري إلى أبدانها تبعا.

٧- وأما تسمية الملكين بمنكر ونكير فهو الحق الذي لا يجوز العدول عنه ، ولا صرفه عن ظاهره ؛ لثبوته مرفوعا عن النبي ﷺ ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا :(إذا قبر أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما منكر

---

(٣٦٦) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، ح (٣٤٨١).

(٣٦٧) كتاب الروح ١٦٩/١ .

(٣٦٨) كتاب الروح ٢١٣/١ ، ٢١٤ (باختصار).

والآخر نكير ، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد)[٣٦٩]؛ قيل للإمام أحمد : يا أبا عبد الله، تقر بمنكر ونكير، وما يروى في عذاب القبر؟ فقال : نعم سبحان الله! نقر بذلك، ونقوله. فقيل : هذه اللفظة (منكر ونكير) تقول هذا أو تقول ملكين؟ قال : نقول منكر ونكير[٣٧٠].

متعلق الفتنة والجزاء .

اختلف الناس في متعلق الفتنة والجزاء في القبر على ثلاثة أقوال :-

أحدها : أن فتنة القبر وعذابه ونعيمه تتعلق بالروح والبدن جميعا ؛ فتنعم الروح وتعذب منفردة ومتصلة بالبدن فيكون النعيم والعذاب عليهما معا . وهذا قول أهل السنة والجماعة.

والثاني : أن الفتنة والنعيم والعذاب في القبر لا تكون إلا على الروح وحدها ، والبدن لا ينعم أو يعذب ؛ لأن الروح لا ترجع إليه إلا يوم القيامة . وهذا قول طوائف من أهل الكلام وغيرهم ، واختاره ابن حزم وابن مسرة .

والثالث : أن الروح بمفردها لا تنعم أو تعذب ، لأنها عرض من أعراض البدن ، فلا تبقى بعد فراق البدن ، وهذا قول كثير من المتكلمين . وقد تقدم في مسألة حقيقة الروح ذكر بعض النصوص الدالة على أن الروح ذات قائمة بنفسها ، لا مجرد عرض من أعراض البدن ؛ ولهذا لم يذهب إلى إنكار بقاء الروح بعد الموت أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان . والصحيح من هذه الأقوال الثلاثة هو الأول بلا ريب ؛ لدلالة النصوص على أن الفتنة والجزاء في البرزخ على الروح والبدن معا ، ومنها :-

١- قول النبي ﷺ : (إن للقبر ضغطة ، ولو كان أحد ناجيا منها نجا سعد بن

---

(٣٦٩) السنة ، لابن أبي عاصم ، ح (٨٦٤) . قال الألباني : إسناده حسن . تخريج السنة ٤١٧/٢ .

(٣٧٠) طبقات الحنابلة ٥٥/١ . وانظر : كتاب الروح ، لابن القيم١٨٧/١-١٩٣،٢٠٦-٢١٣ .

معاذ)[٣٧١]؛ ولما احتضر نافع بكى ، فقيل : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت سعدا وضمة القبر[٣٧٢]. وهذه الضغطة لا شك أنها للجسد بواسطة الروح ، وهي ليست من العقوبات وإنما من المصائب العامة التي يكفر الله بها الخطايا ؛ قال الذهبي : هذه الضمة ليست من عذاب القبر في شيء، بل هو أمر يجده المؤمن، كما يجد ألم فقد ولده وحميمه في الدنيا، وكما يجد من ألم مرضه، وألم خروج نفسه، وألم سؤاله في قبره وامتحانه، وألم تأثره ببكاء أهله عليه، وألم قيامه من قبره، وألم الموقف وهوله، وألم الورود على النار، ونحو ذلك، فهذه الأراجيف كلها قد تنال العبد، وما هي من عذاب القبر، ولا من عذاب جهنم قط، ولكن العبد التقي يرفق الله به في بعض ذلك أو كله، ولا راحة للمؤمن دون لقاء ربه[٣٧٣].

٢- قول النبي ﷺ : (رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي، فأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس، ورجل قائم، بيده كلوب من حديد ، يدخل ذلك الكلوب في شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا، فيعود فيصنع مثله . قلت : ما هذا ؟ قالا :انطلق، فانطلقنا، حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر، أو صخرة، فيشدخ به رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه، فلا يرجع إلى هذا، حتى يلتئم رأسه، وعاد رأسه كما هو ... الحديث)[٣٧٤]، وقوله : (لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم

---

(٣٧١) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٤٢٨٣) . قال ابن كثير : سنده على شرط الشيخين ، وقال الألباني : الحديث بمجموع طرقه وشواهده صحيح بلا ريب ؛ فنسأل الله أن يهون علينا ضغطة القبر إنه نعم المجيب . انظر : البداية والنهاية ١٢٨/٤ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ٢٧١/٤ ، ح (١٦٩٥) .

(٣٧٢) سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ٩٩/٥ .

(٣٧٣) المرجع السابق ، ٢٩٠/١ .

(٣٧٤) صحيح البخاري ،كتاب الجنائز ، ح (١٣٨٦).

الناس، ويقعون في أعراضهم)[٣٧٥]؛ فهذان حديثان صريحان في إثبات عذاب الوجه والرأس والصدر وغيرها من آلات البدن .

٣- عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : (دخل النبي ﷺ يوما نخلا لبني النجار، فسمع أصوات رجال من بني النجار ماتوا في الجاهلية يعذبون في قبورهم، فخرج النبي ﷺ فزعا، فأمر أصحابه أن يتعوذوا من عذاب القبر)[٣٧٦]؛ وسماع أصوات العذاب دليل على تعذيب الأجساد .

٤- عن البراء بن عازب ﷺ قال : (خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ... الحديثَ ، وفيه : فتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه ؛ فيقولان له : من ربك ؟ ... الحديث وفيه : ويضيق عليه في قبره حتى تختلف فيه أضلاعه)[٣٧٧]؛ فصرح النبي ﷺ بإعادة الروح للميت وقت سؤال الملكين في القبر ، وإجلاسه ، واختلاف أضلاع الكافر في قبره ؛ فعلم من ذلك أن فتنة القبر وعذابه للروح والبدن معا . وقد أعل ابن حبان هذا الحديث فقال : زادان لم يسمعه من البراء ، وكذلك أعله ابن حزم ؛ لأنه يخالف دلالة النصوص على أن الروح لا ترجع إلى البدن إلا يوم القيامة ، وقال : إن هذا الحديث مما تفرد به المنهال بن عمرو ، وليس بالقوي ، تركه شعبه وغيره ، وسائر الأخبار الثابتة على خلافه ؛ كقوله تعالى : (وما أنت بمسمع من في القبور) فاطر : ٢٢ ، وهي الأجساد بلا شك ، وكذلك أخبر النبي ﷺ ليلة الإسراء أنه رأى أرواح أهل السعادة عن يمين آدم عليه السلام ، وأرواح أهل الشقاء عن

---

(٣٧٥) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، ح (٤٨٧٩). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح ٥٢١٣ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح ٥٣٣ .

(٣٧٦) مسند الإمام أحمد ، ح (١٤١٥٢). إسناده صحيح على شرط مسلم . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح(٣٩٥٤).

(٣٧٧) مسند الإمام أحمد ، ح (١٨٥٣٤). قال ابن القيم : هذا حديث صحيح . انظر : اعلام الموقعين ٣٥٧/١ ، أحكام الجنائز ، للألباني ، ص ١٥٩.

شماله ، ولما خاطب قتلى بدر لم ينكر على الصحابة قولهم : كيف تكلم قوما قد جيفوا، فصح أن الخطاب والسماع للأرواح دون الأجساد التي جيفت ؛ ولهذا قال ابن عمر ﷺ : إن هذه الجثث ليست بشيء ، وإن الأرواح عند الله ، ولو كانت الروح تعود للجسد لكان الله قد أحيانا ثلاثا وأماتنا ثلاثا ، وهو خلاف قوله تعالى : (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) غافر : ١١ ، وخلاف قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت) الزمر : ٤٢؛ فعلم بنص القرآن أن روح من مات ممسكة عند ربها ، لا ترجع إلى جسده قبل يوم القيامة[٣٧٨]. والجواب عن مقالته من وجوه :-

أ- المراد بإعادة الروح للبدن ليس الحياة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن تدبره وتصرفه ويحتاج معها للطعام والشراب واللباس ، وإنما المراد بها إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا ، يحيا بها حياة برزخية ؛ ليسأل و يمتحن .

ب- إعادة الروح للجسد في البرزخ لا تدل على حياة مستقرة ، وإنما تدل على تعلقها بالبدن تعلقا برزخيا يخالف تعلقها بالبدن حال الدنيا ؛ فإن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام ؛ قال ابن القيم : الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام ؛ أحدها : تعلقها به في بطن الأم جنينا. الثاني :تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .الثالث :تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه، ومفارقة من وجه .الرابع :تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقا كليا بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة ؛ ففي الأحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه وقت سلام المسلم، وهذا الرد إعادة خاصة لا توجب حياة البدن قبل يوم القيامة. الخامس :تعلقها به يوم بعث الأجساد. وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه؛ إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه

(٣٧٨) انظر : الفصل ، لابن حزم ٤/ ١١٧-١٢١ ، تهذيب معالم السنن ، لابن القيم ٤/٣٣٧ .

موتا ولا نوما ولا فسادا[٣٧٩].

ج- إمساك الأرواح التي قضى الله عليها بالموت لا ينافي ردها إلى جسد الميت في وقت ما ردا عارضا لا يوجب لها الحياة المعهودة في الدنيا ، وإذا كان النائم روحه في جسده، وهو حي، وحياته غير حياة المستيقظ، فإن النوم شقيق الموت؛ فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحي وبين الميت الذي لم ترد روحه إلى بدنه، كحال النائم المتوسطة بين الحي والميت.

د- وأما رؤية النبي ﷺ للأنبياء ليلة الإسراء فمحل خلاف بين أهل العلم ؛ هل كانت للأجساد أو لمجرد الأرواح ؛ فذهب بعض أهل العلم إلى أن الرؤية كانت لأجساد الأنبياء ؛ لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ؛ ولأن النبي ﷺ لما رآهم وصفهم بصفات الأبدان ؛ فرأى إبراهيم عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور ، ورأى موسى عليه السلام آدم ضربا طوالا كأنه من رجال شنوءة ، ورأى عيسى عليه السلام يقطر رأسه ، كأنما خرج من ديماس. وذهب فريق آخر من أهل العلم إلى أن الرؤية ليلة الإسراء إنما هي لأرواحهم دون أجسادهم ؛ لأن أجسادهم الشريفة في الأرض قطعا ، وإنما تبعث يوم القيامة ، ولو بعثت قبل يوم القيامة لكانت في الجنة ، وهذا غير ممكن الآن ؛ لأن الله حرم الجنة على الأنبياء حتى يدخلها النبي ﷺ ، ومعلوم بالضرورة أن جسد النبي ﷺ طري في قبره ؛ لأن الصحابة لما قالوا : (وكيف تعرض صلاتنا عليك، وقد أرمت؟ فقال : إن الله عز وجل قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام)[٣٨٠]؛ ولو لم يكن جسده الشريف في ضريحه لما أجاب بهذا الجواب ، ولَمَا أخبر أن الله وكل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام. هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلى في أعلى عليين مع أرواح الأنبياء ، ولها مع ذلك اتصال بالبدن في القبر، وتعلق به؛

---

(٣٧٩) كتاب الروح ١/١٢٤ ، ١٢٥.

(٣٨٠) سنن النسائي ، كتاب الجمعة ، ح (١٣٧٤). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، ح(٢٢١٢).

بحيث يرد سلام من سلم عليه، وروحه في الرفيق الأعلى ، ولا تنافي بين الأمرين، فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان ، وليس نزول الروح وصعودها من جنس ما للبدن، فإنها تصعد إلى فوق السموات، ثم تهبط إلى الأرض في زمن يسير ، وقد مثلها بعضهم بالشمس وشعاعها؛ فإنها في السماء، وشعاعها في الأرض . وهو مثال للتقريب ؛ لأن الشمس نفسها لا تنزل من السماء، والشعاع الذي على الأرض ليس هو الشمس ولا صفتها، بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها. والروح نفسها تصعد وتنزل.

هـ- أن قول الله تعالى : (وما أنت بمسمع من في القبور) فاطر : ٢٢ ، لا ينافي رد الروح للبدن ، ولا يدل على نفي سماع الموتى لخطاب الأحياء ؛ لأن الآية إن أريد بها الموت المعنوي ، وهو الكفر والجهل فلا حجة فيها على نفي السماع أصلا ، وإن أريد بها الموت الحسي ، وهو مفارقة الروح للبدن فالمراد منها نفي سماع القبول والإجابة لا نفي سماع الإدراك والفهم ؛ لأن هذا السماع ثابت بأدلة كثيرة ؛ كأدلة سماع قرع نعال المشيعين ، وأدلة السلام على الميت بصيغة الخطاب ، وكالنص على رد روح الميت وقت السلام ؛ قال ابن تيمية : هذه النصوص وأمثالها تبين أن الميت يسمع في الجملة كلام الحي ، ولا يجب أن يكون السمع له دائما ، بل قد يسمع في حال دون حال ، كما قد يعرض للحي ؛ فإنه قد يسمع أحيانا خطاب من يخاطبه ، وقد لا يسمع لعارض يعرض له ، وهذا السمع سمع إدراك ليس يترتب عليه جزاء ولا هو السمع المنفي بقوله : (إنك لا تسمع الموتى) النمل : ٨٠ ؛ فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال[٣٨١].

و- أن حديث البراء بن عازب ﷺ حديث ثابت ، صححه أبو نعيم ، والحاكم ، والذهبي ، وابن القيم ، والألباني ، وغيرهم . وقد أجاب ابن القيم عن قول من أعل الحديث بعدة أمور ؛ **منها** أن العلة التي ذكرها ابن حبان بأن زادان لم يسمعه من

(٣٨١) مجموع الفتاوى ٣٦٤/٢٤.

البراء علة فاسدة ؛ فإن زادان قال : سمعت البراء بن عازب يقول ، ذكره أبو عوانه في صحيحه. **ومنها** أن قول ابن حزم إن المنهال تفرد بالحديث عن زاذان عن البراء ، وهو ليس بالقوي علة فاسدة أيضا ؛ لإن المنهال ثقة صدوق ، وقد رواه عن البراء جماعة غير زادان ، منهم عدي بن ثابت ، ومحمد بن عقبة ، ومجاهد ، **ومنها** أن الزيادة التي أنكرها ابن حزم ، وهي قوله : (فتعاد روحه في جسده) قد روي ما هو نظيرها أو أبلغ ؛ كقوله : فيجلسانه ، وقوله : فيجلس الرجل الصالح في قبره ، وقوله : جاءه ملك بيده مطراق فأقعده ؛ فعلم من ذلك أنها زيادة ثابتة وموافقة لغيرها من النصوص[٣٨٢].

أسباب عذاب القبر وموانعه

المعنى الجامع لأسباب عذاب القبر هو إضاعة أمر الله ، وارتكاب نهيه ، وله أسباب معينة نص عليها بخصوصها لعظم أثرها في حصول عذاب القبر ؛ منها :-

١- ترك الاستبراء من البول ؛ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (أكثر عذاب القبر من البول)[٣٨٣]؛ أي بسبب ترك التحرز منه ، وعن ابن عباس ﷺ قال : (مر رسول الله ﷺ بحائط من حيطان مكة أو المدينة سمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما ؛ فقال رسول الله ﷺ : يعذبان وما يعذبان في كبير ، ثم قال: بلى ؛ كان أحدهما لا يستبرئ من بوله ، وكان الآخر يمشي بالنميمة)[٣٨٤]. وهذه الرواية تفسر رواية لا يستتر ، ورواية لا يستنزه ، وتبين أن المراد بها ترك التحفظ من البول باستتار أو استنزاه

---

(٣٨٢) انظر لابن القيم : كتاب الروح ، ١/١٣٠- ١٦٥ ، تهذيب معالم السنن ٤/٣٣٧ ، اعلام الموقعين ١/٣٥٤-٣٦٠، وانظر أيضا : تفسير ابن كثير ٤/ ٦٧٨ ، أحكام الجنائز ، للألباني ، ص ١٥٩.

(٣٨٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الطهارة ، ح (٣٤٨). وإسناده صحيح . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ١/٣١٨ ، صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، ح (١٢٠٢).

(٣٨٤) سنن النسائي ، كتاب الجنائز ، ح (٢٠٦٨) . وإسناده صحيح . انظر : صحيح سنن النسائي ، للألباني ، ح (١٩٥٥).

؛ أي بمباعدة[٣٨٥]. وفي هذا تنبيه على أن من ترك الوضوء ، أو الصلاة التي الاستبراء من البول بعض واجباتها فهو أشد عذابا ! عن سمرة بن جندب ﷺ عن النبي ﷺ في حديث الرؤيا قال : (أما الذي يثلغ رأسه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفضه ، وينام عن الصلاة المكتوبة)[٣٨٦]، وعن ابن مسعود ﷺ مرفوعا : (أُمِر بعبد من عباد الله أن يضرب في قبره مائة جلدة، فلم يزل يسأل ويدعو حتى صارت جلدة واحدة، فجلد جلدة واحدة ، فامتلأ قبره عليه نارا، فلما ارتفع عنه قال : علام جلدتموني ؟ قالوا : إنك صليت صلاة بغير طهور ، ومررت على مظلوم فلم تنصره)[٣٨٧].

٢- النميمة ، عن ابن عباس ﷺ قال : (مر النبي ﷺ بقبرين فقال : إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ؛ أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)[٣٨٨]، وأكثر الروايات على أن الآخر كان نماما ، ووقع في بعضها أنه كان مغتابا ؛ عن جابر ﷺ مرفوعا : (إنهما لا يعذبان في كبير، وبلى، أما أحدهما فكان يغتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يتأذى من البول)[٣٨٩]، وعن أبي بكرة ﷺ مرفوعا : (إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ، وبلى ... وما يعذبان إلا في البول والغيبة)[٣٩٠]، والظاهر اتحاد القصة ، وأن هذا الرجل جمع بين الغيبة والنميمة كما هو شأن عامة النمامين ، قال تعالى : (هماز مشاء بنميم) القلم : ١١ ؛ فجمع بين الهمز ؛ وهو العيب والاغتياب ، والنم وهو نقل الحديث على وجه الإفساد والإضرار وإيقاع العداوة بين الناس ، وقد وقع التصريح بالجمع بينهما فيما رواه أبو هريرة ﷺ مرفوعا

---

(٣٨٥) انظر : كتاب الروح ، لابن القيم ، ٢٢٤/١ ، فتح الباري ، لابن حجر ٣١٨/١.

(٣٨٦) صحيح البخاري ، باب التهجد ، ح (١١٤٣).

(٣٨٧) شرح مشكل الآثار ، للطحاوي ، ح (٣١٨٥) ، وإسناده جيد . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢٧٧٤).

(٣٨٨) صحيح البخاري ، كتاب الوضوء ، ح (٢١٨).

(٣٨٩) الأدب المفرد ، للبخاري ، ح (٧٣٥) . قال الألباني : صحيح لغيره . انظر : صحيح الأدب المفرد ، ح (٥٦٨).

(٣٩٠) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٠٣٧٣). وإسناده صحيح . انظر : فتح الباري ٣٢١/١ ، ٤٧٠/١٠ .

: (وكان الآخر يؤذي الناس بلسانه ويمشي بينهم بالنميمة)[٣٩١]؛ ولكن لا يشترط اجتماعها لحصول عذاب القبر ؛ لقول النبي ﷺ : (لما عرج بي ربي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم)[٣٩٢]؛ فدل على حصول عذاب البرزخ على الغيبة وإن لم يكن معها نميمة ، فإن انضم لذلك نميمة أو بهتان كان العذاب أعظم[٣٩٣].

٣- الغلول ؛ وهو الخيانة في المغنم ، والسرقة من الغنيمة قبل القسمة[٣٩٤] ؛ عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : (لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا : فلان شهيد. فلان شهيد . حتى مروا على رجل فقالوا : فلان شهيد ؛ فقال رسول الله ﷺ : كلا ؛ إني رأيته في النار في بردة غلها ، أو عباءة)[٣٩٥]، وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال : (كان على ثقل النبي ﷺ رجل يقال له : كركرة ، فمات فقال رسول الله ﷺ : هو في النار ، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها)[٣٩٦]؛ فعلم من ذلك أن الغلول من جملة أسباب عذاب القبر ، مع أن للغال حقا في المغنم ، فكيف بمن أخذ ما لا حق له فيه !

٤- الربا وما ذكر معه من الكبائر في حديث سمرة بن جندب ﷺ مرفوعا : (إنه أتاني الليلة آتيان وإنهما ابتعاثاني ، وإنهما قالا : انطلق ، وإني انطلقت معهما... الحديث ، وفيه : قلت لهما: فإني قد رأيت منذ الليلة عجبا، فما هذا الذي

---

(٣٩١) صحيح ابن حبان ، ح (٦٥٣٠) . صححه الألباني . انظر : صحيح الترغيب والترهيب ، (١٦٣).

(٣٩٢) مسند الإمام أحمد ، ح (١٣٣٤٠). وإسناده صحيح على شرط مسلم . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٥٣٣) ، تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط ورفاقه ٥٣/٢١ .

(٣٩٣) انظر : فتح الباري ٣١٩/١ ، ٤٦٩/١٠-٤٧٤ .

(٣٩٤) انظر : النهاية ، لابن الأثير ، ٣٨٠/٣ ، شرح صحيح مسلم ، للنووي ١٢٨/٢ ، ١٢٩.

(٣٩٥) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١١٤).

(٣٩٦) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، ح (٣٠٧٤).

رأيت؟ قالا لي: أما إنا سنخبرك، أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذي أتيت عليه، يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق، وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني، وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر، فإنه آكل الربا)[٣٩٧]؛ قال ابن القيم : هذا نص في عذاب البرزخ ؛ فإن رؤيا الأنبياء وحي ، مطابق لما في نفس الأمر[٣٩٨]. وذكر هذه الكبائر من باب التنصيص لا التخصيص ؛ ولهذا ذكر ابن القيم أنواعا كثيرة من الجرائم ، ثم قال : كل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم ، بحسب كثرتها وقلتها، وصغرها وكبرها ، ولما كان أكثر الناس كذلك كان أكثر أصحاب القبور معذبين، والفائز منهم قليل ؛ فظواهر القبور تراب، وبواطنها حسرات وعذاب[٣٩٩]. والمعاصي التي جعلها الله بحكمته أسبابا لعذاب القبر كلها من عمل الإنسان وكسبه ؛ لأن الجزاء إنما يترتب على عمل المكلف وآثاره ؛ قال تعالى : (ولا تجزون إلا ماكنتم تعملون) يس : ٥٤ ، وقال : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) الأنعام : ١٦٤ ، وقال : (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) يس : ١٢ ؛ ولهذا استشكل كثير من أهل العلم حديث : (إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه)[٤٠٠] ، واختلفت طرقهم في توجيه الحديث بما يوافق هذا الأصل ؛ وأن الله لا يعذب مكلفا بعمل غيره ؛ فمنهم من أنكر الحديث ، ومنهم من أوله ، ومنهم من بناه على أصله في إنكار التعليل ، ومنهم من أجراه على ظاهره مع اعتبار القيود التي دلت عليها روايات الحديث ؛ وأهم الأقوال في هذه المسألة أربعة:-

---

(٣٩٧) صحيح البخاري ، كتاب التعبير ، ح (٧٠٤٧).

(٣٩٨) كتاب الروح ، ١/١٧١.

(٣٩٩) انظر : كتاب الروح ١/٢٢٣-٢٣١ .

(٤٠٠) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، ح (١٢٨٦).

أحدها : توهيم الراوي ؛ لأن روايته تعارض القرآن ؛ عن عمر ﷺ قال : قال رسول ﷺ : (إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه ، فلما ذكر ذلك لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : يرحم الله عمر ؛ لا والله ما حدث رسول الله : إن الله يعذب المؤمن ببكاء أحد ، ولكن قال : إن الله يزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه ، حسبكم القرآن ، ولا تزر وازرة وزر أخرى)[٤٠١]، وفي رواية عنها لما ذكر لها أن عبد الله بن عمر ﷺ يقول : (إن الميت ليعذب ببكاء الحي ، فقالت : يغفر الله لأبي عبد الرحمن ، أما إنه لم يكذب ، ولكنه نسي أو أخطأ ؛ إنما مر رسول الله على يهودية يبكى عليها ، فقال : إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها)[٤٠٢]، ولم تنفرد أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بإنكار عذاب الميت ببكاء الحي ، بل أنكره معها من الصحابة أبو هريرة ﷺ[٤٠٣]. وطريقتهم في توهيم الراوي مشكلة ؛ لأن الحديث لم ينفرد بروايته صحابي واحد ، بل رواه عمر ، وابنه عبد الله ، وابنته أم المؤمنين حفصة ، وصهيب ، و أبوموسى الأشعري ، وعمران بن حصين ، والمغيرة بن شعبة ﷺ ، ومحال أن يكون هؤلاء كلهم وهموا في الحديث ، وأيضا فالإلزام بمعارضة الآية كما يرد على الرواية التي نفتها أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فإنه يرد على روايتها التي أثبتتها ؛ وهي : إن الله يزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه ؛ لأن الله لا يعذب أحدا بذنب غيره الذي لا تسبب له فيه .

والثاني : أن ذلك ليس عاما في كل ميت ، وإنما هو خاص بمن كان البكاء من آثار عمله ؛ ولهذا قال ابن المبارك : إذا كان ينهاهم في حياته ففعلوا شيئا من ذلك بعد وفاته لم يكن عليه شيء[٤٠٤]. وإنما يعذب إذا كان النوح من عادة أهله ، ولم ينههم عن ذلك ، أو أوصى بأن يناح عليه ، كما فعل كثير من الشعراء ؛ قال أحدهم :

---

(٤٠١) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، ح (٩٢٨). وانظر : صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، ح (١٢٨٨).

(٤٠٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، ح (٣٢).

(٤٠٣) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ١٥٤/٣.

(٤٠٤) نقلا عن فتح الباري ، لابن حجر ، ١٥٣/٣ .

فإن مت فابكيني بما أنا أهله وشقي علي الجيب يا ابنة معبد

وقال آخر :

نوحي علي بحسرةٍ من خلف سترك والحجاب

وعلى هذا القول لا يكون في الحديث معارضة لقوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) الأنعام : ١٦٤؛ لأن الميت لم يعذب بذنب غيره ، وإنما عذب بذنبه فعلا أو إقرارا . وهذا الجواب غير مسلم أيضا ؛ لأن الحديث عام ، والصحابة فهموا حصول العذاب بالنياحة مطلقا ، من غير تقييد بوصية ، أو رضى بعادة أهله .

الثالث : أن الحديث لا يعارض قوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) الأنعام : ١٦٤ ؛ لأنه لا يراد به معاقبة الميت ببكاء الحي ، بل تأذيه وتألمه ببكائه ، كما يتألم بمن يعاقب في قبره بجواره ، ولهذا قيل : يعذب ولم يقل يعاقب ، والعذاب يقال في مطلق الأذى ، كما في قول النبي ﷺ : (السفر قطعة من العذاب)[٤٠٥]. وهذا الجواب ترده الأحاديث التي فسرت عذاب الميت ببكاء أهله باللهز والتعتعة ، لا بمجرد التألم ببكاء الحي ؛كما في قول النبي ﷺ : (ما من ميت يموت فيقوم باكيه فيقول : واجبلاه ، واسيداه أو نحو ذلك إلا وكل به ملكان يلهزانه أهكذا كنت)[٤٠٦]، وقوله : (الميت يعذب ببكاء الحي ، إذا قالوا : واعضداه ، واكاسياه ، واناصراه ، ونحو هذا ، يتعتع ، ويقال : أنت كذلك ، أنت كذلك)[٤٠٧]؛ واللهز هو الضرب والدفع ، والتعتعة هي التل العنيف[٤٠٨]؛ قال ابن حجر : هذا التأويل يضمحل عند الأحاديث المتقدمة المصرحة بالمراد ؛ فأولى ما فسر الحديث بالحديث[٤٠٩].

الرابع : أن الحديث على ظاهره ، وهو ظاهر المنقول عن عمر ، وابنه عبد الله ،

(٤٠٥) صحيح البخاري ، أبواب العمرة ، ح (١٨٠٤).

(٤٠٦) جامع الترمذي ، أبواب الجنائز ، ح (١٠٠٣). إسناده حسن . صحيح الجامع الصغير ، ح (٥٧٨٨).

(٤٠٧) سنن ابن ماجه ، كتاب الجنائز ، ح (١٥٩٤). وإسناده حسن . صحيح الجامع الصغير ، ح (٦٧٤٠).

(٤٠٨) انظر : النهاية ، لابن الأثير ٢٨١/٤ ، لسان العرب ، لابن منظور ٣٥/٨ .

(٤٠٩) فتح الباري ٣ / ٢٩٨ (بتصرف).

والمغيرة بن شعبة ﷺ ، وعلى هذا القول يكون الجمع بين الآية والحديث بأحد وجهين:-

١- أن الآية عامة والحديث خاص ، فيكون البكاء على الميت مستثنى من رفع مؤاخذة العبد بذنب غيره ، والاستثناء من قواعد الشريعة الكلية ، وليس خاصا بهذه المسألة ، فقد وقع في مسائل أخرى ؛ كاستثناء الشفاعة في أبي طالب من عموم قوله تعالى : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) المدثر : ٤٨، عن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال : (قلت يا رسول الله ، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؛ قال : نعم ، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح)[٤١٠].

٢- التفرقة بين حال البرزخ وحال يوم القيامة، فيحمل قوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) الأنعام : ١٦٤ ونظائره على يوم القيامة، وهذا الحديث وما أشبهه على البرزخ ؛ ويؤيد ذلك مؤاخذة العبد بذنب غيره في الدنيا، كما قال تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) الأنفال : ٢٥؛ فكذلك يمكن أن يكون الحال في البرزخ بخلاف يوم القيامة . وهو جواب جيد إلا انه يشكل عليه حديث المغيرة ﷺ مرفوعا : (من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة)[٤١١]، إلا إذا قيل : إن لفظ القيامة في الحديث من توسع الرواة في إطلاق القيامة على البرزخ .

والقول بأن الميت يعذب ببكاء أهله ليس على إطلاقه وإنما هو مقيد ببعض البكاء ؛ لحديث عمر ﷺ مرفوعا : (إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه)[٤١٢]؛ أي بعض البكاء لا جميعه ، وهو النوح خاصة ، لقول النبي ﷺ: (الميت يعذب في قبره بما نيح عليه)[٤١٣]، وقوله : (من نيح عليه يعذب بما نيح عليه)[٤١٤]، وقوله : (المعول عليه

---

(٤١٠) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (٢٠٩).

(٤١١) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، ح (٩٣٣).

(٤١٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، ح (١٢٨٧).

(٤١٣) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، ح (١٢٩٢).

(٤١٤) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، ح (١٢٩١)

يعذب)[٤١٥]. قال أبو مسعود الأنصاري ﷺ : (رخص لنا في البكاء من غير نوح)[٤١٦]؛ والنوح هو ما كان من البكاء بصياح وعويل ، وما يلتحق بذلك من لطم الخدود وشق الجيوب وغير ذلك من المنهيات ؛ ولهذا قال عمر ﷺ : (دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة)[٤١٧]؛ والنقع هو وضع التراب على الرأس ، واللقلقة رفع الصوت بالبكاء والنياحة[٤١٨]. قال النووي : أجمعوا كلهم على اختلاف مذاهبهم أن المراد بالبكاء هنا البكاء بصوت ونياحة لا مجرد دمع العين[٤١٩]، ومستند هذا الإجماع أحاديث كثيرة ؛ منها حديث أسامة بن زيد ﷺ قال : (أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه : إن ابنا لي قبض ... الحديث ، وفيه فرفع إلى رسول الله الصبي ونفسه تقعقع كأنها شن ، ففاضت عيناه ؛ فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله ما هذا ؟ فقال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)[٤٢٠]، وحديث ابن عمر ﷺ قال : (اشتكى سعد بن عبادة شكوى له ، فأتى رسول الله ﷺ يعوده ، مع عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود . فلما دخل عليه وجده في غشية ، فقال : أقد قضى ؟ قالوا : لا يا رسول الله! فبكى رسول الله ﷺ ، فلما رأى القوم بكاء رسول الله ﷺ بكوا ، فقال : ألا تسمعون ؛ إن الله لا يعذب بدمع العين ، ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا – وأشار إلى لسانه – أو يرحم)[٤٢١]، وحديث أنس ﷺ قال : (شهدنا بنتا لرسول الله ﷺ ، ورسول الله

---

(٤١٥) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، ح (٩٢٧) . قال النووي : يقال عول عليه ، وأعول ، لغتان ؛ وهو البكاء بصوت. شرح صحيح مسلم ، ٦/٢٣١ .

(٤١٦) فتح الباري ٣/١٥٣ .

(٤١٧) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما يكره من النياحة على الميت .

(٤١٨) انظر : فتح الباري ٣/١٦١ .

(٤١٩) شرح صحيح مسلم ٦/٢٢٩.

(٤٢٠) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، ح (١٢٨٤).

(٤٢١) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، ح (٩٢٤).

جالس على القبر ؛ فرأيت عينيه تدمعان)[٤٢٢]؛ فعلم من كل ذلك أن البكاء الذي لا تكلف معه ولا نياحه جائز قبل الموت وبعده ، وأما حديث : (فإذا وجب[٤٢٣] فلا تبكين باكية)[٤٢٤]؛ فإما أن يحمل على الأولوية، وإما أن يحمل على ما جرت به العادة من رفع الصوت والنوح عند الموت ، وهو الأظهر ؛ لأنه المعروف عندهم والمتبادر من إطلاق لفظ البكاء ؛ قال ابن القيم : البكاء على الميت عندهم اسم للبكاء الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه ، وهو معروف في نظمهم ونثرهم[٤٢٥].

وأما الموانع من عذاب القبر فهي على سبيل الإجمال المحافظة على فعل أوامر الشرع واجتناب نواهيه ، وأما على سبيل التفصيل فقد نص على طاعات ومصائب معينة تمنع من فتنة القبر وعذابه ؛ منها :-

١- الموت مرابطا ؛ لقول النبي ﷺ : (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جري عليه عمله الذي كان يعمله ، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان)[٤٢٦]، وفي رواية : (ومن مات فيه وقي فتنة القبر)[٤٢٧]؛ فموت العبد مرابطا كاف في الشهادة على صدق إيمانه ؛ ولهذا يأمن من فتاني القبر ؛ وهما منكر ونكير ؛ فلا يأتيانه ولا يختبرانه[٤٢٨].

---

(٤٢٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، ح (١٢٨٥)

(٤٢٣) أي سقط ومات . انظر : مختار الصحاح ، للرازي ، ص ٧٠٩ .

(٤٢٤) سنن أبي داود ، كتاب الجنائز ، ح (٣١١١). وإسناده صحيح . انظر : صحيح سنن أبي داود ، ح (٢٧٢٣).

(٤٢٥) عدة الصابرين ، ص ٢٠٤ (بتصرف). وانظر في مسألة تعذيب الميت ببكاء الحي : التمهيد ، لابن عبد البر ١٧/٢٧٤-٢٨٤ ، بيان تلبيس الجهمية ، لابن تيمية ، ٨/٥٢١ ، ٥٢٢ ، شرح صحيح مسلم ، للنووي ٦/٢٢٦-٢٣٦، تهذيب معالم السنن ٤/٢٩٠-٢٩٤ ، عدة الصابرين ، لابن القيم ، ص ٢٠١-٢٠٥ ، فتح الباري ، لابن حجر ٣/١٥٢-١٦٣، الشرح الممتع ، لابن عثيمين ، ٥/٣٩١ ، ٣٩٢ .

(٤٢٦) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، ح (١٩١٣).

(٤٢٧) جامع الترمذي ، أبواب فضائل الجهاد ، ح (١٦٦٥). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح (٣٤٨١).

(٤٢٨) انظر : فيض القدير ، للمناوي ٥/٣٤.

٢- الشهادة في سبيل الله ؛ لقول النبي ﷺ : (للشهيد عند الله ست خصال ؛ يغفر له في أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه)[٤٢٩]، ولما قيل للنبي ﷺ : (يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ قال : كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة)[٤٣٠]؛ قال ابن القيم : معناه ـ والله أعلم ـ أنه قد امتحن نفاقه من إيمانه ببارقة السيف على رأسه، فلم يفر ؛ فلو كان منافقا لما صبر لبارقة السيف على رأسه ، فدل على أن إيمانه هو الذي حمله على بذل نفسه لله وتسليمها له، وهاج من قلبه حمية الغضب لله ورسوله وإظهار دينه وإعزاز كلمته ؛ فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره، حيث برز للقتل، فاستغنى بذلك عن الامتحان في قبره[٤٣١]. ورأى بعض أهل العلم أن في ثبوت هذا الحكم لشهيد المعركة دلالة على ثبوته للأنبياء والصديقين بطريق الأولى ؛ لأنهم أعلى درجة ، وأعظم قدرا عند الله من الشهداء . وفي هذا نظر ؛ لأن خصائص الشهداء لا يشركهم فيها غيرهم ، ولو كانوا أفضل منهم ؛ قال ابن القيم : الأحاديث الصحيحة ترد هذا القول، وتبين أن الصديق يسأل في قبره كما يسأل غيره ، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأس الصديقين، وقد قال للنبي ﷺ لما أخبره عن سؤال الملك في القبر، فقال : وأنا على مثل حالتي هذه؟ فقال : نعم[٤٣٢].

٣- المداومة على قراءة سورة الملك كل ليلة ؛ لقول النبي ﷺ : (سورة تبارك هي

---

(٤٢٩) جامع الترمذي ، أبواب فضائل الشهداء ، ح (١٦٦٣). وإسناده صحيح . انظر : أحكام الجنائز ، للألباني ، ص ٣٥ ، ٣٦.

(٤٣٠) سنن النسائي ، كتاب الجنائز ، ح (٢٠٥٣). وسنده صحيح . انظر : أحكام الجنائز ، للألباني ، ص ٣٦.

(٤٣١) كتاب الروح ٢٤١/١ .

(٤٣٢) كتاب الروح ٢٤٢/١ .

المانعة من عذاب القبر)[٤٣٣]، وقوله : (إن سورة في القرآن ، ثلاثون آية ، شفعت لصاحبها حتى غفر له ؛ تبارك الذي بيده الملك)[٤٣٤]، ودليل اشتراط المداومة على قراءتها قول ابن مسعود ﷺ: (من قرأ تبارك الذي بيده الملك كل ليلة منعه الله بها من عذاب القبر ، وكنا في عهد رسول الله ﷺ نسميها المانعة ، وإنها في كتاب الله سورة من قرأ بها في كل ليلة فقد أكثر وأطاب)[٤٣٥].

٤- الموت مبطونا ؛ لقول النبي ﷺ : (من يقتله بطنه فلن يعذب في قبره)[٤٣٦]، وذلك لأن المصائب مكفرات للخطايا ؛ لقول النبي ﷺ : (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب[٤٣٧]، ولا هم ولا حزن ، ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)[٤٣٨]، وقوله : (ما من مسلم يصيبه أذى ، مرض فما سواه إلا حط الله له سيئاته ، كما تحط الشجرة ورقها)[٤٣٩]، قال ابن حجر : معنى الأحاديث التي ظاهرها التعميم أن المذكورات صالحة لتكفير الذنوب ، فيكفر الله بها ما شاء من الذنوب ، ويكون كثرة التكفير وقلته باعتبار شدة المرض وخفته[٤٤٠]؛ ولشدة المصيبة بمرض البطن كانت عظيمة الأثر في تكفير الخطايا ؛ فمن مات بالاستسقاء أو غيره من أدواء البطن كفر الله عنه بهذه المصيبة الكبيرة كل ذنب يكون

---

(٤٣٣) رواه أبو الشيخ بسند حسن . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١١٤٠) ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح (٣٦٤٣).

(٤٣٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، ح (٣٧٨٦) ، وإسناده صحيح . انظر : صحيح ابن ماجه ٢٤١/٣ ، ح (٣٠٦٨).

(٤٣٥) رواه النسائي بسند حسن . انظر : عمل اليوم والليلة ، للنسائي ، بتحقيق فاروق حمادة ، ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ح (٧١١).

(٤٣٦) سنن النسائي ، كتاب الجنائز ، ح (٢٠٥٢). إسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٦٤٦١).

(٤٣٧) النصب التعب ، والوصب المرض . انظر : مختار الصحاح ، للرازي ، ص ٦٦١ ، ٧٢٤.

(٤٣٨) صحيح البخاري ، كتاب المرضى ، ح (٥٦٤٢).

(٤٣٩) صحيح البخاري ، كتاب المرضى ، ح (٥٦٦٠).

(٤٤٠) فتح الباري ١٠٨/١٠ ، ١٠٩ .

سببا للعذاب في قبره .

٥- الموت ليلة الجمعة أو نهارها ؛ لقول النبي ﷺ : (ما من مسلم يموت يوم الجمعة ، أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر)[٤٤١]؛ فالمسلم إذا مات في خير يوم طلعت عليه الشمس أكرمه الله بالوقاية من فتاني القبر ؛ فلا يأتيانه ولا يختبرانه ، وأما الوقاية من عذاب القبر فلم أرها في شيء مما وقفت عليه من روايات الحديث ؛ فقد يناله شيء من عذاب القبر ، وقد يعفو الله عنه بحسنات معارضة ، أو دعوة صالحة ، أو شفاعة مقبولة ، أو بمحض عفو الله وكرمه . وقد ورد في حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه ذكر خصال أخرى تمنع من عذاب القبر ؛ كالوضوء ، والصلاة ، والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستحسن بعض أهل العلم هذا الحديث ، وأرادوا بذلك حسنه متنه لغة ، لا حسن إسناده اصطلاحا ؛ لأن الحديث وإن كان لا يثبت من الناحية الحديثية إلا أن أصول السنة تشهد لصحة معناها[٤٤٢].

عموم الفتنة في القبر

الأصل في فتنة القبر أنها تعم كل ميت إلا من ورد النص بتخصيصه؛ كالمرابط والشهيد ؛ وهو أصل مطرد في جميع الموارد إلا في ثلاث مسائل اختلف أهل العلم في اندراجها تحت هذا الأصل ؛ هي :-

الأولى : فتنة الكافر ؛ فذهب بعض أهل العلم إلى أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق ، وأما الكافر فليس ممن يسأل في قبره عن ربه ودينه ونبيه ، وإنما يسأل عن هذا من انتسب إلى الإسلام ؛ فيثبت الله المؤمن ويرتاب المبطل . وفي قولهم هذا نظر ؛ لأنه يخالف النص الصحيح الصريح ؛ عن أنس رضي الله عنه مرفوعا : (إن العبد

---

(٤٤١) مسند الإمام أحمد ، ح (٦٥٨٢). قال الألباني : الحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح . أحكام الجنائز ، ص ٣٥ ، وانظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٥٧٧٣).

(٤٤٢) انظر : كتاب الروح ، لابن القيم ٢٣١-٢٥٢ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ح (٧١٢٩) ، الوعد الأخروي ، للمؤلف ، ١/٩٥-١٠٠ .

إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه ... الحديث ، وفيه : وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري)[٤٤٣].

الثانية : فتنة من قبلنا من الأمم ؛ فقد رأى بعض أهل العلم أن فتنة القبر خاصة بهذه الأمة ؛ لقول النبي ﷺ : (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها)[٤٤٤]، وقوله : (فأوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم)[٤٤٥]، وقوله : (فأما فتنة القبر فبي تفتنون ، وعني تسألون)[٤٤٦]، وقول الملكين للعبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه : (ما كنت تقول في هذا الرجل ـ لمحمد ﷺ ـ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله)[٤٤٧]، فهذا ونظائره ظاهر في اختصاص الفتنة في القبر بهذه الأمة ، يعضد ذلك أن الأمم التي قبلنا إذا لم يتبعوا الرسل عوجلوا بالعذاب ، ولما بعث الله محمدا ﷺ رحمة للعالمين أمسك عنهم العذاب ، وشرع الجهاد ، فظهر النفاق ؛ خوفا من السيف ؛ ولهذا قيض الله لهم فتاني القبر ؛ ليميز الله الخبيث من الطيب . وهذا القول غير مسلم أيضا ؛ لأن نصوص الفتنة في القبر تعم هذه الأمة وغيرها من الأمم ، وليس في الأدلة التي ذكروا ما ينفي سؤال غيرهم من الأمم ، أو يوجب التوقف كما جنح لذلك بعض أهل العلم ؛ لأنها مقصودها إثبات فتنة القبر لهذه الأمة ، وبيان متعلقها لا نفي الفتنة عمن قبلهم من الأمم ؛ فهذه الأمة وإن كانت أشرف الأمم إلا أنها في هذه الفتنة كغيرها من الأمم ؛ فتمتحن بنبيها كما امتحنت الأمم قبلها بأنبيائهم . وأما القول

---

(٤٤٣) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، ح (١٣٧٤). وانظر في مسألة فتنة الكافر في قبره : التمهيد ، لابن عبد البر ٢٥٢/٢٢ ، كتاب الروح ، لابن القيم ٢٥٢/١-٢٦١.

(٤٤٤) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٦٧).

(٤٤٥) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، ح (٨٦).

(٤٤٦) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٥٠٩٠) . وإسناده صحيح على شرط الشيخين . انظر : تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط ورفاقه ١٣/٤٢.

(٤٤٧) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، ح (١٣٧٤).

بأن الجهاد إنما شرع في هذه الملة فمردود بقوله تعالى عن بني إسرائيل : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) المائدة:٢٤ ، وقوله : (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم) البقرة : ٢٦٤[٤٤٨].

الثالثة : فتنة الأطفال ؛ فأهل العلم في هذه المسألة على قولين ؛ الأول أن الأطفال لا يفتنون في قبورهم ؛ لأنهم لم يتمكنوا من معرفة الرسول وطاعته ، والسؤال إنما يكون لمن عقل الرسول والمرسل ؛ فيسأل عن الإيمان بالرسول وطاعته . والقول الآخر أنهم كما يمتحنون في عرصات القيامة فإنهم يفتنون في قبورهم ؛ ولهذا شرعت الصلاة عليهم ، والدعاء لهم بالإعاذة من عذاب القبر ؛ قال سعيد بن المسيب : صليت وراء أبي هريرة ﷺ على صبي لم يعمل خطيئة قط ، فسمعته يقول : اللهم أعذه من عذاب القبر[٤٤٩]. والقول الأول أظهر ؛ لأن ذكر المولود لم يرد في شيء من أحاديث الامتحان الثابتة ، وإنما ورد ذكره في طرق واهية لا تقوم بها حجة ، وأيضا فإن فتنة الأطفال في قبورهم لا فائدة فيها ؛ لأن مقصود الفتنة ظهور صدق الإيمان ، وإيمان الأطفال مقطوع بحصوله ؛ لأنهم على الفطرة ؛ وهي الإسلام ؛ يقول النبي ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة)[٤٥٠]، ويقول : (ما من مولود يولد إلا وهو على الملة)[٤٥١]؛ ولهذا كانوا جميعا في الجنة ؛ يقول النبي ﷺ : (والمولود في الجنة)[٤٥٢]، ويقول : (وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم عليه السلام ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة ، فقال بعض المسلمين : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله : وأولاد المشركين)[٤٥٣]؛ قال ابن القيم : هذا الحديث الصحيح صريح في

---

(٤٤٨) انظر : كتاب الروح ، لابن القيم ١/٢٦١-٢٦٥.

(٤٤٩) موطأ الإمام مالك ، كتاب الجنائز ، ح (٦١٠).

(٤٥٠) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، ح (١٣٨٥).

(٤٥١) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، ح (٢٦٥٨).

(٤٥٢) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٠٥٨٣). قال ابن حجر : إسناده حسن . فتح الباري ٣/٢٤٦.

(٤٥٣) صحيح البخاري ، كتاب التعبير ، ح (٧٠٤٧).

أنهم في الجنة ، ورؤيا الأنبياء وحي[٤٥٤]. وأما أثر أبي هريرة ﷺ فقد يكون مبنيا على أحاديث التوقف في حكم الأطفال في الآخرة ؛ كحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : (دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه ، قال : أو غير ذلك يا عائشة ؛ إن الله خلق للجنة أهلا ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم)[٤٥٥]، وأصح ما قيل في هذه الأحاديث أنها كانت في أول الأمر ، قبل أن يعلم الله تعالى نبيه ﷺ أن الأطفال جميعا في الجنة ، كما دل على ذلك حديث سمرة بن جندب ﷺ[٤٥٦]وغيره. ورأى بعض أهل العلم أن أبا هريرة ﷺ لا يريد بعذاب القبر العقاب على ترك طاعة أو فعل معصية ، وإنما أراد الألم والتوجع الذي يحصل للميت بسبب غيره ، ولا ريب أن في القبور من الآلام والهموم والحسرات ما قد يسري أثره إلى الطفل فيتألم به، فيشرع للمصلي عليه أن يسأل الله تعالى له أن يقيه هذا النوع من العذاب . والجواب الأول أظهر[٤٥٧].

أنواع عذاب القبر

العذاب في القبر نوعان :

١- نوع يدوم إلى النفخة الأولى ؛ وهو عذاب الكفار ؛ قال تعالى : (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) غافر : ٤٦ ، وقال النبي ﷺ : (بينما رجل يمشي قد أعجبته جمته وبرداه إذ خسف به في الأرض فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة) ، وفي رواية : (إن رجلا ممن كان قبلكم

---

(٤٥٤) طريق الهجرتين ، ص (٣٩١).

(٤٥٥) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، ح (٢٦٦٢).

(٤٥٦) حديث سمرة هو : (وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم عليه السلام ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة). وقد تقدم ذكره وما في معناه في مرجحات القول الأول في هذه المسألة .

(٤٥٧) انظر : كتاب الروح ، لابن القيم ،١/٢٦٥-٢٦٨ ، الوعد الأخروي ، للمؤلف ، ١/٣٦١-٣٧٥ .

يتبختر في حلة ... الحديث بنحوه)[٤٥٨]؛ وهذا الرجل هو قارون ، كما ذكر ذلك ابن كثير وغيره من أهل العلم ، وإيراد البخاري للحديث ضمن أخبار بني إسرائيل يشعر بذلك ، ويبطل قول من رأى أنه من هذه الأمة[٤٥٩]. ونوم الكفار في قبورهم لا يشكل على دوام عذابهم ؛ لأنه يعذبون حال نومهم ؛ لحديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (فإذا كان عدوا لله نزل به الموت وعاين ما عاين، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبدا، والله يبغض لقاءه، فإذا جلس في قبره أو أجلس، فيقال له :من ربك ؟ فيقول :لا أدري ؛ فيقال: لا دريت. فيفتح له باب من جهنم، ثم يضرب ضربة تسمع كل دابة إلا الثقلين، ثم يقال له : نم كما ينام المنهوش . فقيل لأبي هريرة : ما المنهوش ؟ قال: الذي ينهشه الدواب والحيات ، ثم يضيق عليه قبره)[٤٦٠]. وأما نومهم بين النفختين فلا عذاب معه ؛ ولهذا يقولون عند النفخة الثانية : (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) يس : ٥٢ ؛ قال أبي بن كعب، وابن عباس، وقتادة : إنما يقولون هذا لأن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين ؛ فيرقدون فإذا بعثوا بعد النفخة الأخيرة وعاينوا القيامة دعوا بالويل[٤٦١]، وقال مجاهد : للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم قبل يوم القيامة ، فإذا صيح بأهل القبور يقول الكافر : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا[٤٦٢]. وقال أبو صالح باذام : إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور ، وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية[٤٦٣].

٢- نوع يكون إلى مدة ثم ينقطع ، وهو عذاب بعض العصاة ؛ فيعذب بحسب جرمه

---

(٤٥٨) صحيح مسلم ، كتاب اللباس ، ح (٢٠٨٨).

(٤٥٩) انظر : تفسير ابن كثير ، للآية (٨١) من سورة القصص ، شرح صحيح مسلم ، للنووي ١٤/ ٦٤ ، هدي الساري ، لابن حجر ، ص ٢٩٨ ، ٣٢٩ ، فتح الباري ، لابن حجر ، ١٠/٢٦٠ .

(٤٦٠) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢٦٢٨).

(٤٦١) تفسير البغوي ، ٧/٢١ (طبعة دار طيبة).

(٤٦٢) الدر المنثور ، للسيوطي ، ٧/٦٣ (طبعة دار الفكر).

(٤٦٣) فتح القدير ، للشوكاني ، ٤/٤٣ (طبعة دار ابن كثير) .

ثم يزول عنه العذاب ، وقد ينقطع قبل ذلك بدعاء أو صدقة أو شفاعة ؛ عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : (لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو ، وهاجر معه رجل من قومه ، فاجتووا المدينة ، فمرض، فجزع، فأخذ مشاقص له، فقطع بها براجمه، فشخبت يداه حتى مات. فرآه الطفيل بن عمرو في منامه ، فرآه وهيئته حسنة ، ورآه مغطيا يديه ، فقال له : ما صنع بك ربك؟ فقال : غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ ، فقال : ما لي أراك مغطيا يديك؟ قال قيل لي : لن نصلح منك ما أفسدت. فقصها الطفيل على رسول الله ﷺ ؛ فقال رسول الله ﷺ : اللهم وليديه فاغفر)[٤٦٤]، وعن أبي هريرة ﷺ أن رجلا قال للنبي ﷺ : (إن أبي مات وترك مالا ، ولم يوص ؛ فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه ؟ قال : نعم)[٤٦٥]، وعن عقبة بن عامر ﷺ مرفوعا : (إن الصدقة لتطفئ عن أهلها حر القبور)[٤٦٦]، وعن ابن عمر ﷺ قال : (كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا نبينا ﷺ يقول : إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، وقال : أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[٤٦٧]. وقد يستشكل على انقطاع عذاب العصاة بحديث سمرة بن جندب ﷺ مرفوعا : (رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة ... الحديث ، وفيه : قلت : طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت ؟ قالا : نعم ؛ أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب ، يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به إلى يوم القيامة ، والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ، ولم يعمل فيه بالنهار ، يفعل به إلى يوم القيامة)[٤٦٨]، ويمكن الجواب عن ذلك بأن يقال : إن عذاب القبر إنما ينقطع عن بعض العصاة ، ومن عظم جرمه

---

(٤٦٤) صحيح مسلم ،كتاب الإيمان ، ح (١١٦).

(٤٦٥) صحيح مسلم ،كتاب الوصية ، ح (١٦٣٠).

(٤٦٦) المعجم الكبير ، للطبراني ، ح (٧٨٨) ، وإسناده جيد . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٣٤٨٤).

(٤٦٧) مسند البزار ، ح (٥٨٤٠) ، وإسناده جيد . انظر : مجمع الزوائد ٢١١/١٠ .

(٤٦٨) صحيح البخاري ،كتاب الجنائز ، ح (١٣٨٦).

امتد عذابه إلى يوم القيامة ، ثم هو بعد ذلك في المشيئة ؛ إن شاء الله غفر له ، وإن شاء عذبه ، أو يقال : إن حديث سمرة ﷺ له حكم نظائره من نصوص الوعيد المقيدة بنصوص الوعد ؛ فيمتد عذاب من عظم جرمه إلى يوم القيامة إلا من شاء الله أن يعفو عنه قبل ذلك بدعاء المؤمنين واستغفارهم له ، أو بعمل صالح يهدى إليه ، أو بمحض عفو الله وكرمه . والله أعلم(٤٦٩).

****

(٤٦٩) انظر : كتاب الروح ، لابن القيم ١/ ٢٦٩-٢٧٣ .

الفصل الرابع

القيامة الكبرى

القيامة الكبرى هي التي تعم الناس ، و تأخذهم أخذة واحدة ، وابتداؤها بنفخة الصعق ، وانتهاؤها بدخول السعداء الجنة ، والأشقياء النار . سميت بذلك لقيام الناس جميعا من قبورهم ؛ للوقوف بين يدي رب العالمين للمحاسبة والجزاء . ولهذا اليوم العظيم أسماء كثيرة ؛ كيوم الدين ، ويوم الجمع ، والحاقة ، والقارعة ، والغاشية ، والصاخة ، ويوم الفزع الأكبر ، ويوم التغابن ، ويوم التلاق ، ويوم التناد ، ويوم الحسرة ، ويوم الفصل ، ويوم الوعيد ؛ يقول القرطبي : كل ما عظم شأنه تعددت صفاته ، وكثرت أسماؤه ، وهذا مهيع كلام العرب ؛ فالقيامة لما عظم أمرها ، وكثرت أهوالها سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة ، ووصفها بأوصاف كثيرة[٤٧٠]. ويوم القيامة هو يوم العدل الذي لا يشوبه مثقال ذرة من ظلم ؛ ولهذا يفتتح بالحمد ويختم به ؛ قال تعالى (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) الإسراء : ٣٢ ، وقال : (وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) غافر : ٧٥ ؛ قال ابن القيم : حذف فاعل القول لأنه غير معين ، بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم الذي حكم فيه ؛ فيحمده أهل السموات وأهل الأرض ، والأبرار والفجار ، والإنس والجن ، حتى أهل النار ؛ قال الحسن أو غيره : لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلا[٤٧١].

النفخ في الصور

الصور هو القرن الذي ينفخ فيه لإفناء الخلق ثم إحيائهم ؛ عن عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعا : (الصور قرن ينفخ فيه) [٤٧٢]، قال مجاهد : الصور كهيئة البوق . ولا عبرة

---

(٤٧٠) التذكرة ٢١٤/١ (باختصار) ، وانظر منها أيضا ٢١٦/١ ، وكذلك فتح الباري ، لابن حجر ٣٦٤/١١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ .

(٤٧١) روضة المحبين ، ص ٦٥ .

(٤٧٢) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، ح (٤٧٤٢) ، صححه الألباني . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح ٣٨٦٣ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ح ١٠٨٠ .

بقول أنكر أن يكون الصور قرنا ، وعول على التأويل الباطل ؛ فصرف الحديث عن ظاهره ، كما صرف أدلة العرش ، والصراط ، والميزان عن ظاهرها المتبادر إلى معان مجازية ما أنزل الله بها من سلطان . وأدلة النفخ في الصور ثلاثة أنواع :-

١- أدلة على النفخة الأولى ؛ وهي نفخة الصعق ، والصيحة التي يكون بها هلاك الخلق ، وهم يختصمون في أسواقهم وحوائجهم ؛ قال تعالى : (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) يس : ٤٩ ، وقال : (فإذا نقر في الناقور) المدثر : ٨ ؛ قال ابن عباس ﷺ : الناقور الصور ، ومعنى نقر أي نفخ ؛ قال القرطبي : إذا نفخ فيه للإصعاق جمع بين النقر والنفخ ؛ لتكون الصيحة أشد وأعظم[٤٧٣]؛ ولهذا يصعق الخلق سراعا عند سماعها ؛ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها)[٤٧٤].

٢- أدلة على النفخة الثانية ؛ وهي نفخة البعث ؛ قال تعالى : (فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) الصافات : ١٩ ، (فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة) النازعات : ١٣ ، ١٤ ، وقال : (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) يس : ٥١ ؛ أي يخرجون من القبور سراعا عقب زجرة البعث وصيحته .

٣- أدلة على النفختين معا ؛ قال تعالى : (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) الزمر : ٦٨ ، وقال : (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) النازعات : ٦ ، ٧ ؛ قال ابن عباس : الراجفة النفخة الأولى[٤٧٥]، والرادفة النفخة الثانية ، وعن عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعا :

---

(٤٧٣) التذكرة ، ١٨٢/١.

(٤٧٤) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، ح (٧١٢١).

(٤٧٥) فسر مجاهد الراجفة بالزلزلة ؛ وهو يعود لتفسير ابن عباس ﷺ ؛ لأن الزلزلة ناشئة عن النفخة الأولى ، وهي نفخة الصعق .

(ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتا ورفع لِيتا ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله[٤٧٦] فيصعق ويصعق الناس ، ثم يرسل الله – أو قال ينزل الله – مطرا كأنه الطل أو الظل[٤٧٧]؛ فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال :يا أيها الناس! هلم إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤولون)[٤٧٨].

وأما قوله تعالى : (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) النمل : ٨٧ ، فليس دليلا على نفخة ثالثة ،كما ذهب لذلك بعض أهل العلم ، وعضد قوله بما جاء في حديث الصور الطويل : (ثم ينفخ في الصور ثلاث نفخات ؛ نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين تبارك وتعالى)[٤٧٩]؛ لأن الله استثنى في نفخة الفزع كما استثنى في نفخة الصعق فدل على أنهما نفخة واحدة ، ولا يلزم من مغايرة الصعق للفزع ألا يحصلا معا في النفخة الأولى . وأما حديث الصور فلا حجة فيه ؛ لضعف إسناده واضطرابه ، ومخالفته للأحاديث الثابتة في الصحيح وغيره ؛كحديث عبد الله بن عمرو ﷺ المذكور آنفا ، وحديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا :(بين النفختين أربعون)[٤٨٠]، وحديث أوس الثقفي ﷺ مرفوعا : (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ... فيه النفخة وفيه الصعقة)[٤٨١]، وحديث ابن مسعود ﷺ موقوفا : (ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض، فينفخ

---

(٤٧٦) أصغى معناه أمال ، ليتا يعني صفحة العنق ، ويلوط معناه يطين ويصلح . انظر : التذكرة ، للقرطبي ١٦٦/١ .

(٤٧٧) قال النووي : الأصح الطل ، بالمهملة ، وهو الموافق للحديث الآخر أنه كمني الرجال . شرح صحيح مسلم ، ٧٧/١٨ . وأما حديث : (إن السماء تمطر مطرا كمني الرجال) فقد رواه الطبراني في المعجم الكبير بسند ضعيف ، ولعل النووي إنما ذكره من باب الاستئناس لا من باب الاحتجاج . انظر : تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية ، للألباني ، ح (٥٤٧).

(٤٧٨) صحيح مسلم ،كتاب الفتن ، ح (٢٩٤٠).

(٤٧٩) تفسير الطبري ، ٣٠/٢٤ . وإسناده ضعيف . انظر : تخريج الألباني لأحاديث شرح الطحاوية ، ح (٢٠١).

(٤٨٠) صحيح البخاري ،كتاب التفسير ، ح (٤٨١٤).

(٤٨١) سنن أبي داود ،كتاب الصلاة ، ح (١٠٤٧) ، وإسناده صحيح : انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٢٢١٢)، والمراد بالصعقة النفخة الأولى ، والنفخة المراد بها النفخة الثانية . انظر : عون المعبود ٢٦٠/٣ .

فيه، والصور قرن فلا يبقي لله خلق في السماوات ولا في الأرض إلا مات، إلا ما شاء ربك، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون)[٤٨٢]؛ فعلم من ذلك كله أنهما نفختان فقط ، خلافا لمن رأى أنها ثلاث ، أو أغرب فقال : إنها أربع ؛ قال ابن حجر : زعم بن حزم أن النفخات يوم القيامة أربع ؛ الأولى نفخة إماتة يموت فيها من بقي حيا في الأرض ، والثانية نفخة إحياء يقوم بها كل ميت وينشرون من القبور ويجمعون للحساب ، والثالثة نفخة فزع وصعق يفيقون منها كالمغشي عليه لا يموت منها أحد ، والرابعة نفخة إفاقة من ذلك الغشي . وهذا الذي ذكره من كون الثنتين أربعا ليس بواضح ، بل هما نفختان فقط ، ووقع التغاير في كل واحدة منهما باعتبار من يستمعها ؛ فالأول يموت بها كل من كان حيا ويغشى على من لم يمت ممن استثنى الله ، والثانية يعيش بها من مات ويفيق بها من غشي عليه والله أعلم[٤٨٣]. ويتعلق بالنفخ في الصور ثلاث مسائل :

الأولى : في قدر ما بين النفختين ؛ وقع في حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (بين النفختين أربعون)[٤٨٤]، لكن دون تعيين لمتعلق الأربعين ، ورأى الحليمي أن الروايات اتفقت على أن بين النفختين أربعين سنة ، وفي هذا نظر ؛ لأنه إنما وقع في طرق ضعيفة أنها أربعون عاما ، والظاهر أن أبا هريرة لم يكن عنده علم بالتعيين، ولهذا لما قالوا له : أربعون ماذا ؟ قال : هكذا سمعت ، وفي رواية أخرى أن أصحابه قالوا : ما سألناه عن ذلك ، ولا زادنا عليه، غير أنهم كانوا يرون من رأيهم أنها أربعون سنة .

الثانية : في تعيين الملك الموكل بالنفخ في الصور ؛ فقد اشتهر أن إسرافيل عليه السلام هو صاحب الصور ، ووقع التصريح بذلك في حديث الصور ، ونقل الحليمي والقرطبي

---

(٤٨٢) كتاب البعث والنشور ، للبيهقي ، ح (٢٤٩) ، قال ابن حجر : سنده قوي . انظر : فتح الباري ٣٦٩/١١ ، ٣٧٠ .

(٤٨٣) فتح الباري ، لابن حجر ٤٤٦/٦ .

(٤٨٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٨١٤).

الإجماع على ذلك . وفي ذلك نظر ؛ لضعف حديث الصور ، ولأنه جاء في بعض الأحاديث والآثار أن الذي ينفخ في الصور غيره ، وأن صاحبي الصور بأيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران ، فإن ثبتت حمل على أنهما جميعا ينفخان ، فينفخ ملك الصور إذا رأى إسرافيل ضم جناحيه النفخة الأولى ؛ وهي نفخة الصعق، ثم ينفخ إسرافيل النفخة الثانية وهي نفخة البعث ، ويؤيده ذلك ما ثبت عن عبد الرحمن بن أبي عمرة موقوفا : (ما من صباح إلا وملكان موكلان بالصور)[٤٨٥].

الثالثة : في تعيين من استثنى الله من نفخة الصعق ؛ اختلف أهل العلم في هذه المسألة على عشرة أقوال ؛ فقيل هم الأنبياء ، وقيل الشهداء ، وقيل الملائكة[٤٨٦]، وقيل حملة العرش خاصة ، وقيل غير ذلك ، والصحيح أنه لا يمكن الجزم بتعيين كل من استثناه الله تعالى من نفخة الصعق ؛ لأن الله أطلق في كتابه ، ولأن النبي ﷺ لم يجزم بتعيين كل من استثناه الله تعالى ؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين ؛ فإن الجنة ليس فيها موت ، ومتناول لغيرهم ، ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله ؛ فإن الله أطلق في كتابه ، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال : إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى آخذا بساق العرش ، فلا أدري هل أفاق قبلي أم كان ممن استثناه الله ؛ فإذا كان النبي ﷺ

---

(٤٨٥) قال ابن حجر : أخرجه هناد بن السري في كتاب الزهد بسند صحيح . فتح الباري ٣٦٩/١١.

(٤٨٦) جزم ابن حزم بهذا القول ؛ لأن الملائكة أرواح لا أرواح لها ؛ فلا يموتون أصلا . والصحيح أنهم يموتون ؛ لحديث : (ثم تبعث الصائحة ، لعمر إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات ، والملائكة الذين مع ربك عز وجل) . قال ابن القيم : هذا حديث كبير جليل تنادي جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة . زاد المعاد ٦٧٧/٣ ، ثم قال : لا أعلم موت الملائكة جاء في حديث صريح إلا هذا ... وحديث الصور . زاد المعاد ٦٧٩/٣ . وهذا الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة ، وقد دلت النصوص على أنهم يصعقون إذا سمعوا كلام الله ؛ فإذا جاز عليهم صعق الغشي جاز عليهم صعق الموت . وفي هذا أيضا دلالة على بطلان قول الفلاسفة الذين يزعمون أنه لا يمكن موت الملائكة بحال ، لأنها بزعمهم عقول ونفوس وأرباب تدبر العالم ! والقرآن الكريم يخالف مقالتهم ، وينطق بأنهم عبيد مدبرون ؛ قال تعالى : (بل عباد مكرمون) الأنبياء : ٢٦ ، وقال : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) النساء : ١٧٢ . انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٥٩/٤ ، ٢٦٠ ، ٣٤/١٦ ، ٣٥ ، فتح الباري ، لابن حجر ٣٧١/١١.

لم يجزم بكل من استثناه الله لم يمكنا أن نجزم بذلك ، وصار هذا مثل العلم بقرب الساعة ، وأعيان الأنبياء ، وأمثال ذلك مما لم يخبر به من العلم لا ينال إلا بالخبر[٤٨٧].

بعث الخلق

إمكان البعث لا يعلم بمجرد إثبات إمكانه الذهني كما هي طريقة بعض المتكلمين[٤٨٨]؛ لأن مجرد العلم بإمكانه لا يكفي في إثبات جوازه ما لم تعلم قدرة الرب على ذلك ، إما بوجوده ، أو وجود نظيره ، أو وجود ما هو أعظم منه ؛ ولهذا كانت أدلة إمكان البعث في القرآن على نوعين :-

الأول : أدلة الوجود والعيان ؛ وهو أعظم النوعين ؛ إذ لا شيء أدل على إمكان البعث من وجوده في العيان ؛ ولهذا ذكر الله في كتابة عدة آيات عيانية على البعث ؛ كما في قوله تعالى : (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) البقرة : ٥٥ ، ٥٦ ، وقوله : (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) البقرة : ٧٢ ، ٧٣ ، وقوله : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) البقرة :٢٤٣ ، وقوله : (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء

---

(٤٨٧) مجموع الفتاوى ٢٦١/٤ ، ٣٦/١٦ (باختصار وتصرف) ، وانظر في مسائل النفخ في الصور : التذكرة ، للقرطبي ١٦٥/١- ١٨٥ ، فتح الباري ، لابن حجر ٣٦٧/١١-٣٧٢ .

(٤٨٨) يقررون ذلك بقولهم : إن البعث لا يلزم من تقدير وجوده محال ، أو بأنه لا يعلم امتناعه كما تعلم سائر الأمور الممتنعة عقلا ، وهي طريقة قاصرة لا تكفي في إثبات الإمكان الخارجي للبعث . انظر : الرد على المنطقيين ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ ، درء التعارض ٣٠/١-٣٣ .

قدير) البقرة : ٢٥٩ ، وقوله : (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم) البقرة : ٢٦٠ ، وقوله : (ووهبنا له أهله ومثلهم معهم) ص : ٤٣ ؛ قال الحسن وقتادة : أحياهم الله تعالى له بأعيانهم ، وزاده مثلهم معهم[٤٨٩].

الثاني : أدلة الاعتبار والبرهان ؛ ومداره على إثبات البعث والقدرة عليه بالقياس على وجود النظير أو الأعظم ، ويندرج تحت هذا النوع ثلاث طرق :-

١- قياس البعث على إحياء الأرض بعد موتها ؛ قال تعالى : (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) الأعراف : ٥٧ . وهو قياس في أصل الإحياء ، أو في أصله وكيفيته ، وهو الأظهر ؛ لقول النبي ﷺ : (ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة)[٤٩٠]، وقوله : (ثم يرسل الله – أو قال ينزل الله – مطرا كأنه الطل أو الظل فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون)[٤٩١]، والعجب عظم لطيف في أصل الصلب ؛ هو مادة تركيب الأجساد ، وإخراجها من الأرض بهذا المطر الذي كأنه الطل[٤٩٢]، كما أن الحب مادة إخراج البقل[٤٩٣]من الأرض بالأمطار المعهودة .

---

(٤٨٩) تفسير ابن كثير ٦/٤٣٠.

(٤٩٠) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٩٣٥) .

(٤٩١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٤٠).

(٤٩٢) ورد في حديث آخر في إسناده ضعف : (إن السماء تمطر مطرا كمني الرجال) . انظر : تخريج أحاديث شرح الطحاوية ، للألباني ، ح (٥٤٧).

(٤٩٣) البقل من النبات ما ليس بشجر دق ولا جل ، وفرق ما بين البقل ودق الشجر أن البقل إذا رعي لم يبق له ساق والشجر تبقى له سوق وإن دقت . تهذيب اللغة ، للأزهري ١/٣٧٣ .

٢- قياس البعث على النشأة الأولى المعلومة والمشهودة ؛ فالمعلومة نشأة آدم عليه السلام من تراب لا حياة فيه ، ونشأة عيسى عليه السلام من أم بلا أب ؛ فمن قدر على الخلق من تراب ، وعلى الخلق من أم بلا أب فلا ريب أنه قادر على بعث الخلق بعد موتهم ؛ قال تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) الحج : ٥ ، وقال : (وإنه لعلم للساعة) الزخرف : ٦١ ؛ أي وإن عيسى لدليل على الساعة ، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب قادر على بعث الموتى من قبورهم . وأما النشأة المشهودة فنشأة آحاد البشر تدريجا من نطفة حقيرة حتى بلوغ الأشد وإحكام الخلق ؛ قال تعالى : (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) يس : ٧٧-٧٩ ، وقال : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) القيامة : ٣٦-٤٠ ؛ فمن قدر على إنشاء خلق الإنسان المحكم من ماء مهين فلا ريب في قدرته على إعادته كما أنشأه أول مرة . وتناول القدرة للإعادة إما بطريق الأولى أو المساواة ؛ بناء على خلاف السلف في قوله تعالى : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) الروم : ٢٧ ؛ فمن رأى أن أهون قصد بها التفضيل قال : إن تناول القدرة للإعادة بطريق الأولى ، ومن رأى أنها ليست للتفضيل ، بل صفة بمعنى هين قال : إن تناول القدرة للبعث بطريق المساواة ، والأول أشهر وأظهر ؛ لأن الإعادة على مثال سبق ، خلافا للبداءة التي كانت على غير مثال يحتذى .

٣- قياس البعث على خلق السموات والأرض ؛ قال تعالى : (أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير) الأحقاف : ٣٣ ؛ فغالب منكري البعث يقرون بقدرة الله على خلق السموات والأرض ؛ قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن

العزيز العليم) الأحقاف : ٩ ؛ فاحتج عليهم بما أقروا به من الخلق على إثبات ما أنكروا من البعث ؛ لأن من قدر على الأجل الأعظم فقدرته على الأيسر الأصغر من باب أولى . ومن هذا الضرب من الاستدلال قوله تعالى : (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون) يس : ٨٠ ؛ فإخراج النار من الشجر الأخضر دليل على رد الحياة إلى العظام وهي رميم ؛ لأن من قدر على إخراج الشيء من ضده فقدرته على رده مثلما كان من باب أولى . وكذلك قوله تعالى : (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا) عم : ٦ ، ٧ ؛ قال القرطبي : دلهم على قدرته على البعث ؛ أي قدرتنا على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة[٤٩٤]. وإذا تقرر إمكان البعث عقلا فأدلة وقوعه شرعا لها صور كثيرة ؛ منها :-

١- بيان أن البعث موجب العلم والقدرة و الحكمة ؛ قال تعالى : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) ق : ٤ ، وقال : (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) القيامة : ٤ ، وقال : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) المؤمنون : ١١٥ ، وقال : (فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين) التين : ٧ ، ٨ ؛ قال ابن كثير : هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحدا ، ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه[٤٩٥].

٢- الإخبار بقرب حصول البعث ، والإقسام على وقوعه ؛ قال تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر) القمر : ١ ، وقال : (والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) الذاريات : ١-٦ ، وقال : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) التغابن : ٧ .

٣- ذم المكذبين بالبعث ؛ قال تعالى : (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا

---

(٤٩٤) تفسير القرطبي ١٧١/١٩ .

(٤٩٥) تفسير ابن كثير ٦٠٢/٧ .

جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون) الأنعام : ٣١ ، وقال : (بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون) النمل : ٦٦ ، وقال : (ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد) الشورى : ١٨[٤٩٦]. وهذه الأدلة بأنواعها فيها الرد الصريح على كل من أنكر البعث أو شك في وقوعه ، وهم على ثلاثة أنواع :-

أ- من أنكر معاد الأرواح والأبدان صراحة ؛ كما هي عقيدة أكثر مشركي العرب[٤٩٧]، قال تعالى : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) التغابن : ٧ ، وقال : (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) الأنعام : ٢٩ . ولا يشكل على ذلك قوله تعالى عنهم : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) الزمر : ٣ ؛ لأن مرادهم الاستشفاع بهم في أمور الدنيا لا الآخرة ؛ قال ابن كثير : إنما يحملهم على عبادة الأصنام اعتقادهم أنهم شفعاء لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا ، فأما المعاد فكانوا جاحدين له ، كافرين به[٤٩٨]. وممن أنكر البعث صراحة الفلاسفة الطبيعيون ؛ لأن الإنسان عندهم هو الهيكل المحسوس ، بما له من المزاج والقوى والأعراض ، فإذا مات عدم ذلك كله ، والمعدوم لا يمكن إعادته. وقد اتسع نطاق إنكار البعث في العصر الحديث ؛ لانتشار المذهب المادي ، القائم على إنكار ما وراء الحس والتجربة ، بما في ذلك المعاد ، وسائر المغيبات[٤٩٩].

---

(٤٩٦) انظر في أدلة البعث : درء التعارض ١/٣٠-٣٥ ، تفسير السعدي ٦/٦٥٧ ، الوعد الأخروي ١/٢٦٩-٢٧٧.

(٤٩٧) كان منهم من قلائل يؤمنون بالبعث والجزاء على الأعمال ؛ كقس بن ساعدة ، وزيد بن نفيل ، وعامر بن الظرب ، وزهير بن أبي سلمى ، والنابغة الجعدي ، ولبيد بن ربيعة . قال ابن حجر عن قس بن ساعدة : هو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية . انظر : الإصابة ، لابن حجر ٥/٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٦/٣١٠ ، مروج الذهب ، للمسعودي ٢/١٢٦ ، ١٢٧ ، الملل والنحل ، للشهرستاني ٢/٢٣٥-٢٤٥ ، ، ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص ٨١.

(٤٩٨) تفسير ابن كثير ٦/٤٣٨ ، ٤٣٩ (باختصار وتصرف يسير).

(٤٩٩) انظر : شرح المقاصد ، للتفتازاني ٥/٨٨ ، ٨٩ ، الوعد الأخروي ١/٢٥٥ ، ٢٥٦ .

ب- من أنكر المعاد ضمنا ؛ كما هو قول البراهمة وغيرهم من القائلين بالتناسخ ، وهو اعتقاد انتقال الروح بعد المفارقة إلى بدن مغاير للبدن الذي كانت فيه ؛ إما من نوعه على قول ، أو من غيره على قول آخر ، وتظل دائمة الانتقال حتى تستكمل ميولها ، وتنال جزاءها ، ثم تندمج في الإله كما تندمج القطرة في ماء المحيط ؛ قال ابن كثير : القائلون بالدور من الدهرية ، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها رد الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم بقوله : (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون) يس : ٣١[٥٠٠].

ج- من هو في حكم المنكر للبعث ؛ وهم الشاكون في البعث ، وأشهرهم جالينوس ؛ فقد كان شاكا في البعث ، لتردده في النفس ؛ هل هي المزاج فتفنى بالموت ولا تعاد ، أم إنها جوهر باق بعد الموت يكون له المعاد. وقد يتسع نطاق الشك حتى يشمل الدين كله ؛ كما في ملحمة الطلاسم[٥٠١]. والشك ضرب من الكفر ؛ لأن الكفر يحصل بالاعتقاد ، أو الشك ، أو النطق ، أو الفعل[٥٠٢].

متعلق البعث

للناس في متعلق البعث ثلاثة أقوال :

١- إثبات معاد الأرواح والأبدان جميعا ، وأن الإنسان إذا مات تنعم روحه وتعذب منفردة ، ومتصلة بالبدن ، ثم تعاد روحه إلى بدنه عند القيامة الكبرى فيكون النعيم والعذاب عليهما معا . وهذا قول الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين من أهل السنة والحديث .

٢- إثبات معاد الأبدان فقط كما هو المشهور عن كثير من المتكلمين ؛ لأن الروح عندهم إما نفس البدن ، وإما جزء من أجزائه ، وإما صفة من صفاته ، وهي جسم

---

(٥٠٠) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٨ (بتصرف يسير) .

(٥٠١) انظر : شرح المقاصد ٨٩/٥ ، الجداول ، لإيليا أبو ماضي ، ص ١٣٩-١٧٨ .

(٥٠٢) انظر : الروض المربع ، بحاشية ابن قاسم ٣٩٩/٧ .

على كل هذه التقديرات[٥٠٣]؛ فلا معاد إلا لما هو جسم . وهذا القول إنكار بقاء الروح بعد مفارقة البدن ؛ قال ابن تيمية : إنكار بقاء النفس بعد الموت قول مبتدع في الإسلام لم يذهب إليه أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين ، وإن كان كثير من كتب الكلام لا يوجد فيها قول للمسلمين إلا هذا ، وربما حكاه بعضهم عن أكثر المسلمين ، وهذا لأن الذين يذكرون هذا ؛ كالرازي وأمثاله ليس لهم خبرة بأقوال الصحابة والتابعين وأقوال أئمة المسلمين في مسائل أصول الدين ، بل إنما يعرفون أقوال الجهمية والمعتزلة ونحوهم من أهل الكلام المحدث[٥٠٤].

٣- إثبات معاد الأرواح دون معاد الأبدان ؛ فالنفس بعد المفارقة وقطع التعلق بالبدن لا يمكن أن تعود للأبدان البتة ، وكل ما يدل على ذلك من النصوص فهو من قبيل الخطاب الجمهوري ، وإنما تعود النفس إلى عالمها ، وهو عالم المجردات ، وتتلذذ هناك بكمالاتها وإدراكاتها ، أو تتألم هناك تألما عقليا بنقصان الإدراك ، وفقد الكمال ، أو بالاشتياق لمقتضيات البدن مع فقد الآلة المحققة لها . ورأى أهل التناسخ من الفلاسفة أن التجرد والعودة إلى عالم المجردات إنما يكون للنفوس الكاملة ، وأما النفوس الناقصة فلا تزال تنتقل من بدن إلى بدن إلى أن تكمل وتصير طاهرة عن جميع العلائق البدنية وحينئذ تخلص إلى عالم القدس ؛ وهو عالم المجردات . وقد أنكر المسلمون هذه المقالة التي بنيت على التكذيب باليوم الآخر ، والقول بقدم العالم ، فلا تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، ولا تبعث الأجساد ، وليس هناك لذات وآلام حسية في الدار الآخرة ، وإنما ذلك كله أمثلة لاستصلاح العامة ، ورموز للمعاد الروحاني ، وقد شارك المتكلمون في إنكار هذه المقالة الشنيعة التي تخالف المعلوم من الدين بالضرورة ، بيد أن موقفهم كان ضعيفا أمام الفلاسفة لعدة أسباب ؛ منها :-

---

(٥٠٣) مرادهم الجسم بمعناه الاصطلاحي ، وهو ما يشار إليه إشارة حسية ، ويقال : إنه هنا أو هناك . انظر : الرسالة التدمرية ، ص ٥٣-٥٧ ، كتاب الروح ٥٦٦/٢ ، ٥٦٧ .

(٥٠٤) الصفدية ٢٦٧/٢ ، ٢٦٨.

أ- بناء المعاد على الجوهر الفرد ؛ وهو الجزء الذي لا يتجزأ ؛ لأن البعث عندهم إما جمع للجواهر بعد التفرق أو إعادة لها بعد الإعدام . وهذا البناء هو الذي الفلاسفة من التمادي في إنكار معاد الأبدان ؛ لأن الإنسان يتحلل دائما ؛ فإن أعيدت الجواهر التي كانت عند الموت لزم أن يعاد البدن على صورة ضعيفة ، وهو خلاف النصوص ، وإن أعيدت الجواهر التي كانت من قبل فليس بعض الأبدان بأولى من بعض . وقالوا أيضا : إن الجواهر قد تكون مشتركة ، كما لو أكل الإنسان حيوان ، وأكل الحيوان إنسان آخر ، والجواهر المشتركة يستحيل إعادتها ؛ لأن إعادة جواهر أحدهما يستلزم نقص جواهر الآخر . وقد أجاب المتكلمون بأن في الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل ، ولا يكون فيها شيء من الحيوان الذي أكله الثاني . وهو جواب غير صحيح ؛ لأن البدن حال الحياة في تحلل عام مستمر ، وإذا فارقته الروح تحلل كله ، ولم يبق إلا عجب الذنب ، والصواب أن الإنسان ليس بمركب من الجواهر الفردة حتى يلزم من بعث بعض الأبدان نقصان الجواهر في بدن آخر ، وأن الاستحالة لا تنافي إعادة البدن بعينه ؛ بدليل أن من رأى رجلا حال الشباب ثم رآه حال الشيخوخة قطع بأنه الرجل الأول بعينه ، مع أنه دائم التحلل والاستحالة ، فكذلك النشأة الأخرى هي بمثابة أطواره في الدنيا ؛ بحيث لا يشك من رآه أنه هو ذلك الرجل الذي كان في الدنيا . وأجاب فريق آخر من المتكلمين بأن الإعادة لا تكون لهذه الأجسام التي كانت في الدنيا ، بل يخلق الله أجساما جديدة ويعيد الأرواح إليها ! وهو جواب يخالف النصوص الصريحة التي دلت على إعادة البدن بعينه ، وأن الأجسام التي باشرت الطاعة والمعصية هي التي تعاد ، وهي التي يجري عليها الثواب والعقاب ، وهو كذلك يخالف المعقول من الإعادة ؛ إذ لو كان الجزاء لأجسام جديدة لكان ذلك ابتداء خلق لا بعثا وإعادة .

ب- منهج المتكلمين في التأويل ؛ فقد بنى الفلاسفة إنكار معاد الأبدان على منهج المتكلمين في التأويل ؛ فقالوا : إن العقل يحيل معاد الأبدان فيقدم مقتضى العقل ،

والنقل إما أن يؤول أو يفوض ؛ لأنه مجرد دلالات لفظية لا تفيد اليقين ! وقد حاول المتكلمون التصدي لتوسع الفلاسفة في التأويل ؛ فقالوا : إن نصوص المعاد لا تقبل التأويل ؛ لأنها معلومة من الدين بالضرورة ! ولم يأبه الفلاسفة لما قال المتكلمون ؛ لأنهم تأولوا نصوص الصفات ، وهي أكثر عددا وأعظم قدرا من نصوص المعاد التي تأولها الفلاسفة ؛ ولهذا قال أهل العلم : إن منهج المتكلمين في التأويل فتح عليهم بابا لأنواع المبتدعين لا يقدرون على سده .

ج- تذبذب المتكلمين في أصول الدين ؛ فقد ادعى المتكلمون توقف الإيمان بالمبدأ والمعاد على ثبوت الجوهر الفرد ، ثم توقف بعض أئمتهم في ثبوته ؛ كأبي الحسين البصري ، وأبي المعالي الجويني ، وأبي عبد الله الرازي ! وكذلك الغزالي أنكر المعاد الروحاني الذي دانت به الفلاسفة في كتابه التهافت ، ثم قال في أول كتاب الميزان : إن هذا الاعتقاد هو اعتقاد الصوفية على القطع ، ثم قال في كتاب المنقذ : إن اعتقاده كاعتقاد الصوفية ؛ ولهذا قال ابن طفيل : إن كتبه إنما هي بحسب مخاطبته للجمهور ، تربط في موضع ، وتحل في آخر ، وتكفر بأشياء ثم تحللها[٥٠٥]!

تبدل العالم

دلت النصوص على تبدل العالم المشهود[٥٠٦]من حال إلى حال ؛ فتُبس الجبال وتُدك حتى تكون كالهباء المنبث ، وتُسجر البحار وتفجر ، وتزلزل الأرض وترج ، وتمد

---

(٥٠٥) حي ابن يقظان ، لابن طفيل ، ص ٦٣ . وانظر : شرح النسفية ، للتفتازاني ١/٧٥ ، بيان تلبيس الجهمية ، لابن تيمية ١/٢٥١-٢٥٩ . وانظر في متعلق البعث : النجاة لابن سينا ، ص ٢٩٤-٢٩٨ ، الرسالة الأضحوية ، لابن سينا أيضا ص ١٢٢ ، ١٠٦-١٠٩ ، الأربعين للرازي ، ص ٢٩٩ ، الجواب الصحيح ، لابن تيمية ، ٢/٥٣٦ – ٥٣٩ ، الصفدية ، لابن تيمية أيضا ٢/٢٦٧ ، ٢٦٨ ، الفوائد ، لابن القيم ، ص ٧ ، (طبعة عطاءات العلم) ، شرح النونية ، للهراس ١/٣٣-٤٤ ، الوعد الأخروي ، للمؤلف ١/٢٥٥-٢٦٩ ، ٢٧٧-٣٥٠.

(٥٠٦) وهو العالم الذي أخبرنا الله تعالى عن خلقه في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ؛كما قال تعالى : (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) هود : ٧ ؛ فيخرج عن ذلك العرش ، والكرسي ، والجنة والنار ، وغيرها من المخلوقات التي ليست من هذا العالم ، فلا يطرأ عليها ما يطرأ على عالمنا من هلاك وتبدل وتحول . انظر : طبقات الحنابلة ٢/٢٤ ، شرح النونية ، للهراس ١/ ٣٩ ، ٤٠.

وتبسط وتوسع ، وتكور الشمس والقمر ، وتنكدر النجوم ، وتنشق السماء ، وتكشط ، وتطوى[٥٠٧]. وهذه الأحوال والأهوال كلها يجمعها اسم زلزلة الساعة ؛ أي شدائدها وأهوالها العظيمة ؛ قال الله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) الحج : ١ ، ٢ ؛ وقد اختلف أهل العلم في زلزلة الساعة وما يكون فيها من مظاهر تبدل العالم ؛ هل تكون بين يدي الساعة ، أو تكون بعد قيامها ؟ فقيل : إنها تكون في الدنيا إما مع النفخة الأولى أو الثانية ، وقيل : إنها تكون في عرصات القيامة ، وقيل إن بعضها يكون قبل قيام الساعة ، وبعضها يكون بعدها . والأظهر أنها كلها تكون في يوم القيامة ؛ لدلالة النصوص على ذلك ؛ ومنها :-

١- قول الله تعالى : (إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا) الواقعة : ١ - ٦ ؛ فالأرض بنص الآية إنما تزلزل وتدك جبالها يوم القيامة .

٢- قوله تعالى : (إذا الشمس كورت ... الآيات إلى قوله : وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت) التكوير ١ - ١٤ ؛ والعلم بما في صحف الأعمال من خير وشر إنما يكون يوم القيامة ؛ كما قال تعالى : (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) آل

---

(٥٠٧) تسجر أي توقد ، وتكور أي يجمع بعضها إلى بعض ثم تلف ويرمى بها ، وتنكدر أي تنتثر ، وتكشط أي تقلع عن مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء . انظر : تفسير القرطبي ٢٣٥/١٩ ، تفسير ابن كثير ٤٨٩/٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ . وليس معنى ذلك أن العالم علويه وسفليه يصير إلى العدم المحض ، كما ذهب لذلك بعض المتكلمين ؛ ظنا أن القيامة التي أخبرت بها الرسل هي إفناء العالم كله ثم إعادته ؛ لأن النصوص إنما تدل على تبدله من حال إلى حال ؛ قال تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) إبراهيم : ١٨ ؛ ولهذا تحدث الأرض أخبارها ، وتشهد يوم القيامة على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، ولو كانت تعدم بالكلية لما تأتى لها أن تحدث أو تشهد . انظر : الصفدية ، لابن تيمية ٢/ ٧٣-٨٠ ، ٣٢٩ ، مفتاح دار السعادة ، لابن القيم ٩٤٤/٢-٩٤٧ ، شرح النونية ، للهراس ٣٣/١-٤٠ .

عمران : ٣٠ ، وقال : (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) القيامة : ١٣ .

٣- قوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) إبراهيم : ٤٨ ؛ وهذا التبديل إنما يكون يوم القيامة ؛ لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : (سألت رسول الله عن قوله وَجَلَّ : يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؛ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله ؟ فقال : على الصراط)[٥٠٨]، وفي رواية : (أنا أول الناس سأل رسول الله عن هذه الآية ؛ فقلت : أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : على الصراط)[٥٠٩]، وعن ثوبان رضي الله عنه أن حبرا من أحبار اليهود قال للنبي ﷺ: (أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله ﷺ : هم في الظلمة دون الجسر)[٥١٠]، وعن مجاهد أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (أتدري ما سعة جهنم ؟ قلت : لا ، قال : أجل والله ما تدري ؛ حدثتني عائشة، أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله : والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ؛ قالت : فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال : على جسر جهنم)[٥١١]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : تبدل الأرض أرضا بيضاء كأنها فضة ، لم يسفك فيها دم حرام ، ولم يعمل عليها خطيئة[٥١٢]. وقد اختلف السلف في هذا التبديل ؛ هل المراد به تغيير ذات الأرض وصفاتها ، أو تغيير صفاتها فقط ؟ القول الأول أظهر ؛ لقول النبي ﷺ: (تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة[٥١٣]، يتكفؤها الجبار بيده ، كما يتكفأ أحدكم

---

(٥٠٨) صحيح مسلم ، كتاب صفة القيامة ، ح (٢٧٩١).

(٥٠٩) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٤٠٦٩). وإسناده صحيح على شرط مسلم : انظر : تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط ورفاقه ٧٩/٤٠ .

(٥١٠) صحيح مسلم ، كتاب الحيض ، ح (٣١٥). ويمكن الجمع بين هذا الحديث والذي قبله بما قاله ابن رجب : إن الظلمة دون الجسر حكمها حكم الجسر . انظر : رسائل ابن رجب ٣٤٢/٤ .

(٥١١) جامع الترمذي ، أبواب تفسير القرآن ، ح (٣٢٤١) . وإسناده صحيح . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٥٦١) ، تخريج أحاديث شرح السنة ، للبغوي ، ٢٥١/١٥ .

(٥١٢) أخرجه عبد بن حميد وغيره ، ورجاله رجال الصحيح . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٣٧٥/١١ .

(٥١٣) أي أرض الدنيا ، والمراد بالخبزة العجين الذي يوضع في الحفرة بعد إيقاد النار فيها ، والناس يسمونها الملة ، وإنما

خبزته في السفر ؛ نزلا لأهل الجنة)[٥١٤]؛ قال ابن حجر : يؤيده ما وقع في الحديث أن أرض الدنيا تصير خبزة ، والحكمة في ذلك أنها تعد لأكل المؤمنين منها في زمان الموقف ، ثم تصير نزلا لأهل الجنة[٥١٥].

٤- قول النبي ﷺ : (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ : إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت)[٥١٦]؛ فبين في هذا الحديث أن ما ذكر في هذه السور الكريمة من تكوير الشمس ، وانشقاق السماء وانتثار كواكبها ، ومد الأرض وتفجير بحارها ، وغير ذلك من زلازل الساعة ومظاهر تبدل العالم إنما يكون ذلك كله يوم القيامة . والأحاديث مطردة في الدلالة على هذا المعنى ؛ كقول النبي ﷺ : (الشمس والقمر مكوران يوم القيامة)[٥١٧]، وقوله : (يقبض الله الأرض ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض)[٥١٨]، وقوله : (إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم ، ثم بموسى ، ثم بمحمد ﷺ ؛ فيشفع ليقضى بين الخلق)[٥١٩]؛ فلو كانت الشمس تكور قبل يوم القيامة لما دنت من الخلق في ذلك اليوم ؛ لأن التكوير يعني جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفها ، ورميها في النار .

٥- نص النبي ﷺ على أن زلزلة الساعة إنما تكون يوم القيامة ؛ وذلك فيما رواه

الملة الحفرة نفسها . ويستفاد من الحديث أن المؤمنين لا يعاقبون بالجوع في طول زمان الموقف، بل يقلب الله لهم بقدرته طبع الأرض حتى يأكلوا منها من تحت أقدامهم ما شاء الله بغير علاج ولا كلفة، ويكون معنى قوله : نزلا لأهل الجنة ؛ أي الذين يصيرون إلى الجنة . فتح الباري ، لابن حجر ٣٧٣/١١ ، ٣٧٤ ، ٤٤٢ .

(٥١٤) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٢٠) .

(٥١٥) فتح الباري ٣٧٦/١١ (باختصار).

(٥١٦) جامع الترمذي ، أبواب تفسير القرآن ، ح (٣٣٣٣) ، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي والألباني . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٠٨١) .

(٥١٧) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، ح (٣٢٠٠) .

(٥١٨) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥١٩) .

(٥١٩) صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، ح (١٤٧٤).

عمران بن حصين ﷺ : (أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره ، وقد تفاوت بين أصحابه السير ، رفع بهاتين الآيتين صوته : أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل حتى بلغ آخر الآيتين ، فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تأشبوا حوله قال : أتدرون أي يوم ذاك ؟ ذاك يوم ينادى آدم ؛ فيناديه ربه فيقول: يا آدم[٥٢٠]ابعث بعثا إلى النار ؛ فيقول :يا رب وما بعث النار؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين في النار، وواحد في الجنة)[٥٢١]، وفي رواية: (فحينئذ تضع الحامل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) [٥٢٢].

٦- أن زلزلة الساعة لو كانت في آخر الدنيا لما رآها إلا من تدركهم الساعة وهم أحياء ، وهذا خلاف ما دل عليه القرآن من أن الناس جميعا يرونها ، وتذهلهم شدائدها وأهوالها ؛ قال تعالى : (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) ، الحج : ٢ . ولا يشكل على هذا ذِكْر الرضاع والحمل في الآية[٥٢٣]؛ لأنه لا يختص بالدنيا ، بل يكون في الآخرة أيضا ؛ قال ابن حجر : كل أحد يبعث على ما مات عليه، فتبعث الحامل حاملا، والمرضع مرضعة، والطفل طفلا، فإذا وقعت زلزلة الساعة

---

(٥٢٠) إنما خص آدم بذلك لكونه والد الجميع ، ولكونه قد عرف أهل السعادة من أهل الشقاء ، فقد رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء وعن يمينه أسودة وعن شماله أسوده . فتح الباري ٣٨٩/١١.

(٥٢١) مسند الإمام أحمد ، ح (١٩٩٠١) ، وهو حديث صحيح . انظر : تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط ورفاقه ، ج ٣٣ ، ص ١٣٥ .

(٥٢٢) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٧٤١) .

(٥٢٣) تعلق بذكر الرضاع والحمل في الآية كثير من أهل العلم ، ورأوا أن في ذلك دلالة على أن زلزلة الساعة إنما تكون في الدنيا ؛ إذ ليس بعد البعث حمل ولا إرضاع . ويرد هذا القول ما جاء في حديث إخراج بعث النار من ذرية آدم عليه السلام؛ حيث قال النبي ﷺ : (فعنده يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها) . صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، ح (٣٣٤٨) ؛ فعلم من ذلك أن ذكر الحمل والرضاع لا يمنع من كون الزلزلة في الآخرة ؛ لأن كل أحد يبعث على ما مات عليه بما في ذلك الحامل والمرضع والطفل . انظر : فتح الباري ١١ / ٣٩٠ .

، وقيل ذلك لآدم ، ورأى الناس آدم ، وسمعوا ما قيل له، وقع بهم من الوجل ما يسقط معه الحمل، ويشيب له الطفل ، وتذهل به المرضعة[٥٢٤].

أهوال القيامة

أهوال القيامة ليست قاصرة على زلزلة الأرض ، ودك جبالها ، وتفجير بحارها ، وانشقاق السماء ، وتكوير شمسها ، وانكدار نجومها ، وغير ذلك من مظاهر تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، وإنما يكون مع ذلك أمور عظيمة ؛ منها :-

الأول : عموم الخوف من أهوال القيامة ؛ فإذا دعا داعي الله إلى موقف القيامة خرج الناس من قبورهم مسرعين فزعين ؛ لعظم ما دعوا له ؛ قال تعالى : (يوم يدع الداع إلى شيء نكر) القمر : ٦ ؛ أي شيء عظيم لم يروا مثله ؛ وهو موقف الحساب ، وما يكون فيه من الأهوال[٥٢٥]؛ ولهذا يقول آدم عليه السلام : (إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي)[٥٢٦]، وثبت نظير ذلك عن نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى[٥٢٧] عليهم السلام ، ولا يشكل على عموم هذا الخوف قوله تعالى : (لا يحزنهم الفزع الأكبر) الأنبياء : ١٠٣ ، وقوله : (وهم من فزع يومئذ آمنون) النمل : ٨٩ ، لأن أدلة الإثبات محمولة على توقع المخوف ، وأدلة النفي محمولة على وقوعه بالفعل إلا ما استثني من أفراده ؛ كالصعق يوم القيامة إذا تجلي الله تعالى ، وجاء لفصل القضاء بين عباده ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعا : (الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ؛ فلا أدري أفاق قبلي ، أم جوزي بصعقة الطور)[٥٢٨]؛

---

(٥٢٤) فتح الباري ١١/ ٣٩٠ ، وانظر في تبدل العالم : انظر : تفسير القرطبي ٣/١٢، ٤ ، التذكرة ، للقرطبي ، ٢٣٤/١ ، تفسير ابن كثير ٣٧٨/٥-٣٨٤ ، فتح الباري ، لابن حجر ١١ / ٣٧٢-٣٧٨ ، ٣٨٨- ٣٩٢ .

(٥٢٥) انظر : تفسير ابن كثير ، ٨٧/٧ .

(٥٢٦) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٤).

(٥٢٧) المرجع السابق .

(٥٢٨) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، ح (٣٣٩٨) . وهذا هو اللفظ المحفوظ ، الذي عليه المعنى الصحيح

ولهذا كان خوف أهوال القيامة من صفات عِلْية المؤمنين ؛ قال تعالى : (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) النور : ٣٧ ، وقال : (ويخافون يوما كان شره مستطيرا) الإنسان : ٧ ؛ قال عمر بن الخطاب ﷺ : (لو كان لي طلاع الأرض ذهبا لافتديت به من هول المطلع)[٥٢٩]، ولما قرئ على ابن وهب كتابا صنفه في أهوال القيامة خر مغشيا عليه ، فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد أيام[٥٣٠].

الثاني : حشر الناس حفاة عراة غرلا ؛ قال النبي ﷺ : (إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ، ثم قرأ : كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم)[٥٣١]؛ وأما حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد، فلبسها، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الميت يبعث في ثيابه

؛ لأن هذا الصعق إنما يكون يوم القيامة إذا تجلي الله تعالى لعباده لفصل القضاء ، وأما حديث : (إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشا بقائمة العرش) فالأظهر أنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث ؛ قال ابن أبي العز الحنفي : لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال ، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث، فركب بين اللفظين، فجاء هذان الحديثان هكذا :"أحدهما" إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق"، ... ، والثاني" أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة " ، فدخل على الراوي هذا الحديث في الآخر. وممن نبه على هذا أبو الحجاج المزي، وبعده الشيخ شمس الدين بن القيم، وشيخنا الشيخ عماد بن كثير، رحمهم الله ... والمحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول، وعليه المعنى الصحيح، فإن الصعق يوم القيامة لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء . شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤١٣ ، ٤١٤ .

(٥٢٩) المطلع يريد به الموقف يوم القيامة ، أو ما يشرف عليه من أمر الآخرة عقب الموت . انظر : تأويل مختلف الحديث ، ١٨٠ ، النهاية ، لابن الأثير ١٣٣/٣ .

(٥٣٠) انظر : تهذيب التهذيب ، لابن حجر ٧٣/٦ ، الوعد الأخروي ١٠٧/١-١١٤ .

(٥٣١) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، ح (٣٣٤٩) . ولا يلزم من تخصيص إبراهيم عليه السلام بأنه أول من يكسى أن يكون أفضل من نبينا ﷺ مطلقا، فيكسى أولا ، ثم يكسى نبينا ﷺ على ظاهر الخبر، لكن حلة نبينا أعلى وأكمل ؛ فتجبر نفاستها ما فات من الأولية، والله أعلم . انظر : فتح الباري ٣٨٤/١١ ، ٣٨٥ . وقد تكلم العلماء في حكمة تقديم إبراهيم بالكسوة ، واختلفوا في ذلك على أقوال أحسنها أن يكون الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس كما يفعل بمن يراد قتله، وكان ما أصابه من ذلك في ذات الله ﷻ ، فلما صبر واحتسب، وتوكل على الله تعالى دفع عنه شر النار في الدنيا والآخرة، وجزاه بذلك العري أن جعله أول من يدفع عنه العري يوم القيامة على رؤوس الأشهاد . انظر : التذكرة ، للقرطبي ، ٢٠٩/١ .

التي يموت فيها)[٥٣٢]؛ فالظاهر أن المقصود بالثياب في الحديث العمل ؛ قال البغوي : معنى الثياب العمل، يريد أنه يبعث على ما مات عليه من عمل صالح، أو عمل سيء ، ولم يرد به الثوب نفسه، بدليل الحديث الصحيح يحشر الناس حفاة عراة ، والعرب تقول : فلان طاهر الثياب إذا وصفوه بطهارة النفس، والبراءة من العيوب، وفلان دنس الثياب : إذا كان بخلاف ذلك، وقيل في قوله سبحانه وتعالى : وثيابك فطهر ؛ أي: عملك فأصلح[٥٣٣]. ولأهل العلم توجيهات أخرى للحديث ، منها القول بأن البعث غير الحشر ؛ فيجوز أن يكون البعث مع الثياب ، والحشر مع العري والحفا ، ومنها حمل حديث أبي سعيد على الشهداء؛ لأنهم الذين أمر أن يزملوا في ثيابهم، ويدفنوا فيها ؛ قال ابن حجر : يحتمل أن يكون أبو سعيد سمعه في الشهيد، فحمله على العموم، وممن حمله على عمومه معاذ بن جبل ﷺ ، فأخرج ابن أبي الدنيا بسند حسن، عن عمرو بن الأسود قال : دفنا أم معاذ بن جبل فأمر بها فكفنت في ثياب جدد ؛ وقال: أحسنوا أكفان موتاكم، فإنهم يحشرون فيها[٥٣٤].

ويتعلق بصفة الحشر مسألتان :-

١- يحشر الكفار كسائر الناس حفاة عراة غرلا ، ويزيدون عليهم بسواد الوجوه ، وزرقة العيون ، والمشي على الوجوه ؛ قال تعالى : (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) آل عمران : ١٠٦ ، وقال : (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) طه : ١٠٢ ؛ قال البغوي : يحشرون زرق العيون ، سود الوجوه[٥٣٥]، وقال تعالى : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا) الإسراء : ٩٧ ؛ عن أنس بن مالك ﷺ أن رجلا قال : (يا نبي الله كيف يحشر الكافر

---

(٥٣٢) سنن أبي داود ، كتاب الجنائز ، ح (٣١١٤) . وإسناده صحيح . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٦٧١) ، تخريج شعيب الأرنؤوط لشرح السنة ٣١٦/٥ .

(٥٣٣) شرح السنة ، للبغوي ٣١٦/٥ ، ٣١٧ .

(٥٣٤) فتح الباري ٣٨٣/١١ ، وانظر : التذكرة ، للقرطبي ٢١٠/١ ، تهذيب معالم السنن ، لابن القيم ٢٨٥/٤ .

(٥٣٥) تفسير البغوي ، ٢٣١/٣ .

على وجهه ؟ قال : أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة)[٥٣٦]. وأما العمى والبكم والصمم فقد نص في آيات أخرى على أنهم يوم القيامة يبصرون وينطقون ويسمعون ؛ قال تعالى : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) مريم : ٣٨ ، وقوله : (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) السجدة : ١٢ ، وقوله : (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) فصلت : ٢١ ؛ ولهذا حمل بعض أهل العلم نصوص النفي على انتفاء النفع لا الأصل ؛ قال ابن عباس ﷺ : عميا لا يرون ما يسرهم ، بكما لا ينطقون بحجة ، صما لا يسمعون شيئا يسرهم ، ويؤثر عن مجاهد ، وأبي صالح ، والسدي نحوه . وحمل فريق آخر من أهل العلم نصوص النفي على حال ، ونصوص الإثبات على حال آخر ، وأظهر ما قيل في ذلك : أن نصوص الإثبات محمولة على ما قبل الاستقرار في النار ، ونصوص النفي محمولة على ما بعده ؛ فإذا دخلوا النار ، واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق بعد أن يقول لهم الرب تعالى : (اخسؤوا فيها ولا تكلمون) المؤمنون : ١٠٨ ، وحينذاك يكونون كما قال تعالى : (لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون) الأنبياء : ١٠٠ . وأما ما قبل ذلك فالنصوص متواطئة على الإثبات ؛ كقوله تعالى : (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي) الشورى : ٤٥ ، وقوله : (ورأى المجرمون النار) الكهف : ٥٣ ، وقوله : (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) الأنعام : ٢٧ ، وقوله : (كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء) الملك : ٨ ، ٩ ، وقوله : (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) الأعراف : ٥٠ ، وقوله : (وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) غافر : ٤٩[٥٣٧].

---

(٥٣٦) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٢٣).

(٥٣٧) انظر : تفسير البغوي ، للآية (٩٧) من سورة الإسراء ، التذكرة ، للقرطبي ١/٢٠٥-٢٠٨ ، مفتاح دار

٢- رأى بعض أهل العلم أن حشر القيامة خاص بالمكلفين ، وأن المراد بحشر البهائم موتها لا بعثها ، وهو قول عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، ورواية عن ابن عباس . وذهب جمهور أهل العلم إلى أن الحشر يعم البهائم والدواب والطير ، وهو الصحيح ؛ لقوله تعالى : (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) الأنعام : ٣٨ ، وقوله : (وإذا الوحوش حشرت) التكوير : ٥ ، وقول النبي ﷺ : (لتؤدن الحقوق إلى أهلهـــا يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)[٥٣٨]؛ قال النووي : هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين وكما يعاد الأطفال والمجانين ومن لم تبلغه دعوة ، وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة[٥٣٩].

الثالث : انقطاع العلائق بين العباد ؛ فيوم القيامة يتبرأ القادة والأتباع بعضهم من بعض ، وينقطع نفع الأنساب والأصهار والأخلاء ، ويرى الرجل قريبه عيانا فيعرض عنه ، ولا يسأله عن شأنه ولا يكلمه ؛ لعظم الأهوال والشدائد ، واشتغال كل امرئ بنفسه حتى لا يسعه ذكر غيره ؛ قال تعالى : (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) البقرة ١٦٦؛ أي الصلات التي كانت بينهم في الدنيا ، وقال تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) لقمان : ٣٣ ، وقال : (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) المؤمنون : ١٠١ ، وقال : (ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه) المعارج : ١٠-١٤ ، وقال : (يوم يفر المرء من أخيه

السعادة ، لابن القيم ١/ ١٢٠-١٢٤ ، تفسير ابن كثير للآية (١٢٥) من سورة طه .

(٥٣٨) صحيح مسلم ، باب البر والصلة ، ح (٢٥٨٢). وانظر لمعرفة المزيد من الأدلة على حشر البهائم والدواب والطير : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٩٦٦ ، ١٩٦٧).

(٥٣٩) شرح صحيح مسلم ١٣٦/١٦ ، وانظر : التذكرة ، للقرطبي ٢٧٣/١ ، ٣٧٤ ، تفسير ابن كثير ٥٣٤/٣ ، ٤٩١/٧ .

وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) عبس : ٣٤-٣٧ . ويستثنى من انقطاع علائق العباد سببان :-

١- نسب النبي ﷺ وصهره ؛ لقوله ﷺ : (إن الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي وسببي[٥٤٠] وصهري)[٥٤١]، وقوله : (ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بلى ، والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة)[٥٤٢]؛ ولهذا تزوج عمر بن الخطاب رضي الله عنه أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأصدقها أربعين ألفا ؛ إعظاما و إكراما . وشرط الانتفاع بهذا السبب الإيمان بالله ورسوله ؛ لقول النبي ﷺ : (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئا)[٥٤٣]؛ فمن لم يشتر نفسه ؛ أي ينقذها من عذاب الكفر بالإسلام فإن النبي ﷺ لا يغني عنه شيئا . والانتفاع بهذا السبب الشريف عام في مواطن القيامة كلها ، ولا يشكل على ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها : (أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك؟ قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ : أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا ؛ عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل ، وعند الكتاب حين يقال : هاؤم اقرءوا كتابيه حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله

---

(٥٤٠) النسب بالولادة ، والسبب بالزواج . النهاية ، لابن الأثير ٣٢٩/٢.

(٥٤١) مسند الإمام أحمد ، ح (١٨٩٠٧) . قال الألباني : صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح ٤١٨٩ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح ١٩٩٥.

(٥٤٢) مسند الإمام أحمد ، ح (١١١٣٨)، والحديث صحيح لغيره . انظر : تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط ورفاقه ٢٢١/١٧.

(٥٤٣) صحيح البخاري ، كتاب الوصايا ، ح (٢٧٥٣).

أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم)[٥٤٤]؛ وذلك لأن الحديث ضعيف الإسناد ؛ فلا يخص هذه المواطن من عموم الانتفاع بنسب النبي ﷺ وصهره .

٢- شفاعة المؤمنين بعضهم في بعض ؛ لقول الله تعالى : (يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون إلا من رحم الله) الدخان : ٤١ ، ٤٢ ؛ فالقريب لا ينفع قريبه يوم القيامة ، ولا يدفع عنه شيئا من عذاب الله تعالى إلا من رحم الله من المؤمنين ، وأذن لأقربائهم بالشفاعة فيهم ؛ إما في زيادة ثوابهم أو درء عقابهم ؛ قال تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين) الطور : ٢١ ، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعا : (يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته)[٥٤٥]، وفي رواية : (ويشفع في سبعين من أقاربه)[٥٤٦]. وهذا السبب لا يختص بالأقارب ، بل يكون منهم ومن وغيرهم من المؤمنين ؛ قال تعالى : (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) طه : ١٠٩ ، وقال : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) الأنبياء : ٢٨ ؛ وأهل رضى الله هم أهل التوحيد ولو كانوا من أصحاب الكبائر ؛ لقول النبي ﷺ : (لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا)[٥٤٧]، وقوله : (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[٥٤٨]. والأحاديث في هذا السبب العظيم متواترة[٥٤٩].

---

(٥٤٤) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، ح (٤٧٥٥). وإسناده ضعيف . انظر : ضعيف الترغيب والترهيب ٤٢٢/٢ ، ح (٢١٠٨).

(٥٤٥) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، ح (٢٥٢٢). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٨٠٩٣).

(٥٤٦) جامع الترمذي ، أبواب فضائل الجهاد ، ح (١٦٦٣). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٥١٨٢).

(٥٤٧) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٩).

(٥٤٨) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، ح (٤٧٣٩). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٣٧١٤).

(٥٤٩) انظر : تفسير البغوي وابن كثير ، للآية : (١٦٦) ، من سورة البقرة ، والآية (١٠١) ، من سورة المؤمنون ،

الرابع : طول يوم القيامة وشدته ؛ قال تعالى : (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) المطففين : ٤-٦ ؛ عن ابن عمر ﷺ مرفوعا : (يوم يقوم الناس لرب العالمين في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، في الرشح إلى أنصاف آذانهم)[٥٥٠]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم ، فيجعل صفائح ، فيكوى بها جنباه وجبينه ، حتى يحكم الله بين عباده ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة)[٥٥١]. وهو مع هذا الطول العظيم شديد الحر ؛ لأمرين :-

١- دنو الشمس من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ؛ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد ؛ فيسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون)[٥٥٢]، وعن ابن عمر ﷺ مرفوعا : (يوم يقوم الناس لرب العالمين ؛ قال : يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه)[٥٥٣]؛ قال ابن حجر : الإشارة بمن يصل الماء إلى أذنيه إلى غاية ما يصل الماء، ولا ينفي أن يصل الماء لبعضهم إلى دون ذلك، فقد أخرج الحاكم من حديث عقبة بن عامر رفعه تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس، فمنهم من يبلغ عرقه عقبه، ومنهم من يبلغ نصف ساقه، ومنهم من يبلغ ركبته، ومنهم من يبلغ فخذه، ومنهم من يبلغ خاصرته، ومنهم من يبلغ منكبه، ومنهم من يبلغ فاه، وأشار بيده فألجمها فاه، ومنهم من يغطيه عرقه، وضرب بيده على رأسه، وله شاهد عند مسلم من حديث المقداد بن الأسود، وليس بتمامه ، وفيه : تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون

والآيات (٤٠-٤٢) من سورة الدخان ، وكذلك سير أعلام النبلاء ، للذهبي ٣/٥٠٠-٥٠٣.

(٥٥٠) مسند الإمام أحمد ، ح (٥٩١٢). صححه الأرنؤوط في تخريج أحاديث المسند ، ١٠/١٤٥.

(٥٥١) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، ح (٩٨٧).

(٥٥٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٤).

(٥٥٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٣١).

الناس على قدر أعمالهم في العرق الحديث[٥٥٤]؛ فإنه ظاهر في أنهم يستوون في وصول العرق إليهم، ويتفاوتون في حصوله فيهم[٥٥٥].

٢- تسجير البحار ، والإتيان بجهنم من محلها حتى تحف بأرض المحشر ؛ قال تعالى : (وإذا البحار سجرت) التكوير : ٦ ؛ أي أضرمت فصارت نارا تأجج ، وتحيط بأهل الموقف ، كما فسرها بذلك علي بن أبي طالب ﷺ وغيره من السلف[٥٥٦]، وعن ابن مسعود ﷺ مرفوعا : (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)[٥٥٧]؛ قال أبو العباس القرطبي : يعني أنها يجاء بها من المحل الذي خلقها الله فيه ، فتدار بأرض المحشر ، حتى لا يبقى للجنة طريق إلا الصراط ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ... وهذه الأزمة التي تساق جهنم بها أيضا تمنع من خروجها على أهل المحشر ، فلا يخرج منها إلا الأعناق التي أمرت بأخذ من شاء الله أخذه[٥٥٨]. وقال ابن حجر : من تأمل الحالة المذكورة عرف عظم الهول فيها، وذلك أن النار تحف بأرض الموقف، وتدنى الشمس من الرءوس قدر ميل، فكيف تكون حرارة تلك الأرض، وماذا يرويها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعا ، مع أن كل واحد لا يجد إلا قدر موضع قدمه، فكيف تكون حالة هؤلاء في عرقهم مع تنوعهم فيه، إن هذا لمما يبهر العقول ، ويدل على عظيم القدرة ، ويقتضي الإيمان بأمور الآخرة أن ليس للعقل فيها مجال، ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس ولا عادة، وإنما يؤخذ بالقبول ويدخل تحت الإيمان بالغيب، ومن توقف في ذلك دل على خسرانه وحرمانه[٥٥٩]. والناس متفاوتون فيما ينالهم من هذه الكرب بحسب إيمانهم و أعمالهم

---

(٥٥٤) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٦٤).

(٥٥٥) فتح الباري ١١ / ٣٩٤ .

(٥٥٦) انظر : تفسير ابن كثير ٤٢/٧ ، ٤٩٢

(٥٥٧) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٤٢).

(٥٥٨) المفهم ١٨٦/٧ ، ١٨٧ .

(٥٥٩) فتح الباري ٣٩٥/١١.

، ومنهم من ينجو منها إما لكمال إيمانه ، أو لأنه أتى الله بخصلة عليا من خصال الإيمان ؛ وبيان ذلك من وجهين :

١- الإيمان الكامل ؛ قال تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) يونس : ٦٢، ٦٣ ، وقال : (لا يحزنهم الفزع الأكبر) الأنبياء : ١٠٣ ، وقال : (وهم من فزع يومئذ آمنون) النمل : ٨٩ ، عن أنس بن مالك ﷺ مرفوعا : (الخلق ملجمون في العرق ، وأما المؤمن فهو عليه كالزكمة ، وأما الكافر فيتغشاه الموت)[٥٦٠]، وعن عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعا : (يشتد كرب ذلك اليوم حتى يلجم الكافر العرق، قيل له :فأين المؤمنون؟ قال :على الكراسي من ذهب، ويظلل عليهم الغمام)[٥٦١]، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : (قيل لرسول الله ﷺ : يوما كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا)[٥٦٢] ، وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : (يقوم الناس لرب العالمين مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، فيهون ذلك اليوم على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب)[٥٦٣]. وبهذه الأحاديث ونظائرها خص أهل العلم عموم قول النبي ﷺ : (يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم)[٥٦٤]، قال ابن حجر : جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن الذي يلجمه العرق الكافر ، أخرجه البيهقي في البعث بسند حسن

---

(٥٦٠) مسند الإمام أحمد ، ح (١٢٨٢٤). صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ، ح (٣٦٣٩).

(٥٦١) كتاب البعث ، للبيهقي ، باب ما جاء في الحشر ، ص ٨٤ . وسنده حسن . انظر : فتح الباري ٣٩٤/١١.

(٥٦٢) مسند الإمام أحمد ، ح (١١٧١٧) . قال ابن حجر : سنده حسن . فتح الباري ٤٤٨/١١.

(٥٦٣) مسند أبي يعلى ، ح (٦٠٢٥). وإسناده صحيح لكن قوله نصف يوم غريب ؛ لمخالفته ما في الصحيح بلفظ : في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢٨١٧) . ج ٦ ، ص ٧٦٨ ، ٧٦٩.

(٥٦٤) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٣٢).

... وبسند قوي عن أبي موسى قال : الشمس فوق رءوس الناس يوم القيامة، وأعمالهم تظلهم. وأخرج ابن المبارك في الزهد، وابن أبي شيبة في المصنف، واللفظ له بسند جيد عن سلمان ﷺ قال : تعطى الشمس يوم القيامة حر عشر سنين، ثم تدنى من جماجم الناس حتى تكون قاب قوسين، فيعرقون حتى يرشح العرق في الأرض قامة، ثم ترتفع حتى يغرغر الرجل ، زاد ابن المبارك في روايته : ولا يضر حرها يومئذ مؤمنا ولا مؤمنة ؛ قال القرطبي : المراد من يكون كامل الإيمان؛ لما يدل عليه حديث المقداد(٥٦٥)وغيره أنهم يتفاوتون في ذلك بحسب أعمالهم(٥٦٦).

٢- خصال الإيمان العليا ؛ كالعدل في الإمامة ، والشهادة في سبيل الله تعالى ، والتجاوز عن المعسرين ؛ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله(٥٦٧)؛ إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابا في الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها قال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه)(٥٦٨)، وعن المقدام بن معدي كرب ﷺ مرفوعا : (للشهيد عند الله ست خصال ؛ يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر ... الحديث)(٥٦٩)، وعن أبي

---

(٥٦٥) يعني ما رواه مسلم بسنده عن المقداد بن الأسود ﷺ مرفوعا : (تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فتكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون الى كعبيه ، ومنهم من يكون ركبتيه ، ومنهم من يكون الى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق الجاما) . صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح ، (٤٦٨٢) .

(٥٦٦) فتح الباري ١١ / ٣٩٤ . وانظر : التذكرة ، للقرطبي ٢٣٩/١ ؛ ففي هذا الموضع إضافة مهمة تدل على أن هذه الفضيلة ليست قاصرة على أصحاب الإيمان الكامل ؛ ونص عبارته : المراد والله أعلم : لا يضر مؤمنا كامل الإيمان، أو من استظل بظل عرش الرحمن ،كما في الحديث الصحيح سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

(٥٦٧) أي في ظل عرشه ، كما ثبت في بعض طرق الحديث . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ١٤٤/٢ .

(٥٦٨) صحيح البخاري ، كتاب الحدود ، ح (٦٨٠٦).

(٥٦٩) جامع الترمذي ، أبواب فضائل الجهاد ، ح (١٦٦٣). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح(٥١٨٢).

الدرداء ﷺ مرفوعا : (رباط شهر خير من صيام دهر ، ومن مات مرابطا في سبيل الله أمن من الفزع الأكبر)[٥٧٠]، وعن أبي قتادة ﷺ : مرفوعا : (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر، أو يضع عنه)[٥٧١]، وعن عدي بن حاتم ﷺ عن النبي ﷺ قال : (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ؛ فاتقوا النار ولو بشق تمرة)[٥٧٢]؛ قال ابن رجب : أخبر النبي ﷺ أن العبد إذا وقف بين يدي ربه للحساب فإنه تستقبله النار تلقاء وجهه ، وأخبر أن الصدقة تقي صاحبها من النار[٥٧٣]، وعن عقبة بن عامر ﷺ مرفوعا : (كل امرئ في ظل صدقته حتى يفصل بين الناس)[٥٧٤]، وعن أبي موسى ﷺ : مرفوعا : (الشمس فوق رؤوس الناس يوم القيامة، وأعمالهم تظلهم)[٥٧٥]. وإثبات الظل للصدقات والأعمال لا يشكل على الحصر في قول النبي ﷺ : (سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله)[٥٧٦]؛ لأن كل ذلك من ظل العرش[٥٧٧]. وهذه النصوص التي دلت على نجاة بعض الموحدين من كرب القيامة بخصال معينة من خصال الخير يقابلها نصوص أخرى دلت على تعذيب بعضهم بكبائر معينة زيادة على أهوال القيامة، منها :-

---

(٥٧٠) قال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله ثقات ، وصححه الألباني . انظر : مجمع الزوائد ٢٩٣/٥ ، صحيح الجامع الصغير ، ح (٣٤٧٩).

(٥٧١) صحيح مسلم ، كتاب المساقاة ، ح (١٥٦٣).

(٥٧٢) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، ح (٧٥١٢).

(٥٧٣) رسائل ابن رجب ٣٦٢/٤ .

(٥٧٤) مسند الإمام أحمد ، ح (١٧٣٣٣). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٤٥١٠).

(٥٧٥) كتاب البعث ، للبيهقي ، باب ما جاء في الحشر ، ص ٨٣ . وإسناده قوي . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٣٩٤/١١ .

(٥٧٦) صحيح البخاري ، كتاب الحدود ، ح (٦٨٠٦).

(٥٧٧) انظر : التذكرة ، للقرطبي ، ٢٣٩/١ .

١- منع الزكاة ؛ عن أبي هريرة ﷺ : (ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة، صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله ؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار ... الحديثَ)[٥٧٨]؛ قال ابن حجر : وهو دال على تعذيب من شاء الله من العصاة بالنار حقيقة زيادة على كرب الموقف[٥٧٩].

٢- الغلول ؛ أي الخيانة في المغنم ، والسرقة من الغنيمة قبل القسمة[٥٨٠]؛ عن أبي هريرة ﷺ قال : (قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، قال : لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، على رقبته فرس له حمحمة، يقول : يارسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك ، وعلى رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، وعلى رقبته صامت فيقول: يا رسول الله أغثني ، فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، أو على رقبته رقاع تخفق ، فيقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك)[٥٨١]؛ قال المهلب: هذا الحديث وعيد لمن أنفذه الله عليه من أهل المعاصي، ويحتمل أن يكون الحمل المذكور لا بد منه عقوبة له بذلك ليفتضح على رءوس الأشهاد، وأما بعد ذلك فإلى الله الأمر في تعذيبه أو العفو عنه، وقال غيره : هذا الحديث يفسر قوله عز وجل: (يأت بما غل يوم القيامة) آل عمران : ١٦١؛ أي يأت به حاملا له على رقبته، ولا يقال إن بعض ما يسرق من النقد أخف من البعير مثلا ، والبعير أرخص ثمنا ، فكيف يعاقب الأخف جناية بالأثقل وعكسه ؟ لأن الجواب أن المراد بالعقوبة بذلك فضيحة الحامل على رءوس الأشهاد في ذلك الموقف العظيم لا

---

(٥٧٨) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، ح (٩٨٧).

(٥٧٩) فتح الباري ٤٣٩/١١.

(٥٨٠) انظر : النهاية ، لابن الأثير ٣٨٠/٣ ، فتح الباري ، لابن حجر ١٨٥/٦.

(٥٨١) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، ح (٣٠٧٣).

بالثقل والخفة[٥٨٢].

٣- الغدر ؛ وهو نقض العهد ، وترك الوفاء به[٥٨٣]؛ عن ابن عمر ﷺ مرفوعا : (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء ، فقيل هذه غدرة فلان بن فلان) [٥٨٤]، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعا :(لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره) [٥٨٥]، وفي رواية : (لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة)[٥٨٦]؛ قال أبو العباس القرطبي : هذا منه ﷺ خطاب للعرب بنحو ما كانت تفعل، وذلك أنهم يرفعون للوفاء راية بيضاء، وللغدر راية سوداء، ليشهروا به الوفي، فيعظموه، ويمدحوه، والغادر فيذموه، ويلوموه بغدره. وقد شاهدنا هذا فيهم عادة مستمرة إلى اليوم ؛ فمقتضى هذا الحديث أن الغادر يفعل به مثل ذلك؛ ليشهر بالخيانة والغدر، فيذمه أهل الموقف، ولا يبعد أن يكون الوفي بالعهد يرفع له لواء يعرف به وفاؤه وبره، فيمدحه أهل الموقف، كما يرفع لنبينا محمد ﷺ لواء الحمد فيحمده كل من في الموقف[٥٨٧].

٤- أخذ شيء من الأرض بغير حق ؛ عن سعيد بن زيد ﷺ مرفوعا : (من ظلم من الأرض شيئا طوقه من سبع أرضين) [٥٨٨]، وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه كانت بينه وبين أناس خصومة في أرض ، فدخل على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فذكر لها ذلك فقالت : يا أبا سلمة ، اجتنب الأرض ، فإن رسول الله ﷺ قال : (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين)[٥٨٩]، وعن ابن عمر ﷺ مرفوعا : (من أخذ من الأرض شيئا بغير حقه خسف به

---

(٥٨٢) نقلا عن فتح الباري ، لابن حجر ١٨٦/٦.

(٥٨٣) معجم مقاييس اللغة ٤١٣/٤.

(٥٨٤) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، ح (١٧٣٥). قال القرطبي : قوله هذه غدرة فلان بن فلان دليل على أن الناس يدعون في الاخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وفي هذا رد على من قال: إنما يدعون بأسماء أمهاتهم، لأن في ذلك سترا على آبائهم . التذكرة ٣٠٠/١ .

(٥٨٥) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، ح (١٧٣٨).

(٥٨٦) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، ح (١٧٣٨).

(٥٨٧) المفهم ٣/ ٥٢٠ .

(٥٨٨) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، ح (٢٤٥٢).

(٥٨٩) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، ح (٢٤٥٣) .

يوم القيامة إلى سبع أرضين)[٥٩٠]، وعن يعلى بن مرة ﷺ مرفوعا : (أيما رجل ظلم شبرا من الأرض كلفه الله أن يحفره حتى يبلغ سبع أرضين ، ثم يطوقه يوم القيامة حتى يفصل بين الناس)[٥٩١].

الخامس : المحاسبة ؛ أي وقوف العباد بين يدي الله تعالى بلا حجاب ولا ترجمان ؛ ليسألهم عما عملوا فيما بلغتهم الرسل ، ويخبرهم بما أحصي من أعمالهم ؛ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ؛ قال تعالى : (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) الأعراف : ٦، ٧ ، وقال : (يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد) المجادلة : ٦ ، وقال النبي ﷺ : (ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة ليس بين الله وبينه ترجمان)[٥٩٢]، وفي رواية : (ولا حجاب يحجبه)[٥٩٣]، وقال : (لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس ، عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم)[٥٩٤]، وقال ابن مسعود ﷺ : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ؛ فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة فتطاير الكتب في الأيمان والشمائل[٥٩٥]؛ أي يعرضون على الله ثلاث مرات ؛ فأما المرة الأولى فيحاجون ويدفعون عن أنفسهم ، ويقولون : ما أتانا من نذير ، وفي الثانية يعترفون ويعتذرون ، وفي الثالثة تطاير

---

(٥٩٠) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، ح (٢٤٥٤).

(٥٩١) صحيح ابن حبان ، ح (٢٨٣٠) ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢٤٠). وقد ذكر أهل العلم في صفة الوعيد بالتطويق من سبع أرضين عدة معان ، أظهرها المعنى الذي دل عليه هذا الحديث . انظر لمعرفة سائر المعاني : فتح الباري ، لابن حجر ، ١٠٤/٥ ، ١٠٥.

(٥٩٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٣٩).

(٥٩٣) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، ح (٧٤٤٣).

(٥٩٤) جامع الترمذي ، أبواب صفة القيامة ، ح (٢٤١٦). وإسناده حسن . انظر : صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، ح (٧٢٩٩).

(٥٩٥) البعث ، للبيهقي ، ح (٣٦٣) . وسنده حسن . انظر : فتح الباري ، لابن حجر : ٤٠٣/١١.

الصحف في أيدي المكلفين ؛ فمن كان من أهل السعادة وقعت في يمينه ، ومن كان من أهل الشقاوة وقعت في شماله[٥٩٦]. ويتعلق بمحاسبة العباد ثلاث مسائل :-

١- اختلف الناس في اللغة التي يتخاطب بها الناس في الآخرة ، فقيل العربية ، وقيل السريانية ، وقيل غير ذلك ، والصحيح أنه لا يعلم بأي لغة يتكلم الناس يومئذ ، ولا بأي لغة يسمعون خطاب الرب ﷻ ؛ لأن النصوص لم ترد بشيء من ذلك[٥٩٧].

٢- الأولية في الحساب تكون باعتبار الأمم ، وتكون باعتبار الأعمال ؛ فأول الأمم التي يقضى بينهم أمة سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ؛ لقول النبي ﷺ : (نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة ، المقضي لهم[٥٩٨]قبل الخلائق)[٥٩٩]، وقوله : (نحن آخر الأمم ، وأول من يحاسب ؛ يقال : أين الأمة الأمية، ونبيها ؛ فنحن الآخرون الأولون)[٦٠٠]، وقوله : (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة)[٦٠١]، قال ابن حجر : المراد أن هذه الأمة وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية فهي سابقة لهم في الآخرة ؛ بأنهم أول من يحشر ، وأول من يحاسب ، وأول من يقضى بينهم ، وأول من يدخل الجنة[٦٠٢]. وأما أول الأعمال التي يحاسب عليها العباد فالصلاة والدماء ؛ لقول النبي ﷺ : (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته)[٦٠٣]، وقوله : (أول ما يقضى بين الناس في الدماء)[٦٠٤]، قال ابن حجر : لا يعارض هذا حديث : إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ؛ لأن الأول محمول على ما

---

(٥٩٦) انظر : تحفة الأحوذي ، للمباركفوري ٩٤/٧.

(٥٩٧) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٠٠/٤ ، ٣٠١ .

(٥٩٨) أي بينهم ، كما في رواية واصل التي ذكرها الإمام مسلم مقرونة بهذه الرواية.

(٥٩٩) صحيح مسلم ، كتاب الجمعة ، ح (٨٥٦) .

(٦٠٠) سنن ابن ماجة ، كتاب الزهد ، ح (٤٢٩٠). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٦٧٤٩).

(٦٠١) صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، ح (٨٧٦).

(٦٠٢) فتح الباري ، ٣٥٤/٢ .

(٦٠٣) سنن النسائي ، كتاب الصلاة ، ح (٤٦٦). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٢٠٢٠).

(٦٠٤) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٣٣).

يتعلق بمعاملات الخلق ، والثاني فيما يتعلق بعبادة الخالق ، وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين ؛ ولفظه : أول ما يحاسب العبد عليه صلاته، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء[٦٠٥]. وأول دم يقضى فيه الدماء التي كانت في أول مبارزة وقعت في الإسلام ؛ قال علي بن أبي طالب ﷺ : (أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة . قال قيس بن عباد : وفيهم أنزلت هذان خصمان اختصموا في ربهم)[٦٠٦]؛ يعني هو ورفيقاه ؛ حمزة ، وعبيدة ، وخصومهم ؛ عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ؛ الذين بارزوا يوم بدر[٦٠٧]. وفي البدء بفصل الخصومة في الدماء دلالة على عظم شأنها ، وشدة خطرها ؛ ولهذا رأى بعض السلف أن من قتل عمدا وعدوانا فلا توبة له ؛ سئل ابن عباس ﷺ عمن قتل مؤمنا متعمدا ، ثم تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ؟ فقال ابن عباس : وأنى له التوبة، سمعت نبيكم ﷺ يقول : يجيء متعلقا بالقاتل ، تشخب أوداجه دما، يقول : أي رب سل هذا فيم قتلني[٦٠٨]. وأما باقي حقوق العباد فاستيفاؤها يكون بعد ذلك ، وقد يتأخر إلى ما بعد المرور على الصراط ؛ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها ؛ فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه)[٦٠٩]، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعا : (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ؛ فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله

---

(٦٠٥) فتح الباري ٣٩٦/١١ (باختصار).

(٦٠٦) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، ح (٣٩٦٥). ومعنى يجثو أي يقعد على ركبتيه مخاصما . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٢٩٧/٧.

(٦٠٧) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٢٩٧/٧ ، ٣٩٦/١١.

(٦٠٨) سنن النسائي ، كتاب تحريم الدم ، ح (٣٩٩٩). صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٨٠٣١).

(٦٠٩) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٣٤).

كان في الدنيا)[٦١٠]، وهؤلاء هم الذين علم الله أن القصاص لا يستنفد حسناتهم ، ولعل أصحاب الأعراف منهم على القول المرجح .. وخرج من هذا صنفان من المؤمنين ؛ من دخل الجنة بغير حساب ، ومن أوبقه عمله ... واختلف في القنطرة المذكورة ؛ فقيل : هي من تتمة الصراط، وهي طرفه الذي يلي الجنة، وقيل : إنهما صراطان، وبهذا الثاني جزم القرطبي[٦١١]؛ فقال في ذلك : اعلم رحمك الله أن في الآخرة صراطين، أحدهما مُجاز لأهل المحشر كلهم ، ثقيلهم وخفيفهم إلا من دخل الجنة بغير حساب، أو من يلتقطه عنق النار، فإذا خلص من خلص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفد حسناتهم، حبسوا على صراط آخر خاص لهم ، ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله ؛ لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم ، الذي يسقط فيها من أوبقه ذنبه ، وأربى على الحسنات بالقصاص جرمه[٦١٢].

٣- الناس في المحاسبة على أربعة أنواع :-

أ- من لا حساب عليهم ؛ وهم أهل الخصال العليا من الإيمان ؛ كالتوكل ، والصبر على البلاء الشديد[٦١٣]؛ قال القرطبي : قوله : "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل" عام ؛ لأنه نكرة في سياق النفي ، لكنه مخصوص بقوله : "يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب"[٦١٤]؛ أي بحديث عمران بن حصين ﷺ مرفوعا :

---

(٦١٠) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٣٥).

(٦١١) فتح الباري ، لابن حجر ٣٩٩/١١ .

(٦١٢) التذكرة ، للقرطبي ٣٣٨/٢ ، ٣٣٩.

(٦١٣) دليل هذه الخصلة حديث : (جاءت امرأة إلى النبي ﷺ بها لمم، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني ... الحديثَ) . وقد يقال : إن المدلول أعم من الدليل ؛ لأن الدليل خاص بالابتلاء باللمم ، والجواب عن ذلك أنه ورد في بعض طرق الحديث بإسناد صحيح ثبوت هذا الفضل في الابتلاء بالحمى الشديدة ، وهذا يقوي تعميم الحكم في كل بلاء شديد ، والله أعلم . انظر في طرق الحديث : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢٥٠٢).

(٦١٤) التذكرة ٢٦٣/١ (باختصار) .

(يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب . قالوا: من هم يا رسول الله ؟ قال : هم الذين لا يسترقون ، ولا يتطيرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون)[٦١٥]، ولهذا الحديث نظائر ؛ كحديث أبي هريرة ﷺ قال : (جاءت امرأة إلى النبي ﷺ بها لمم، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني، قال : إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت فاصبري، ولا حساب عليك قالت بل أصبر، ولا حساب علي)[٦١٦]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (إذا أدى العبد حق الله وحق مواليه، كان له أجران . قال : فحدثتها كعبا ؛ فقال كعب : ليس عليه حساب ، ولا على مؤمن مزهد)[٦١٧]؛ قال النووي : المزهد بضم الميم وإسكان الزاي ومعناه قليل المال ؛ والمراد بهذا الكلام أن العبد إذا أدى حق الله تعالى وحق مواليه فليس عليه حساب ؛ لكثرة أجره وعدم معصيته. وهذا الذي قاله كعب يحتمل أنه أخذه بتوقيف ، ويحتمل أنه بالاجتهاد ؛ لأن من رجحت حسناته وأوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا[٦١٨]. وفيما قاله النووي نظر ؛ لأن مقتضى كلام كعب أنه لا حساب عليه بالكلية ، لا أنه يحاسب حسابا يسيرا ، والنصوص قد فرقت بين الأمرين ؛ كما في حديث جابر ﷺ ؛ الذي عزاه الحافظ ابن حجر لابن أبي حاتم ، والحاكم ، بلفظ : (من زادت حسناته على سيئاته فذاك الذي يدخل الجنة بغير حساب ، ومن استوت حسناته وسيئاته فذاك الذي يحاسب حسابا يسيرا ، ثم يدخل الجنة ، ومن

---

(٦١٥) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (٣٧٢). وقد ورد في بعض النصوص الثابتة زيادة على العدد المذكور في هذا الحديث ، وأن مع كل ألف سبعون ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب ، وثلاث حثيات من حثيات ربي ﷻ . انظر : السنة ، لابن أبي عاصم ، بتحقيق الألباني ، ح (٥٨٨ ، ٥٨٩) ، الإصابة ، لابن حجر ١٤٩/٧ ، ١٥٠ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني ، ح (١٨٧٩ ، ٢١٧٩).

(٦١٦) مسند الإمام أحمد ، ح (٩٦٨٩) . وإسناده حسن . انظر : مجمع الزوائد ٣١٠/٢ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢٥٠٢) ، تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط ورفاقه ٤٣١/١٥.

(٦١٧) صحيح مسلم ، كتاب الأيمان ، ح (١٦٦٦).

(٦١٨) شرح صحيح مسلم ، ١٣٦/١١ .

زادت سيئاته على حسناته فذاك الذي أوبق نفسه، وإنما الشفاعة في مثله)[٦١٩].
وهذا الحديث إن ثبت فهو دليل على أن دخول الجنة بغير حساب لا يختص بأصحاب خصال الإيمان العليا ، وإنما يعم كل من رجحت حسناته بسيئاته ، وفضل الله واسع.

ب- من يحاسب حسابا يسيرا ؛ وهم فريق من المؤمنين تعرض عليهم ذنوبهم حتى يعرفوا منة الله عليهم في سترها والتجاوز عنها ؛ سئل ابن عمر رضي الله عنهما كيف سمعت رسول الله يقول في النجوى[٦٢٠]؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول : أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، فيقول : نعم أي رب ، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال : سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته)[٦٢١]، وهذا الحديث عند أهل العلم خاص ببعض الذنوب ، وليس عاما[٦٢٢]، ثم اختلفوا فيما أريد به من الذنوب ؛ فقيل : هي الذنوب التي تيب منها ، وأن الله تعالى وإن كان يغفرها إلا إنه لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقف التائب عليها يوم القيامة ، وقيل : هي الصغائر التي اقترفها المؤمن ، وقيل : الكبائر التي بينه وبين ربه ، وقيل : ما خطر بقلبه ولم يعمله ؛ لأن قوله تعالى : (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) البقرة : ٢٨٤ محكم غير منسوخ ، وقيل غير ذلك . والصحيح أن حديث النجوى مخصوص بمن اجتمع في ذنبه أمران ؛ أحدهما : أن يكون من الذنوب التي بين المرء وربه ؛ لأن مظالم العباد

---

(٦١٩) نقلا عن فتح الباري ٤٠٢/١١ . قال الألباني : سكت عنه الحافظ ابن حجر فهو حسن عنده ، والله أعلم ، ولم أقف عليه في مستدرك الحاكم . انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة ٦٧/١٣ .

(٦٢٠) أي المناجاة التي تقع من الرب سبحانه وتعالى يوم القيامة مع المؤمنين . انظر : فتح الباري ٤٨٨/١٠.

(٦٢١) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، ح (٢٤٤١).

(٦٢٢) هذا التخصيص مبني على نصوص أخرى دلت على محاسبة بعض الموحدين ومعاقبتهم حتى يأذن الله بخروجهم من النار بالشفاعة ، وعفو أرحم الراحمين . انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤٩/١، فتح الباري ، لابن حجر ٤٢٦/١١.

لا بد فيها من المقاصة إلا إذا أداها الله عن عبده بسبب نية صالحة أو عمل صالح ؛ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها ؛ فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه)[٦٢٣]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه)[٦٢٤]، وعن أنس ﷺ مرفوعا : (إن الله غفر لأهل عرفات وأهل المشعر وضمن عنهم التبعات)[٦٢٥]. والثاني : أن يكون من الذنوب المستورة ؛ كما يدل لذلك قول النبي ﷺ في حديث النجوى : (قال : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ؛ فيعطى كتاب حسناته)[٦٢٦]، وقوله : (لا يستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة)[٦٢٧]، وقوله : (كل أمتي معافى إلا المجاهرين)[٦٢٨]؛ أي كل واحد من هذه الأمة يعفى عن ذنبه إلا الذي أعلن معصيته ، وهتك ستر الله عليه[٦٢٩].

ج- أصحاب سوء الحساب ؛ أي المناقشة في جليل الذنوب ويسيرها ، والاستقصاء على المكلف في المحاسبة و المطالبة ، ومؤاخذته بكبار ذنوبه وصغارها ؛ سأل رجل الحسن البصري عن سوء الحساب، ما سوء الحساب يا أبا سعيد ؟ قال : سوء الحساب أن يؤاخذ العبد بخطاياه ولا يغفر له منها ذنب. وقال إبراهيم النخعي : سوء الحساب أن يؤاخذ العبد بذنوبه كلها، ولا يترك له منها شيء[٦٣٠]؛ عن عائشة رضي الله عنها

---

(٦٢٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٣٤).

(٦٢٤) صحيح البخاري ، كتاب الاستقراض ، ح (٢٣٨٧).

(٦٢٥) رواه ابن المبارك ، كما نص على ذلك المنذري وغيره ، وإسناده صحيح . انظر : الترغيب والترهيب ٣٩/٣ ، صحيح الترغيب والترهيب ، ح (١١٥١) ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ١٦٤/٤ (الطبعة الثالثة).

(٦٢٦) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، ح (٢٤٤١).

(٦٢٧) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة ، ح (٢٥٩٠).

(٦٢٨) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، ح (٦٠٦٩).

(٦٢٩) انظر : التذكرة ، للقرطبي ٢٦٣/١، ٢٦٤ ، فتح الباري ، لابن حجر ٤٨٦/١٠-٤٩٠ .

(٦٣٠) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، لأبي القاسم اللالكائي ١١٦٦/٦ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٥٧٠/٤ ، فتح

عن النبي ﷺ قال : (من نوقش الحساب عذب . فقالت عائشة : أليس يقول الله تعالى : فسوف يحاسب حسابا يسيرا ؟ قال : ذلك العرض)[٦٣١]، وفي رواية : (ليس ذاك الحساب ، إنما ذاك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب)[٦٣٢]؛ ولهذا كان الخوف من سوء الحساب شعبة من شعب الإيمان ؛ قال تعالى : (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) الرعد : ٢١ ، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : سمعت النبي ﷺ يقول في بعض صلاته : (اللهم حاسبني حسابا يسيرا ، فلما انصرف، قلت : يا نبي الله، ما الحساب اليسير؟ قال : أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه، إنه من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك)[٦٣٣].

د- الكفار ؛ اختلف أهل العلم في محاسبة الكفار ؛ فقيل : إنهم لا يحاسبون ، وإنما يخزون على رؤوس الأشهاد ، ثم يعذبون ، لقول النبي ﷺ في حديث النجوى :(وأما الكفار فينادى على رؤوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم)[٦٣٤]، وقوله : (إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله، بر أو فاجر)[٦٣٥]. وقيل : إنهم يحاسبون ؛ لدلالة النصوص على ذلك عموما وخصوصا ؛ قال تعالى : (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) الحجر : ٩٢،٩٣، وقال : (والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد) الرعد : ١٨ ؛ قال ابن الجوزي : والذين لم يستجيبوا له يعني الكفار ، وسوء الحساب هو الحساب السيء ،

الباري ، لابن حجر ٤٠١/١١.

(٦٣١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٣٦).

(٦٣٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٧٦).

(٦٣٣) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٤٢١٥). قال ابن كثير : صحيح على شرط مسلم . تفسير ابن كثير ٥١٨/٧.

(٦٣٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٦٨٥).

(٦٣٥) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٥٨١).

وفي المراد به ثلاثة أقوال ؛ أحدها : أنها المناقشة بالأعمال ، والثاني : أن لا تقبل منهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. والثالث : أنه التوبيخ والتقريع عند الحساب[٦٣٦]. وكأن هذه الأقوال من باب تفسير اللفظ ببعض أفراده ، وأن سوء حسابهم يعم هذه المعاني كلها ؛ قال تعالى : (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) الكهف : ٤٩ ، وقال : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) الفرقان : ٢٣ ، وقال : (وقفوهم إنهم مسؤولون ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون) الصافات : ٢٤-٢٦ ، وقال النبي ﷺ : (هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ قالوا :لا .قال :فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟ قالوا :لا .قال :فوالذي نفسي بيده، لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما .قال :فيلقى العبد فيقول: أي فل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول :بلى .قال :فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول :لا .فيقول :فإني أنساك كما نسيتني .ثم يلقى الثاني فيقول :أي فل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول :بلى، أي رب .فيقول :أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول :لا .فيقول :فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول :يا رب، آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وصمت وتصدقت. ويثني بخير ما استطاع .فيقول :ها هنا إذا .قال :ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه :انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه) [٦٣٧]؛ قال ابن تيمية :

---

(٦٣٦) زاد المسير ٣٢٣/٤ (بتصرف).

(٦٣٧) صحيح مسلم ،كتاب الزهد والرقائق ، ح (٢٩٦٨).

الحساب قد يراد به الإحاطة بالأعمال ، وكتابتها في الصحف ، وعرضها على الكفار ، وتوبيخهم على ما عملوه ، وزيادة العذاب ونقصه بزيادة الكفر ونقصه ، فهذا الضرب من الحساب ثابت بالاتفاق. وقد يراد بالحساب وزن الحسنات بالسيئات ليتبين أيهما أرجح فالكافر لا حسنات له توزن بسيئاته ؛ إذ أعماله كلها حابطة ، وإنما توزن لتظهر خفة موازينه لا ليتبين رجحان حسنات له. وقد يراد بالحساب أن الله: هل هو الذي يكلمهم أم لا؟ فالقرآن والحديث يدلان على أن الله يكلمهم تكليم توبيخ وتقريع وتبكيت ، لا تكليم تقريب وتكريم ورحمة وإن كان من العلماء من أنكر تكليمهم جملة[٦٣٨]. وقال : الحساب يراد به عرض أعمالهم عليهم وتوبيخهم عليها ، ويراد بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات ؛ فإن أريد بالحساب المعنى الأول فلا ريب أنهم يحاسبون بهذا الاعتبار ، وإن أريد المعنى الثاني فإن قصد بذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجنة فهذا خطأ ظاهر ، وإن أريد أنهم يتفاوتون في العقاب؛ فعقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلت سيئاته ، ومن كان له حسنات خفف عنه العذاب كما أن أبا طالب أخف عذابا من أبي لهب ، وقال تعالى : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب) النحل : ٨٨ ، وقال تعالى : (إنما النسيء زيادة في الكفر) التوبة : ٣٧ ، والنار دركات ؛ فإذا كان بعض الكفار عذابه أشد عذابا من بعض لكثرة سيئاته وقلة حسناته كان الحساب لبيان مراتب العذاب ، لا لأجل دخولهم الجنة[٦٣٩].

السادس : وزن الأعمال ؛ قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن

---

(٦٣٨) مجموع الفتاوى ٤٨٧/٦ .

(٦٣٩) مجموع الفتاوى ٣٠٥/٤ ، ٣٠٦ ، وانظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، لأبي القاسم اللالكائي ١١٧٤/٦-١١٧٧ ، دفع إيهام الاضطراب ، للشنقيطي ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

لإظهار مقاديرها ؛ ليكون الجزاء بحسبها[٦٤٠]. ويتعلق بالميزان ثلاث مسائل :-

١- حقيقة الميزان ؛ جمهور أهل السنة على القول بأن ميزان الأعمال ميزان حقيقي ، له كفتان حسيتان مشاهدتان . وذهب مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم إلى أن الميزان عبارة عن العدل ؛ بناء على أن ذكر الميزان في النصوص من باب ضرب المثل، كما تقول : هذا الكلام في وزن هذا وفي وزانه ؛ أي يعادله ويساويه ، وبهذا يفترق قول هذا الفريق من السلف عن قول المتكلمين ؛ لأن من فسر الميزان بالعدل من المتكلمين بناه على مدرك عقلي يخالف مدرك مجاهد ومن معه ؛ فقالوا : إن الأعمال أعراض لا تقوم بنفسها ؛ فلا تقبل الوزن كالأجسام ! ورأوا أن في إثبات الميزان حقيقة منافاة لعلم الله التام ؛ لأنه لا يحتاج للميزان إلا الجاهل بمقادير الأشياء ؛ كالبقال ونحوه ! وذهب ابن حزم إلى أن الميزان وإن كان حقيقيا إلا أنه لا يجوز القول بأن له كفتين ؛ لأن ذلك من التنطع ، والقياس على موازين الدنيا ، وأمور الآخرة لا تعلم إلا بما جاء في القرآن أو السنة ، ولم يأت عن رسول الله ﷺ شيء يصح في صفة الميزان[٦٤١]. ومذهب الجمهور في حقيقة الميزان وصفته هو الصحيح ؛ لوجوه :-

أ- أن نصوص الكتاب والسنة ظاهرة في الدلالة على إثبات الميزان حقيقة ؛ قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) الأنبياء : ٤٧ ، وقال : (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) الأعراف : ٨ ، وقال النبي ﷺ : (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده)[٦٤٢]، وإخراج الميزان عن هذه الحقيقة إلى أمر معنوي هو العدل يفتح الباب على مصراعيه لتأويل أمور الآخرة وحقائق الشرع بأمور معنوية ؛ قال القرطبي : قال علماؤنا : ولو جاز حمل الميزان على ما ذكروه لجاز حمل الصراط على الدين الحق،

---

(٦٤٠) التذكرة ، للقرطبي ٣٠٩/١ .

(٦٤١) انظر : الفصل ، لابن حزم ١١٤/٤ ، ١١٥.

(٦٤٢) صحيح البخاري ، كتاب الدعوات ، ح (٦٤٠٦).

والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد من الأحزان والأفراح ، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة، وهذا كله فاسد ؛ لأنه رد لما جاء به الصادق[٦٤٣].

ب- أن الأعمال لا يستحيل وزنها كما زعموا ؛ لأنها وإن كانت أعراضا فإن الله تعالى يقلبها أعيانا ؛ كما ورد في العمل الصالح أنه يأتي صاحبه في صورة رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، والعمل الخبيث في هيئة رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، وكذلك القرآن يأتي كالرجل الشاحب ، وسورة البقرة وآل عمران يوم القيامة يظلان صاحبهما كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف ، وأيضا فالموت وهو عرض يؤتى به يوم القيامة على صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار .

ج- أن إثبات الميزان حقيقة لا ينافي العلم والحكمة ، بل على الضد من ذلك يدل على كمال علم الله بأعمال العباد ؛ ولهذا يري كل عامل عمله ؛ ليكون شهيدا على نفسه ، ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدل الحق للخلق ؛ فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه.

د- أن القول بأن للميزان كفتين قول بمقتضى النصوص والآثار ، وليس من التنطع ، ولا من القول على الله بلا علم ؛ عن عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعا : (إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب . فيقول :أفلك عذر؟ فيقول :لا يا رب، فيقول :بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها :أشهد أن لا إله

(٦٤٣) التذكرة ١/٣١٤ .

إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول :احضر وزنك، فيقول :يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال :إنك لا تظلم ؛ فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء)[٦٤٤]، وقال سلمان ﷺ : (يوضع الميزان ، ولو وضعت في كفته السموات والأرض وما فيهن لوسعتهن)[٦٤٥]، وفي رواية : (يوضع الميزان وله كفتان)[٦٤٦]، وقال نوف البكالي : (لو أن السموات والأرض وما فيهما وضع في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن)[٦٤٧]، وذُكر الميزان عند الحسن البصري ؛ فقال : له لسان وكفتان[٦٤٨]. ومجيء الميزان بلفظ الإفراد في هذه الآثار ونظائرها لا ينافي مجيئه في القرآن بلفظ الجمع ؛ لأن ذلك باعتبار تعدد الأعمال ، أو الأشخاص ، أو أن الجمع للتفخيم ، كما في قوله تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين) الشعراء : ١٠٥ ؛ ولهذا ذهب جمهور أهل العلم إلى أن الميزان واحد ، وقيل : إن في ذكره بلفظ الجمع دلالة على تعدد الموازين ، وأن لكل شخص ميزانا ، أو لكل عمل ميزانا ، أو لكل أمة ميزانا . والقول الأول أظهر ؛ قال ابن كثير : الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه[٦٤٩].

---

(٦٤٤) جامع الترمذي ، أبواب الإيمان ، ح (٢٦٣٩). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته ، للألباني ، ح (١٧٧٦).

(٦٤٥) الشريعة ، للآجري ، باب الإيمان بالميزان ، ح (٨٩٤). وإسناده صحيح . انظر : تخريج الدميجي لكتاب الشريعة ، ١٣٢٨/٣.

(٦٤٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، للالكائي ، ١١٧٣/٦ ، ح (٢٢٠٨).

(٦٤٧) مسند الإمام أحمد ، ح (٦٧٥٠) ، وإسناده صحيح على شرط مسلم . انظر : تخريج أحاديث المسند ، ٣٦٣/١١ .

(٦٤٨) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، للالكائي ، ١١٧٣/٦ ، ح (١١٧٣). وانظر فيما يتعلق بحقيقة الميزان : تفسير القرطبي ٢٩٣/١١ ، ٢٩٤ ، التذكرة ، للقرطبي ١/ ٣١٣ ، ٣١٤ ، شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، ص ، ١٢٣ ، ٤١٧-٤٢٠ ، فتح الباري ، لابن حجر ٥٣٨/١٣، ٥٣٩.

(٦٤٩) تفسير ابن كثير ٣٣٥/٣ ، وانظر : التذكرة ، للقرطبي ٣١٩/١ ، ٣٢٠ ، فتح الباري ، لابن حجر ، ٥٣٧/١٣ ، ٥٣٨ ، لوامع الأنوار ، للسفاريني ، ١٨٦/٢ .

٢- عموم الوزن ؛ فظاهر النصوص يدل على أن الميزان عام لكل أحد ، قال الله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا) الأنبياء : ٤٧ ؛ ولم يفصل بين نفس ونفس ، لكن خص بعض أهل العلم من هذا العموم طائفتين :-

أ- من لا حساب عليه من المؤمنين ؛ لقول النبي ﷺ : (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب ؛ هم الذين لا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون)[٦٥٠]، وقوله : (وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا ، لا حساب عليهم ولا عذاب ، مع كل ألف سبعون ألفا ، وثلاث حثيات من حثياته)[٦٥١].

ب- الكفار ؛ لقوله تعالى : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) الكهف : ١٠٥، وقوله : (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) الرحمن : ٤١ ؛ فعلم من ذلك أن الكافر لا يقام له وزن يوم القيامة ، وإنما يعرف بعلامة الكفر ؛ كاسوداد الوجه ، وزرقة العيون ، فيؤخذ بناصيته وقدمه فيلقى في النار دون وزن ؛ ولأن الوزن إنما يحتاج إليه لمعرفة ما يترجح من حسنات أو سيئات ، والكافر ليس له حسنة مقبولة توضع في الميزان ؛ قال تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) الفرقان : ٢٣ ؛ ولأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما قالت للنبي ﷺ : ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ؛ فهل ذاك نافعه ؟ قال : (لا ينفعه ؛ إنه لم يقل يوما : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)[٦٥٢]. وفي هذا التخصيص نظر ؛ لدلالة القرآن على وزن أعمال الكفار ؛ قال تعالى : (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) المؤمنون : ١٠٣-١٠٥ ، ولأن أعمالهم توزن لا لمعرفة ما يترجح من حسنات أو سيئات ، لأن الكافر لا حسنات له توزن بسيئاته ، إذ أعماله كلها حابطة ؛ وإنما

---

(٦٥٠) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٤٧٢).

(٦٥١) جامع الترمذي ، أبواب صفة القيامة ، ح (٢٤٣٧). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته، للألباني ، ح (٧١١١).

(٦٥٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (٢١٤).

توزن لإقامة الحجة عليهم ، وإظهار خفة موازينهم ، وبيان مرتبتهم في العذاب ؛ لأنهم "يتفاوتون في العقاب؛ فعقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلت سيئاته ، ومن كان له حسنات خفف عنه العذاب ، كما أن أبا طالب أخف عذابا من أبي لهب ، وقال تعالى : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب) النحل : ٨٨ ، وقال تعالى : (إنما النسيء زيادة في الكفر) التوبة : ٣٧ ، والنار دركات ؛ فإذا كان بعض الكفار عذابه أشد عذابا من بعض لكثرة سيئاته وقلة حسناته كان الحساب لبيان مراتب العذاب ، لا لأجل دخولهم الجنة"[٦٥٣]. ولا حجة في قوله تعالى : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) الكهف : ١٠٥ على تخصيص أدلة الميزان ؛ لحديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال : اقرؤوا : فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا)[٦٥٤]؛ ولهذا قال البغوي في تفسير الآية : أي لا نجعل لهم خطرا وقدرا ؛ تقول العرب : ما لفلان عندي وزن ؛ أي قدر[٦٥٥]. وقال ابن كثير : أي لا نثقل موازينهم ؛ لأنها خالية عن الخير[٦٥٦]. ولا حجة أيضا في قوله تعالى : (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) الرحمن : ٤١ على أن الكافر لا يحاسب ولا توزن أعماله ؛ لأن هذا الأخذ إنما يكون إذا أمر بهم إلى النار بعد محاسبتهم ووزن أعمالهم[٦٥٧]. وأما حديث ابن جدعان فالمراد به أن إحسانه لا ينفعه في دخول الجنة لا في تخفيف العذاب ؛ لدلالة النصوص على تخفيف العذاب بحسب قلة السيئات ووجود الحسنات ؛ كما في حديث العباس ﷺ أنه قال : (قلت : يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ؛ فهل نفعه ذلك؟ قال

---

(٦٥٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٤٨٧/٦ .

(٦٥٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٧٢٩).

(٦٥٥) تفسير البغوي ٥/٢١٠ (طبعة دار طيبة الرابعة) .

(٦٥٦) تفسير ابن كثير ١٩٩/٥ .

(٦٥٧) انظر : تفسير ابن كثير ١١١/٧.

: نعم ، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح)[٦٥٨]. وقد حكى القرطبي في صفة وزن عمل الكافر وجهين ؛ أحدهما : أن كفره يوضع في كفة ولا يجد له حسنة يضعها في الأخرى فتطيش التي لا شيء فيها . ثانيهما : أن الكافر قد يقع منه العتق والبر والصلة والمواساة وسائر أنواع الخير المالية مما لو فعلها المسلم لكانت حسنات ، فمن كانت له حسنات جمعت ووضعت ، غير أن الكفر إذا قابلها رجح بها[٦٥٩]. قال ابن حجر : ويحتمل أن يجازى بها عما يقع منه من ظلم العباد مثلا ، فإن استوت عذب بكفره مثلا فقط ، وإلا زيد عذابه بكفره أو خفف عنه كما في قصة أبي طالب[٦٦٠].

٣- متعلق الوزن ؛ اختلف أهل العلم فيما يوضع في الميزان ؛ فقيل الأعمال ، وقيل صحف الأعمال ، وقيل العبد مع عمله ، وقيل يوضع كل ذلك في الميزان . وهو القول الصحيح الذي يدل عليه مجموع النصوص ؛ قال ابن أبي العز الحنفي : ثبت وزن الأعمال ، والعامل ، وصحائف الأعمال[٦٦١]؛ فمن أدلة وزن الأعمال قول النبي ﷺ : (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ؛ سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم)[٦٦٢]، وقوله : (والحمد لله تملأ الميزان)[٦٦٣]، وقوله : (ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق ، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة)[٦٦٤]. ومن أدلة وزن العامل قول النبي ﷺ : (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ،

---

(٦٥٨) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (٢٠٩).

(٦٥٩) انظر : التذكرة ، ٣٠٩/١-٣١٤ .

(٦٦٠) فتح الباري ٥٣٨/١٣ .

(٦٦١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤١٩ .

(٦٦٢) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، ح ، (٧٥٦٣).

(٦٦٣) صحيح مسلم ، كتاب الطهارة ، ح ، (٢٢٣).

(٦٦٤) جامع الترمذي ، أبواب البر والصلة ، ح (٢٠٠٣) . وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ح ، (٥٧٢٦).

وقال : اقرؤوا : فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا)[٦٦٥]، وقوله ﷺ لما ضحك الصحابة من دقة ساقي ابن مسعود رضي الله عنه : (والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد)[٦٦٦]، وأما وزن صحائف الأعمال فدليله قول النبي ﷺ : (إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب . فيقول : أفلك عذر؟ فيقول : لا يا رب، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول : احضر وزنك، فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال : إنك لا تظلم ؛ فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء)[٦٦٧].

السابع : المرور على الصراط ؛ ويتعلق به ثلاث مسائل :-

١- في معنى الصراط ؛ الصراط هو الجسر المنصوب على جهنم لعبور المسلمين عليه إلى الجنة[٦٦٨]. وقد ورد في صفته أنه : (مدحضة ، مزلة ، عليه خطاطيف ، وكلاليب ، وحسكة مفلطحة ، لها شوكة عقيفاء ، تكون بنجد ، يقال لها السعدان)[٦٦٩]،وفي

---

(٦٦٥) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٧٢٩).

(٦٦٦) مسند الإمام أحمد ، ح (٣٩٩١) ، وإسناده حسن . انظر : تخريج الألباني لشرح العقيدة الطحاوية ،ح (٥٧١).

(٦٦٧) جامع الترمذي ، أبواب الإيمان ، ح (٢٦٣٩). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته ، للألباني ، ح (١٧٧٦) . وانظر في خلاف أهل العلم في متعلق الميزان : التذكرة ، للقرطبي ١/ ٣١٣ ، ٣١٤ ، شرح الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ص ٤١٨ ، ٤١٩ ، فتح الباري ، لابن حجر ١٣/ ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، لوامع الأنوار ، للسفاريني ١٨٧/٢ .

(٦٦٨) فتح الباري ، لابن حجر ٤٤٦/١١ . ذكر هذا الحد ابن حجر ، وهو أدق من قول النووي في حد الصراط : هو جسر على متن جهنم يمر عليه الناس كلهم . شرح صحيح مسلم ٢٠/٣ ؛ وذلك لأن الصراط إنما يضرب على متن جهنم بعد سقوط الكفار في جهنم ، ولا يمر عليه إلا المسلمون من كل أمة .

(٦٦٩) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، ح (٧٤٣٩). والدحض والمزلة بمعنى واحد ؛ وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر ، والكلاليب جمع كلوب ، بفتح الكاف وضم اللام المشددة ، وهو حديدة معطوفة الرأس ، والحسك نبات له ثمر خشن ، يتعلق بأصواف الغنم . والسعدان بفتح السين وإسكان العين هو نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك

رواية : (وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا :بلى يا رسول الله، قال :فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم)[٦٧٠]، وقال أبو سعيد الخدري : بلغني أن الجسر أدق من الشعرة ، وأحد من السيف[٦٧١]، وروي أن الصراط أدق من الشعر، على بعض الناس، ولبعض الناس مثل الوادي الواسع[٦٧٢]. والمسلمون متفاوتون في صفة المرور على الصراط تفاوتا عظيما ؛ (فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاود الخيل والركاب ؛ فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنم)[٦٧٣]، وفي رواية : (حتى يمر آخرهم يسحب سحبا)[٦٧٤]. وهذا التفاوت الكبير في سرعة المرور على الصراط يرجع لتفاوت أعمالهم في الدنيا ، ولتفريط بعضهم فيما عليه من حقوق الأمانة والرحم ؛ كما دل على ذلك قول النبي ﷺ : (وترسل الأمانة والرحم ، فتقومان على جنبتي الصراط يمينا وشمالا[٦٧٥]؛ فيمر أولكم كالبرق ...

من كل الجوانب . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ٢١/٣ ، ٢٩ ، فتح الباري ، لابن حجر ٤٢٩/١٣ .

(٦٧٠) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٧٤). وتخطف بفتح الطاء ويجوز كسرها ، أي تخطفهم بسبب أعمالهم ، ويجوز أن يكون معناه تخطفهم على قدر أعمالهم . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ٢١/٣ .

(٦٧١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٨٣) ، وورد نحوه من حديث ابن مسعود ﷺ مرفوعا : (والرب ﷻ أمامهم ، حتى يمر في النار ، ويبقى أثره ، كحد السيف ، دحض مزلة ، ويقول : مروا فيمرون على قدر ذنوبهم) . انظر : كتاب السنة ، لعبد الله بن الإمام أحمد ، ٥٢٢/٢ ، ح (١٢٠٣). وقال بعض أهل العلم : كون الصراط أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، مما لم يرد في الروايات الصحيحة ، وإنما ورد عن بعض الصحابة ؛ فيؤول بما يدل على خفاء أمره ، وسرعة الإجازة عليه ! وهو رأي غير مسلم ؛ لأن قول أبي سعيد الخدري ﷺ مما ليس للرأي فيه مجال فيكون في حكم المرفوع . انظر : لوامع الأنوار ، للسفاريني ، ١٩٣/٢ ، ١٩٤ .

(٦٧٢) قال ابن حجر : أخرجه ابن المبارك، وابن أبي الدنيا، وهو مرسل أو معضل . فتح الباري ٤٥٤/١١ .

(٦٧٣) مسلم كتاب الإيمان ح ١٨٣

(٦٧٤) البخاري ، كتاب التوحيد ، ح ٧٤٣٩

(٦٧٥) قال النووي : وأما إرسال الأمانة والرحم فهو لعظم أمرهما وكبر موقعهما ، فتصوران مشخصتين على الصفة التي يريدها الله تعالى . قال صاحب التحرير : في الكلام اختصار ، والسامع فهم أنهما تقومان لتطالبا كل من يريد الجواز بحقهما . شرح صحيح مسلم ٧٢/٣ . وقال ابن حجر : المعنى أن الأمانة والرحم لعظم شأنهما وفخامة ما يلزم العباد من رعاية حقهما يوقفان هناك للأمين والخائن والمواصل والقاطع، فيحاجان عن المحق، ويشهدان على المبطل . فتح الباري

ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير ، وشد الرجال ، تجري بهم أعمالهم ... حتى تعجز أعمال العباد ؛ حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا)[٦٧٦]؛ قال ابن رجب: الإيمان والعمل الصالح في الدنيا هو الصراط المستقيم في الدنيا الذي أمر الله العباد بسلوكه والاستقامة عليه، وأمرهم بسؤال الهدية إليه، فمن استقام سيره على هذا الصراط المستقيم في الدنيا ظاهرا وباطنا، استقام مشيه على ذلك الصراط المنصوب على متن جهنم، ومن لم يستقم سيره على هذا الصراط المستقيم في الدنيا بل انحرف عنه إما إلى فتنة الشبهات أو إلى فتنة الشهوات، كان اختطاف الكلاليب له على صراط جهنم بحسب اختطاف الشبهات والشهوات له عن هذا الصراط المستقيم، كما في حديث أبي هريرة ﷺ : إنها تخطف الناس بأعمالهم[٦٧٧].

٢- في معنى ورود النار ؛ دلت النصوص على أن الناس جميعا يردون النار ؛ قال تعالى : (وإن منكم إلا ورادها كان على ربك حتما مقضيا) مريم : ٧١ ؛ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها ، وورود المشركين أن يدخلوها[٦٧٨]. وهو تفصيل صحيح لغة وشرعا ؛ لأن الورود يكون بمعنى الدخول ، كما في قوله تعالى : (يقدم قومه فأوردهم النار) هود : ٩٨ ، ويكون بمعنى الحضور والرؤية من غير دخول ؛ قال الزجاج : العرب تقول : وردت بلد كذا ، ووردت ماء كذا إذا أشرفوا عليه ، وإن لم يدخلوا[٦٧٩] ، ومنه قوله تعالى : (ولما ورد ماء مدين) القصص : ٢٣ ، أراد به الحضور[٦٨٠]، ولأن النصوص دلت على أن المؤمن آمن من دخول النار ، وأن الكفار لا يمرون على الصراط أصلا ، وإنما يردون النار

٤٥٣/١١.

(٦٧٦) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٥).

(٦٧٧) رسائل ابن رجب ٣٤٧/٤ . وقد تقدم ذكر حديث أبي هريرة ﷺ في أول هذه المسألة .

(٦٧٨) تفسير ابن كثير ، ٢٥٢/٥.

(٦٧٩) زاد المسير ، لابن الجوزي ، ١٤٣/٣ .

(٦٨٠) تفسير البغوي ، ٢٤٧/٥ . (طبعة دار طيبة الرابعة) .

قبل أن يضرب الصراط على متن جهنم ؛ قال تعالى : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها) الأنبياء : ١٠١ ، ١٠٢ ، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعا : (إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد. فلا يبقى أحد، كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب، إلا يتساقطون في النار. حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر. وغبر أهل الكتاب[٦٨١]. فيدعى اليهود فيقال لهم :ما كنتم تعبدون؟ قالوا :كنا نعبد عزير بن الله . فيقال :كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد. فماذا تبغون؟ قالوا :عطشنا. يا ربنا! فاسقنا .فيشار إليهم :ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا. فيتساقطون في النار. ثم يدعى النصارى .فيقال لهم :ما كنتم تعبدون؟ قالوا :كنا نعبد المسيح بن الله .فيقال لهم :كذبتم. ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد .فيقال لهم :ماذا تبغون؟ فيقولون :عطشنا. يا ربنا! فاسقنا .قال فيشار إليهم :ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون في النار. حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر[٦٨٢]، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها . قال :فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد . قالوا :يا ربنا ! فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم .فيقول : أنا ربكم .فيقولون :نعوذ بالله منك. لا نشرك بالله شيئا مرتين أو ثلاثا حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب . فيقول :هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون :نعم. فيكشف عن ساق. فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود. ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة. كلما أراد أن يسجد خر على قفاه. ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحول في

---

(٦٨١) غبر بضم الغين وفتح الباء الموحدة ، أي بقاياهم ، وهو جمع غابر . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ٢٦/٣.

(٦٨٢) هذه الرواية تفسر قوله في الرواية الأخرى : (وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها) ؛ وأن المراد بالأمة الموحدون من جميع الأمم ، ويؤخذ أيضا من قوله : (فأكون أنا وأمتي أول من يجيز) ؛ فهي دليل على أن الأنبياء بعده يجيزون أممهم . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤٤٨/١١ ، ٤٤٩ .

صورته التي رأوه فيها أول مرة .فقال :أنا ربكم .فيقولون :أنت ربنا. ثم يضرب الجسر على جهنم. وتحل الشفاعة[٦٨٣].ويقولون :اللهم سلم سلم . قيل :يا رسول الله! وما الجسر؟ قال دحض مزلة. فيه خطاطيف وكلاليب وحسك . تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان. فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاود الخيل والركاب. فناج مسلم. ومخدوش مرسل. ومكدوس في نار جهنم[٦٨٤]. حتى إذا خلص المؤمنين من النار، فوالذي نفسي بيده! ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله، في استقصاء الحق، من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار .يقولون :ربنا! كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون .فيقال لهم :أخرجوا من عرفتم. فتحرم صورهم على النار. فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه ، وإلى ركبتيه[٦٨٥] ، ثم يقولون :ربنا! ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به .فيقول :ارجعوا. فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه. فيخرجون خلقا كثيرا .ثم يقولون :ربنا! لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا .ثم يقول :ارجعوا. فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه. فيخرجون خلقا كثيرا .ثم يقولون :ربنا! لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا .ثم يقول :ارجعوا. فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه. فيخرجون خلقا كثيرا .ثم يقولون :ربنا! لم نذر فيها خيرا ؛ فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع

---

(٦٨٣) تحل بكسر الحاء ، أي تقع ويؤذن فيها . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ٢٩/٣ .

(٦٨٤) معناه أنهم ثلاثة أقسام ؛ قسم يسلم فلا يناله شئ أصلا ، وقسم يخدش ثم يرسل فيخلص ، وقسم يسقط في جهنم . وكلمة مكدوس تعني سقوط بعضهم على بعض ، ومنه تكدست الدواب في سيرها إذا ركب بعضها بعضا . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ٢٩/٣، ٣٠.

(٦٨٥) وفي رواية : (فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه، وإلى أنصاف ساقيه، فيخرجون من عرفوا) . صحيح البخاري ،كتاب التوحيد ، ح ٧٤٣٩ . قال ابن حجر : تعذيب الموحدين بخلاف تعذيب الكفار، لاختلاف مراتبهم من أخذ النار بعضهم إلى ساقه، وأنها لا تأكل أثر السجود، وأنهم يموتون فيكون عذابهم إحراقهم وحبسهم عن دخول الجنة سريعا كالمسجونين، بخلاف الكفار الذين لا يموتون أصلا؛ ليذوقوا العذاب ولا يحيون حياة يستريحون بها . فتح الباري ٤٦٢/١١ . وأيضا فإن عصاة الموحدين لا يقيدون في النار كالكفار ؛ قال الحسن البصري : أهل التوحيد في النار لا يقيدون، فتقول الخزنة بعضهم لبعض: ما بال هؤلاء لا يقيدون وهؤلاء يقيدون؟ فيناديهم مناد: إن هؤلاء كانوا يمشون في ظلم الليل إلى المساجد .فتح الباري ، لابن رجب ٢ / ٥٤٥ .

النبيون وشفع المؤمنون. ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط. قد عادوا حمما. فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة. فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل)[٦٨٦]، وفي رواية : (فيتبعونه ويضرب جسر جهنم، فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ :اللهم سلم سلم)[٦٨٧]، أي مع أمته ، كما يدل لذلك قوله ﷺ : (فيتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها)[٦٨٨]، قال ابن رجب : هذا الحديث صريح في أن كل من أظهر عبادة شيء سوى الله، كالمسيح وعزير من أهل الكتاب، فإنه يلحق بالمشركين في الوقوع في النار قبل نصب الصراط، إلا أن عباد الأصنام والشمس والقمر وغير ذلك من المشركين تتبع كل فرقة منهم ما كانت تعبد في الدنيا، فترد النار مع معبودها أولا، وقد دل القرآن على هذا المعنى، في قوله تعالى.في شأن فرعون: يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود. وأما من عبد المسيح والعزير من أهل الكتاب، فإنهم يتخلفون مع أهل الملل المنتسبين إلى الأنبياء، ثم يردون في النار بعد ذلك. وقد ورد في حديث آخر، أن من كان يعبد المسيح، يمثل له شيطان المسيح فيتبعونه، وكذلك من كان يعبد العزير. وفي حديث الصور أنه يمثل لهم ملك على صورة المسيح، وملك على صورة العزير، ولا يبقى بعد ذلك إلا من كان يعبد الله وحده في الظاهر، سواء كان صادقا أو منافقا من هذه الأمة وغيرها، ثم يتميز المنافقون على المؤمنين بامتناعهم من السجود ، وكذلك يمتازون عنهم بالنور الذي يقسم للمؤمنين . وقد اختلف السلف، هل يقسم للمنافقين نور مع المؤمنين ثم يطفأ، أو لا يقسم له نور بالكلية، على قولين: فقال أحدهما :إنه لا يقسم له نور بالكلية.... والقول الثاني :أنه يقسم للمنافقين النور مع المؤمنين كما كانوا مع المؤمنين في الدنيا،

---

(٦٨٦) مسلم كتاب الإيمان ح ١٨٣ .

(٦٨٧) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، الرقاق ، ح ٦٥٧٣

(٦٨٨) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، ح ٧٤٣٨ .

ثم يطفأ نور المنافقين إذ بلغ السور[٦٨٩]، وقال ابن حجر : وقع في حديث ابن مسعود من الزيادة ثم يقال للمسلمين : ارفعوا رءوسكم إلى نوركم بقدر أعمالكم .وفي لفظ :فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل ودون ذلك، ومثل النخلة ودون ذلك، حتى يكون آخرهم من يعطى نوره على إبهام قدمه . ووقع في رواية مسلم، عن جابر : ويعطى كل إنسان منهم نورا - إلى أن قال : ثم يطفئ نور المنافقين، وفي حديث ابن عباس عند ابن مردويه : فيعطى كل إنسان منهم نورا، ثم يوجهون إلى الصراط فما كان من منافق طفئ نوره، وفي لفظ : فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين فقالوا للمؤمنين : انظرونا نقتبس من نوركم الآية. وفي حديث أبي أمامة عند ابن أبي حاتم : وإنكم يوم القيامة في مواطن حتى يغشى الناس أمر من أمر الله، فتبيض وجوه وتسود وجوه، ثم ينتقلون إلى منزل آخر، فتغشى الناس الظلمة، فيقسم النور، فيختص بذلك المؤمن، ولا يعطى ..المنافق منه شيئا، فيقول المنافقون للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم الآية. فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئا، فيضرب بينهم بسور[٦٩٠].

٣- الشفاعة على الصراط ؛ دلت النصوص على حلول الشفاعة على الصراط ؛ كما في قول النبي ﷺ : (ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلم سلم)[٦٩١]، وقوله : (ويضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل[٦٩٢]، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم

---

(٦٨٩) رسائل ابن رجب ٣٤٤/٤ ، ٣٤٥ ، وانظر : السنة ، لعبد الله بن الإمام أحمد ٥٢١/٢ ، فتح الباري ، لابن حجر ٤٤٨/١١ .

(٦٩٠) فتح الباري ٤٥١/١١ ، ٤٥٢ ، وانظر : تفسير ابن كثير ، ١٧٦/٧-١٨٠ .

(٦٩١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٨٣).

(٦٩٢) أي في حال الإجازة ، وإلا ففي القيامة مواطن يتكلم الناس فيها ، وتجادل كل نفس عن نفسها ، ويسأل بعضهم بعضا ، ويتلاومون ، ويتخاصمون . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ٢١/٣ .

سلم)[٦٩٣]، وفي رواية : (ودعاء الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم)[٦٩٤]؛ قال ابن حجر : في رواية شعيب: ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وفي رواية إبراهيم بن سعد :ولا يكلمه إلا الأنبياء، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، ووقع في رواية العلاء :وقولهم اللهم: سلم سلم، وللترمذي من حديث المغيرة :شعار المؤمنين على الصراط: رب سلم سلم ، والضمير في الأول للرسل، ولا يلزم من كون هذا الكلام شعار المؤمنين أن ينطقوا به، بل تنطق به الرسل يدعون للمؤمنين بالسلامة، فسمي ذلك شعارا لهم، فبهذا تجتمع الأخبار، ويؤيده قوله في رواية سهيل :فعند ذلك حلت الشفاعة: اللهم سلم سلم[٦٩٥]. وحلول الشفاعة على الصراط يحتمل أمرين ؛ أن يكون المراد به دعاء الأنبياء على الصراط ؛ فيدعون للمؤمنين بالسلامة من خطف الكلاليب ، ومن السقوط في النار ؛ والمرجو أن يعتق الله بدعاء أنبيائه كثيرا ممن استحق النار فلا يدخلها ، ولا تناله كلاليبها . وعلى هذا المعنى يكون الحديث دليلا بينا للشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها ، خلافا لمن رأى أنه ليس في النصوص دليل على هذه الشفاعة . ويحتمل أن يكون المراد بحلول الشفاعة على الصراط مجرد الإذن في الشفاعة ، وأما وقوعها فيكون بعد المرور على الصراط ، ويدل لهذا المعنى قوله في آخر حديث المرور على الصراط : (فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاود الخيل والركاب ؛ فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنم. حتى إذا خلص المؤمنين من النار ، فوالذي نفسي بيده! ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار ؛ يقولون : ربنا ! كانوا يصومون معنا ، ويصلون ، ويحجون ؛ فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ... الحديث)[٦٩٦]، والله أعلم[٦٩٧].

---

(٦٩٣) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح ١٨٢ .

(٦٩٤) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٧٤).

(٦٩٥) فتح الباري ٤٥٢/١١ .

(٦٩٦) مسلم كتاب الإيمان ح ١٨٣ .

(٦٩٧) في بيان أهوال القيامة ذكرت سبعة أمور ؛ أولها عموم الخوف من أهوال القيامة ، وآخرها المرور على الصراط ، وأهم مصادر هذه الموضوعات : التذكرة للقرطبي ٢٣٣/١-٢٤٤ ، فتح الباري ، لابن حجر ١١ / ٣٩٢ -٣٩٦ .

الحوض المورود

لله تعالى مع أهوال القيامة وشدائدها نفحات ورحمات ونعم كبرى على عباده المؤمنين في ذلك اليوم العظيم ، من أجلها الحوض والشفاعة التي وعد النبي ﷺ بها أمته في يوم القيامة ؛ عن عقبة بن عامر ﷺ مرفوعا : (إني بين أيديكم فرط ، وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض)[٦٩٨]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ؛ فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا)[٦٩٩]. والأحاديث في الحوض والشفاعة متواترة[٧٠٠] ، رواها عن النبي ﷺ أكثر من ثلاثين صحابيا ، وقد استقصى طرقها الحافظ ابن كثير وغيره من أهل العلم[٧٠١]. وأحاديث الحوض على كثرتها ترجع إلى أربعة أنواع :-

١- أحاديث في مطلق ذكر الحوض ؛ ومن ذلك حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ لما دخل على عبيد الله بن زياد، فلما رآه عبيد الله قال :إن محمديكم هذا .. ، ففهمها أبو برزة ، فقال :ما كنت أحسب أني أبقى في قوم يعيروني بصحبة محمد ﷺ ، فقال له عبيد الله :إن صحبة محمد ﷺ لك زين غير شين، قال :إنما بعثت إليك لأسألك عن الحوض، سمعت رسول الله ﷺ يذكر فيه شيئا؟ فقال له أبو برزة :نعم لا مرة، ولا ثنتين، ولا ثلاثا، ولا أربعا، ولا خمسا، فمن كذب به فلا سقاه الله منه، ثم خرج مغضبا)[٧٠٢]؛ وذلك لأن عبيد الله بن زياد كان ينكر الحوض ، واشتهر إنكاره أيضا

---

(٦٩٨) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، ح (٤٠٤٢).

(٦٩٩) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٩).

(٧٠٠) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٣ .

(٧٠١) انظر : النهاية ، لابن كثير ص ٢٨٥-٣١٦ ، ٤٧٢-٥٠٩ ، شرح صحيح مسلم ، للنووي ٥٣/١٥ ، فتح الباري ، لابن حجر ٤٦٣/١١-٤٧٧ .

(٧٠٢) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، ح (٤٧٤٩). وإسناده صحيح . انظر : تخريج أحاديث جامع الأصول ، للأرنؤوط ٤٦٦/١٠ .

عن الخوارج وبعض المعتزلة[٧٠٣]، وليس لمن أنكره حجة مستقيمة ؛ ولهذا قال ابن حزم : وأما الحوض فقد صحت الآثار فيه ... ولا ندري لمن أنكره متعلقا إلا الجهل بالآثار[٧٠٤].

٢- أحاديث في صفة الحوض ؛ كقول النبي ﷺ : (والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها. ألا في الليلة المظلمة المصحية. آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه. يشخب فيه ميزابان من الجنة. من شرب منه لم يظمأ. عرضه مثل طوله. ما بين عمان إلى أيلة. ماؤه أشد بياضا من اللبن. وأحلى من العسل)[٧٠٥]، وقوله : (حوضي كما بين عدن و عمان ، أبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحا من المسك، أكوابه مثل نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا)[٧٠٦].

٣- أحاديث فيمن يَرِدُ الحوض ؛ كقول النبي ﷺ : (أنا فرطكم على الحوض)[٧٠٧]، أي متقدمكم وسابقكم إلى الحوض، وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : (كنا مع رسول الله ﷺ : فنزلنا منزلا، فقال : ما أنتم جزء من مائة ألف جزء ممن يرد عليّ الحوض . قال الراوي : كم كنتم يومئذ؟ قال: سبع مائة أو ثمان مائة)[٧٠٨]، وعن أبي بكر رضي الله عنه مرفوعا : (إنه ليرد علي الحوض أكثر مما بين صنعاء وأيلة)[٧٠٩]. وقد يستشكل على كثرة الواردين على الحوض بحديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (بينا أنا قائم إذا

---

(٧٠٣) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤٦٧/١١ .

(٧٠٤) الفصل ١١٥/٤ .

(٧٠٥) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، ح (٢٣٠٠).

(٧٠٦) مسند الإمام أحمد ، ح (٦١٦٢). قال المنذري : رواه أحمد بإسناد حسن . الترغيب والترهيب ٤٢٠/٤ . وقال الألباني : صحيح لغيره . صحيح الترغيب والترهيب ، ح (٣٦١٦).

(٧٠٧) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٧٦).

(٧٠٨) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، ح (٤٧٤٦). قال الألباني : سنده صحيح . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٢٣).

(٧٠٩) السنة ، لابن أبي عاصم ، ح (٧٥١) . قال الألباني : إسناده حسن . ظلال الجنة ٣٤٩/٢ .

زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال :هلم، فقلت :أين؟ قال :إلى النار والله، قلت :وما شأنهم؟ قال :إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال :هلم؟ قلت :أين؟ قال :إلى النار والله، قلت :ما شأنهم؟ قال :إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم)[٧١٠]؛ أي لا ينجو منهم إلا عدد قليل في قلة ضوال الإبل . وهذه الرواية لا تتعلق بجميع الواردين على الحوض حتى تشكل على كثرة الواردين عليه ، وإنما تتعلق بنوع خاص منهم ؛ وهم من كاد أن يرد الحوض فصد عنه ؛ فهؤلاء لا يخلص منهم إلا القليل ؛ ولهذا قال ابن حجر في شرح قوله : فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم : يعني من هؤلاء الذين دنو من الحوض وكادوا يردونه فصدوا عنه[٧١١].

٤- أحاديث فيمن يمنع عن الحوض ؛ كقول النبي ﷺ : (ترد علي أمتي الحوض ، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله . قالوا: يا نبي الله! أتعرفنا؟ قال : نعم. لكم سيما ليست لأحد غيركم ؛ تردون علي غرا محجلين من آثار الوضوء[٧١٢]، وليصدن عني طائفة منكم فلا يصلون ، فأقول :يا رب! هؤلاء من أصحابي ، فيجيبني ملك فيقول :وهل تدري ما أحدثوا بعدك)[٧١٣]؛ ففرق في الحديث بين طائفتين ؛ طائفة تمنع من ورود الحوض لكونها من غير أمته ، وهؤلاء يذودهم النبي ﷺ بنفسه ؛ لأن لكل نبي حوضا ، وهم يتباهون أيهم أكثر واردة . وطائفة من أمته تمنع من الحوض لما أحدثت بعد النبي ﷺ . وقد اختلف أهل العلم في تعيين هذه

---

(٧١٠) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٨٧).

(٧١١) فتح الباري ٤٧٤/١١ ، ٤٧٥.

(٧١٢) في الحديث دلالة ظاهرة على أن الوضوء من خصائص هذه الأمة ، والرواية الدالة على عدم الاختصاص بالوضوء ضعيفة ، فلا تعارض دلالة هذا الحديث . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ١٣٥/٣.

(٧١٣) صحيح مسلم ، كتاب الطهارة ، ح (٢٤٧).

الطائفة ؛ هل هم المرتدون ، أو المرتدون والمنافقون ، أو أصحاب الكبائر والبدع[٧١٤]، أو جميع هذه الطوائف ؟ وأرجح هذه الأقوال أولها ؛ لأن النبي ﷺ فسر الإحداث المانع من ورود الحوض بالردة ؛ كما في قوله ﷺ : (يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي، فيجلون عن الحوض، فأقول :يا رب أصحابي؟ فيقول :إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى)[٧١٥]، وقوله : (بينا أنا قائم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال :هلم، فقلت :أين؟ قال :إلى النار والله، قلت :وما شأنهم؟ قال :إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال :هلم؟ قلت :أين؟ قال :إلى النار والله، قلت :ما شأنهم؟ قال :إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم)[٧١٦]؛ ولهذا يقول النبي ﷺ فيهم : (سحقا سحقا لمن غير بعدي)[٧١٧]، والنبي ﷺ لا يقول ذلك في مذنبي الأمة ، بل يشفع لهم ويهتم لأمرهم[٧١٨]. وأما قول النبي ﷺ في إمارة السفهاء : (فمن صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ، ولا يردوا علي حوضي)[٧١٩]؛ فإما أن يقال إنه خاص بهذه الكبيرة ؛ فيمنع أهلها من ورود الحوض ثم هم بعد ذلك تحت

---

(٧١٤) بناء على هذا الأصل قال ابن القيم : ورود الناس الحوض وشربهم منه يوم العطش الأكبر بحسب ورودهم سنة رسول الله ﷺ وشربهم منها، فمن وردها في هذه الدار وشرب منها وتضلع ورد هناك حوضه وشرب منه وتضلع، فله ﷺ حوضان عظيمان، حوض في الدنيا وهو سنته وما جاء به، وحوض في الآخرة، فالشاربون من هذا الحوض في الدنيا هم الشاربون من حوضه يوم القيامة، فشارب ومحروم، ومستقل ومستكثر، والذين يذودونهم هو والملائكة عن حوضه يوم القيامة هم الذين كانوا يذودون أنفسهم وأتباعهم عن سنته ويؤثرون عليها غيرها . اجتماع الجيوش الإسلامية ، ص ٧٢.

(٧١٥) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٢١٣).

(٧١٦) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٨٧).

(٧١٧) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٨٤).

(٧١٨) انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ١٣٦/٣ ، ١٣٧ ، ٦٤/١٥ ، التذكرة ، للقرطبي ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، فتح الباري ، لابن حجر ٤٧٤/١١.

(٧١٩) مسند الإمام أحمد ، ح (١٤٤٤١) . قال الألباني : صحيح لغيره . انظر : صحيح الترغيب والترهيب ، ح (٢٢٤٢) . وقال الأرنؤوط : إسناده قوي على شرط مسلم . انظر : تخريج أحاديث المسند ، ٣٣٢/٢٢ .

المشيئة ، أو يقال : إن هذا الحديث من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها ، وهو مفسر بنصوص الوعد التي دل مجموعها على أن إنفاذ الوعيد مشروط بانتفاء موانعه ؛ كالتوبة النصوح ، والحسنات المعارضة ، والشفاعة المقبولة ، والمصائب المكفرة ، وعفو أرحم الراحمين . والقدر المشترك بين أحاديث الحوض بأنواعها الأربعة هو الدلالة على ثبوت الحوض ثبوتا قطعيا ، وإبطال قول من أنكره بلا برهان . وأما تفاصيل المسائل العلمية المتعلقة بالحوض فأشهرها مسألتان ؛ الأولى : هل الكوثر عين الحوض أو غيره ؟ والثانية : هل الحوض قبل الصراط أو بعده ؟

أما المسألة الأولى فقد اختلف أهل العلم فيها على ثلاثة أقوال :-

أحدها : أن الكوثر هو الحوض الذي يكون للنبي ﷺ في عرصات القيامة ؛ سمي كوثرا لكثرة مائه وخيره وارده . وهذا قول عطاء . وكأن دليل هذا القول هو قول النبي ﷺ : (أتدرون ما الكوثر ؟ فقال الصحابة : الله ورسوله أعلم . فقال : فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل ، عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة)[٧٢٠]. وفي هذا الاستدلال نظر ؛ لأن الحديث أدل على التباين من الترادف ؛ فقد فسر الكوثر بالنهر الموعود ، والحوض ليس بنهر ، وإنما هو مجتمع الماء ، وإنما فسره بالحوض في آخر الحديث ؛ لأن ماء الحوض مستمد من نهر الكوثر ؛ كما دل على ذلك حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعا : (وأعطاني الكوثر ؛ فهو نهر من الجنة يسيل في حوضي)[٧٢١].

الثاني : أن الكوثر هو الخير الكثير ؛ فيعم كل ما أعطي النبي ﷺ من خيرات الدنيا والآخرة ؛ كالقرآن ، والأصحاب ، والحوض ، والشفاعة ، والنهر . وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما ومن وافقه . وكأن هؤلاء نظروا إلى أن الكوثر صيغة مبالغة تدل على كثرة الشيء كثرة مفرطة ؛ فيعم مدلولها كل ما أعطي النبي ﷺ من خير في الدنيا والآخرة . وفي هذا نظر أيضا ؛ لأن الكوثر وإن عم كل خير لغة إلا أن الأحاديث خصته

---

(٧٢٠) صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، ح (٤٠٠).

(٧٢١) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٣٣٣٦). قال ابن كثير : هذا حديث حسن الإسناد والمتن . النهاية ، ص ٢٩٧.

بالنهر الذي في الجنة ؛ قال ابن حجر : ثبت تخصيصه بالنهر من لفظ النبي ﷺ ؛ فلا معدل عنه[٧٢٢].

الثالث : أن الكوثر نهر في الجنة ، وليس هو الحوض الذي يكون للنبي ﷺ في عرصات القيامة . وهذا قول ابن عمر رضي الله عنهما ومن وافقه . وهو القول الموافق للنصوص التي دلت على تغاير الكوثر والحوض ، وأن الحوض الذي في عرصات القيامة يمد من نهر الكوثر الذي في الجنة ؛ كقول النبي ﷺ : (بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف ، قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك)[٧٢٣]، وقوله ﷺ عن الحوض : (يشخب فيه ميزابان من الجنة)[٧٢٤]، أي يسيل فيه ميزابان من الكوثر ، كما في حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعا : (وأعطاني الكوثر ؛ فهو نهر من الجنة يسيل في حوضي)[٧٢٥].

وأما المسألة الثانية فقد رأى الإمام البخاري ومن وافقه أن الحوض يكون بعد الصراط ، وذهب جمهور أهل العلم إلى أن الحوض يكون قبل الصراط . واستدل القائلون بتقدم الصراط على الحوض بأربعة أدلة :-

١- قول النبي ﷺ : (أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبدا)[٧٢٦]؛ وانتفاء الظمأ الدائم صفة من نجا من النار ، وهذا لا يكون إلا لمن اجتاز الصراط . وفي هذا الاستدلال نظر ؛ لجواز أن يحرم بعض أصحاب الكبائر من ورود الحوض ؛ كما ورد في حديث إمارة السفهاء : (فمن صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ، ولا يردوا علي حوضي)[٧٢٧]، وجواز أن

---

(٧٢٢) فتح الباري ٨/٢٣٢ .

(٧٢٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٨١).

(٧٢٤) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، ح (٢٣٠٠).

(٧٢٥) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٣٣٣٦). قال ابن كثير : هذا حديث حسن الإسناد والمتن . النهاية ، ص ٢٩٧.

(٧٢٦) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، ح (٢٢٩١).

(٧٢٧) مسند الإمام أحمد ، ح (١٤٤٤١) . قال الألباني : صحيح لغيره . انظر : صحيح الترغيب والترهيب ، ح

يردوا الحوض ثم يكون عذابهم في النار بغير الظمأ . ولا يشكل على ذلك ما روي من طريق أبي بن كعب ﷺ مرفوعا : (ولا يصرف عنه إنسان فيروى أبدا)[٧٢٨]؛ لأنه حديث موضوع[٧٢٩].

٢- حديث أنس بن مالك ﷺ قال : (سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال : أنا فاعل ، قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط . قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال فاطلبني عند الميزان قلت :فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال : فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطئ هذه الثلاث المواطن)[٧٣٠]؛ فظاهره يدل على تقدم الصراط وتأخر الحوض . ويمكن أن يقال جوابا على ذلك : لا حجة في التعلق بظاهر الحديث في الترتيب ؛ لأنه يستلزم تقدم الصراط على الميزان ، ولم يقل بذلك أحد من أهل العلم .

٣- حديث لقيط بن عامر ﷺ مرفوعا : (ثم ينصرف نبيكم ويفترق على أثره الصالحون، ألا فتسلكون جسرا من النار، يطأ أحدكم الجمرة فيقول :حس . يقول ربك تبارك وتعالى : أوانه. ألا فتطلعون على حوض الرسول، لا يظمأ والله ناهله أبدا)[٧٣١]؛ فصرح بتقدم الصراط على الحوض . وهذا غير مسلم أيضا ؛ لأن الحديث وإن كان صريحا في ذلك إلا أن إسناده ضعيف ؛ فلا يكون حجة على تقدم الصراط[٧٣٢].

٤- أن مادة الحوض من نهر الكوثر ، ونهر الكوثر في الجنة ، فيكون بجوارها لينصب

(٢٢٤٢) . وقال الأرنؤوط : إسناده قوي على شرط مسلم . انظر : تخريج أحاديث المسند ، ٣٣٢/٢٢ .

(٧٢٨) كتاب السنة ، لابن أبي عاصم ، باب في ذكر حوض النبي ، ح (٧١٧).

(٧٢٩) انظر : ظلال الجنة ، للألباني ، ٣٣١/٢ .

(٧٣٠) جامع الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، ح (٢٤٣٣). قال الألباني : صحيح . انظر : صحيح الترغيب والترهيب ، ح (٣٦٢٥) ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢٦٣٠).

(٧٣١) كتاب السنة ، لابن أبي عاصم ، ح (٦٣٦).

(٧٣٢) انظر : ظلال الجنة ، للألباني ٢٣١/١ ، ٢٨٩ .

فيه الماء من داخلها ، وهذا لا يتم إلا إذا كان بعد الصراط ؛ لأنه لو كان قبله لحالت النار بين الكوثر والحوض . وهذا غير لازم ؛ لأن الله قادر على إيصال الماء من الكوثر إلى الحوض دون أن تحول النار بين الكوثر والحوض ، وليس في النصوص ما يقتضي أن الحوض بجوار الجنة ، بل إنها متضافرة في الدلالة على أنه في عرصات القيامة قبل المرور على الصراط ، وهو اللائق بعظمة الوعد بالحوض ؛ لأنه لو كان بعد الصراط لما بقيت له فائدة تناسب كثرة العدات بالحوض .

أما الجمهور فقد استدلوا على أن الحوض قبل الصراط بدليلين :-

١- النصوص الدالة على أنه يختلج عن الحوض ، ويمنع منه أقوام ارتدوا على أدبارهم القهقرى ، وهؤلاء لا يجاوزون الصراط قطعا .

٢- أن طول القيام وشدة الحر يوم القيامة يقتضي أن يكون الحوض في عرصات القيامة قبل المرور على الصراط ، ولأن النصوص دلت على أن المؤمنين إذا عبروا الصراط لم يبق أمامهم إلا قصاص مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة . وقول الجمهور هو الأرجح ؛ لظهور دلالة النصوص على تقدم الحوض على الصراط ، وأنه يكون في عرصات القيامة على الأرض المبدلة[٧٣٣]، قال ابن مسعود ﷺ : تبدل الأرض أرضا بيضاء كأنها فضة ، لم يسفك فيها دم حرام ، ولم يعمل عليها خطيئة[٧٣٤]؛ قال القرطبي : لا يخطر ببالك أو يذهب وهمك إلى أن الحوض يكون على وجه هذه الأرض ، وإنما يكون وجوده في الأرض المبدلة ؛ وهي أرض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم، ولم يظلم على ظهرها أحد قط ، تطهر لنزول الجبار ﷻ لفصل القضاء[٧٣٥].

---

(٧٣٣) تقدم في مسألة تبدل العالم ذكر خلاف السلف في تبدل الأرض ، وأن الأظهر أن المراد به تغيير ذاتها وصفاتها ، لا مجرد تغيير صفاتها .

(٧٣٤) أخرجه عبد بن حميد وغيره ، ورجاله رجال الصحيح . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٣٧٥/١١ .

(٧٣٥) التذكرة ، ١/ ٣٠٤ (باختصار). وانظر في مسائل الحوض : التذكرة ، للقرطبي ٣٠٢/١- ٣٠٩ ، شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، ص ٢٢٧-٢٣٠ ، فتح الباري ، لابن حجر ٤٦٣/١١-٤٧٧ ، الوعد الأخروي ،

الشفاعة الموعودة

الشفاعة التي وعد النبي ﷺ بحصولها في عرصات القيامة وما بعدها ثلاثة أنواع[٧٣٦]:-

الأول : الشفاعة في فصل القضاء ؛ وهي الشفاعة العظمى ؛ قال تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) الإسراء : ٧٩ ؛ والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى ؛ إذ بسببها يحمده أهل الموقف كلهم ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا : (إن الشمس تدنو يوم القيامة، حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم ،ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ فيشفع ؛ ليقضى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا، يحمده أهل الجمع كلهم) [٧٣٧]. وقد درج كثير من أهل العلم على الاستدلال على هذا النوع من الشفاعة بحديث الشفاعة الطويل المخرج في الصحيح ، وفي الاستدلال به على الشفاعة العظمى نوع خفاء ؛ لأنه يذكر في أوله الاستشفاع في فصل القضاء ويذكر في آخره قبول شفاعة النبي ﷺ في دخول الجنة[٧٣٨]، وفي طريق آخر يذكر قبولها في الإخراج من النار[٧٣٩]؛ ولهذا رأى بعض أهل العلم أن الرواة ركبوا الحديث على غير أصله ، أو أن قبولها في دخول الجنة أو الخروج من النار مؤذن بقبولها في فصل القضاء ، أو أن في الحديث اقتصارا من بعض الرواة ؛ اقتصر على ما حفظه ، أو على القدر الذي يرد على من أنكر الشفاعة في الإخراج من النار . وفي حديث الشفاعة الطويل دلالة بينة على أن الشفاعة العظمى من خصائص النبي ﷺ ؛ لأن الأنبياء يعتذرون

للمؤلف ١/١١٦-١٣٢.

(٧٣٦) الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال ؛ فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا. والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر. وأما أهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر وشفاعة غيره ، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله ويحد له حدا . الصفدية ، لابن تيمية ٢/٢٩٠.

(٧٣٧) صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، ح (١٤٧٥).

(٧٣٨) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٤).

(٧٣٩) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٦٥).

عنها ، ويتدافعونها حتى تنتهي إلى سيد الناس يوم القيامة ﷺ ؛ فينطلق حتى يأتي تحت العرش ، فيقع ساجدا لله تعالى ، ويلهمه الله من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبله ، ثم يشفع عند ربه في فصل القضاء ، فتقبل شفاعته ، ويحمده أهل الجمع كلهم .

الثاني : الشفاعة في دخول الجنة ورفع درجات أهلها ؛ قال تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين)[٧٤٠] الطور : ٢١ ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بما ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر[٧٤١]، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ومالا يحتملون ؛ فيقول بعض الناس لبعض :ألا ترون ما أنتم فيه ، ألا ترون ما قد بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ... فيأتوني فيقولون :يا محمد! أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؛ اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي ، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبلي ، ثم يقال :يا محمد! ارفع رأسك ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول :يا رب! أمتي أمتي ؛ فيقال :يا محمد! أدخل الجنة من أمتك، من لا حساب عليه، من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . والذي نفس محمد بيده! إن ما بين المصراعين من

---

(٧٤٠) قد يقال : إن ظاهر الآية يدل على أن إلحاق الولد بوالده في المنزلة بمحض الفضل لا بالشفاعة . وجواب ذلك أنه ورد في بعض الآثار ما يدل على أن الإلحاق يكون بشفاعة من الأعلى منزلة ؛ وذلك أن الرجل إذا دخل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك ، فيقول : يا رب قد عملت لي ولهم ، فيؤمر بإلحاقهم به ، وقرأ ابن عباس : والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء . انظر : تفسير ابن كثير ٤٦/٧ .

(٧٤١) أي يبلغ أولهم وآخرهم حتى يراهم كلهم ويستوعبهم . انظر : النهاية ، لابن الأثير ٩١/٥.

مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر)[٧٤٢]. وهذا النوع من الشفاعة لا يختص بعرصات القيامة ؛ وإنما يكون أيضا في الدنيا ، وبعد دخول الجنة[٧٤٣]؛ عن أنس بن مالك ﷺ مرفوعا : (أنا أول شفيع في الجنة)[٧٤٤]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (سألت ربي عز وجل فوعدني أن يدخل من أمتي سبعين ألفا على صورة القمر ليلة البدر، فاستزدت، فزادني مع كل ألف سبعين ألفا)[٧٤٥]، وعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : (دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ؛ ثم قال : اللهم اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهديين)[٧٤٦]، وعن أبي موسى الأشعري ﷺ : (أن رسول الله ﷺ دعا بماء فتوضأ منه ، ثم رفع يديه ، ثم قال : اللهم اغفر لعبيد أبي عامر ، اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك)[٧٤٧]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (إن الله عز وجل ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول :يا رب، أنى لي هذه؟ فيقول :باستغفار ولدك لك)[٧٤٨]. وقد تردد بعض أهل العلم في هذه الشفاعة ؛ هل هي خاصة بالنبي ﷺ أو عامة ؟ والظاهر أن الشفاعة في رفع درجات أهل الجنة مشتركة ، وأما الشفاعة في دخولها فخاصة ؛ لقول النبي ﷺ : (أنا أول من يقرع باب

---

(٧٤٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٨٤).

(٧٤٣) يستفاد من مجموع النصوص التي دلت على هذا النوع من الشفاعة أن لها ثلاث صور ؛ الشفاعة في دخول الجنة بلا حساب ، والشفاعة لعموم المؤمنين في دخول الجنة ، والشفاعة في رفع درجات أهل الجنة فوق ما يقتضيه ثواب أعمالهم .

(٧٤٤) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٦).

(٧٤٥) مسند الإمام أحمد ، ح (٨٧٠٧). وإسناده جيد . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤١٠/١١ .

(٧٤٦) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، ح (٩٢٠).

(٧٤٧) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، ح (٢٤٩٨).

(٧٤٨) مسند الإمام أحمد ، ح (١٠٦١٠). قال ابن كثير : إسناده صحيح . تفسير ابن كثير ٤٧/٧ . والحديث ظاهر في الدلالة على الشفاعة في رفع الدرجة في الجنة باستغفار الولد ، وإن كان ذلك باعتبار آخر داخل في عمل الوالد ؛ لقول النبي ﷺ : (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة ؛ إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له). صحيح مسلم ، كتاب الوصية ، ح (١٦٣١).

الجنة)[٧٤٩]، وقوله : (آتي باب الجنة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت ، لا أفتح لأحد قبلك)[٧٥٠].

الثالث : الشفاعة في عصاة الموحدين ؛ وهي مما يكون في عرصات القيامة ؛ لقول النبي ﷺ : (لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ؛ فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا)[٧٥١]، وقوله : (أريت ما تلقى أمتي بعدي، فأحزنني وشق ذلك علي، من سفك دماء بعضهم بعضا، فسألته أن يوليني شفاعة فيهم يوم القيامة، ففعل)[٧٥٢]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (أمر بقوم من أمتي قد أمر بهم إلى النار فيقولون: يا محمد: ننشدك الشفاعة، فآمر الملائكة أن يقفوا بهم، فأنطلق واستأذن على الرب عز وجل، فيؤذن لي، فأسجد، وأقول رب قوم من أمتي قد أمرت بهم الى النار، فيقول: انطلق فأخرج من شاء الله أن تخرج ، ثم ينادي الباقون : يا محمد ننشدك الشفاعة، فأرجع إلى الرب، فأستأذن، فيؤذن لي، فأسجد، فيقول :ارفع رأسك، سل تعط، واشفع تشفع. فأقوم فأثني على الله بثناء لم يثن عليه أحد، ثم أقول : قوم من أمتي قد أمر بهم إلى النار، فيقول :انطلق فأخرج منهم من قال لا إله إلا الله، فأقول ومن كان في قلبه مثقال حبة من إيمان فيقول: يا محمد ليست تلك لك، تلك لي، فأنطلق فأخرج من شاء الله أن أخرج ويبقى قوم فيدخلون النار ... الحديث)[٧٥٣]؛ قال ابن كثير : هذا السياق يقتضي تعدد الشفاعة فيمن أمر بهم إلى النار ثلاث مرات أن لا

---

(٧٤٩) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٦).

(٧٥٠) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٧).

(٧٥١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٩) .

(٧٥٢) السنة ، لابن أبي عاصم ، ح (٨٠٠) . قال الألباني : إسناده صحيح على شرط البخاري . انظر : ظلال الجنة ، ٣٧٢/٢.

(٧٥٣) رواه ابن أبي الدنيا (نقلا عن النهاية ، لابن كثير ، ص ٤٧٥) . ورجاله رجال الصحيح إلا إسماعيل بن عبيد ، وقد وثقه الدارقطني ، والحديث محتمل للإرسال والاتصال ؛ فقد يكون الراوي سمعه من أبي هريرة رضي الله عنه وقد يكون أرسله . انظر : الشفاعة ، للوادعي ، ص ١١١.

يدخلوها، ويكون معنى قوله فأخرج أي أنقذ ؛ بدليل قوله بعد ذلك ويبقى قوم فيدخلون النار[٧٥٤]. وقد يستشكل على وقوع هذا النوع من الشفاعة في عرصات القيامة بقول النبي ﷺ : (ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحل الشفاعة ... الحديث ، إلى قوله : حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده! ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله، في استقصاء الحق، من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار .يقولون :ربنا! كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون .فيقال لهم :أخرجوا من عرفتم)[٧٥٥]؛ فظاهر الحديث يدل على أن الإذن في الشفاعة في عصاة الموحدين إنما يكون على الصراط ، ووقوعها قد لا يكون إلا بعد المرور على الصراط ، ويكون المراد بيوم القيامة في قول النبي ﷺ : (وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة) ، الدار الآخرة ؛ لأن يوم القيامة قد يراد به الموقف وما يكون فيه ، وقد يراد به الدار الآخرة كلها ! ويمكن القول جوابا عن هذا الاستشكال : المراد بقوله : (وتحل الشفاعة) الإذن في الشفاعة لمن يجتاز الصراط ؛ لئلا تناله الكلاليب أو يسقط في النار ، ولا ينفي ذلك وقوعها من قبل ؛ فإنها تقع مرارا لا مرة واحدة ؛ فتقع في الدنيا ، وتقع في العرصات ، وتقع بعد المرور على الصراط ودخول الجنة ؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا : (ما من رجل مسلم يموت ، فيقوم على جنازته أربعون رجلا ، لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم فيه)[٧٥٦]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال : أنا فاعل قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط . قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال فاطلبني عند الميزان قلت :فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال : فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطئ هذه الثلاث المواطن)[٧٥٧]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا :

---

(٧٥٤) النهاية ، ص ٤٧٥ .

(٧٥٥) مسلم كتاب الإيمان ح ١٨٣

(٧٥٦) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، ح (٩٤٨).

(٧٥٧) جامع الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، ح (٢٤٣٣) ، صححه الألباني ، صحيح الترغيب والترهيب ، ح

(أمر بقوم من أمتي قد أمر بهم إلى النار فيقولون: يا محمد: ننشدك الشفاعة، فآمر الملائكة أن يقفوا بهم ... الحديث)[٧٥٨]، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعا : (أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم ، فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ؛ فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل)[٧٥٩]؛ سئل ابن حجر : هل يميت الله العصاة من هذه الأمة ؟ فأجاب : نعم ثبت ذلك في الصحيحين ، بل في الصحيح أن من يدخل النار من عصاة هذه الأمة يميتهم الله إماتة صغرى ، ثم يخرجهم بالشفاعة فيلقون في نهر الحياة حمما ينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل[٧٦٠]. والشفاعة في عصاة الموحدين ليست خاصة بالنبي ﷺ ، وإنما هي مشتركة بين الشفعاء ؛ لقول النبي ﷺ : (يقول الله تعالى : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ... الحديث)[٧٦١]. وهذه الشفاعة كغيرها من الشفاعات لا تقع إلا إذا تحقق شرطها ؛ فيشترط في الشفاعة العظمى إذن الله للشافع أن يشفع ؛ لأنها لأهل الموقف كلهم ؛ برهم وفاجرهم ؛ قال تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) البقرة : ٢٥٥ ، وأما سائر الشفاعات فيشترط فيها زيادة على ذلك أن يكون المشفوع فيه مؤمنا ، ولو لم يكن معه إلا أصل

(٣٦٢٥) ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢٦٣٠).

(٧٥٨) تقدم في أول هذا النوع من الشفاعة ، وهو ظاهر في وقوعها في العرصات ، وتكرارها أيضا ، كما نص على ذلك ابن كثير في كلامه المذكور آنفا .

(٧٥٩) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٨٥).

(٧٦٠) الجواب الكافي عن السؤال الخافي ، لابن حجر (ضمن مجموع الرسائل المنيرية) ٤٣/٤ .

(٧٦١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٨٣). وشفاعة المؤمنين على قدر إيمانهم ؛ فمنهم من يشفع في الرجلين والثلاثة ، والشهيد يشفع في سبعين من أقاربه ، ومنهم من يشفع في أكثر من ذلك بكثير ؛ لقول النبي ﷺ : (ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين ربيعة ومضر) . مسند الإمام أحمد ، ح (٢٢٢١٥) . صححه الألباني . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح : (٥٣٦٣). ويستثنى من ذلك كل من ثبت أنه لا شفاعة له ؛ كاللعان ؛ ففي الصحيح أن اللعان لا يكون شهيدا ولا شفيعا يوم القيامة .

الإيمان ؛ وهو التوحيد ؛ لقول النبي ﷺ : (إني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ؛ فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا)[٧٦٢]، وقوله : (وأعطيت الشفاعة ، وهي نائلة من أمتي من لا يشرك بالله شيئا)[٧٦٣]؛ فالشفاعة في درء العقاب أو حصول الثواب دائرة مع التوحيد وجودا وعدما ؛ فالموحد تناله شفاعة النبي ﷺ التي تعم أهل التوحيد ، وتتكرر شفاعة النبي ﷺ وغيره من الشفعاء في بعض الموحدين إما في درء عقاب ، أو تخفيف حساب ، أو زيادة ثواب ، وذلك لأسباب زائدة على التوحيد ؛ منها :-

١- قول الدعاء المأثور بعد الأذان ؛ لقول النبي ﷺ : (من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة)[٧٦٤].

٢- سكنى المدينة حتى الممات ؛ لقول النبي ﷺ : (لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعا يوم القيامة أو شهيدا)[٧٦٥]، وقوله : (لا يصبر أحد على لأوائها فيموت إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة إذا كان مسلما)[٧٦٦]، وقوله : (من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها)[٧٦٧].

٣- قراءة القرآن ؛ لقول النبي ﷺ : (اقرؤوا القرآن ؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه)[٧٦٨]. واشتراط الإيمان فيما عدا الشفاعة العظمى من الشفاعات يخرج الكفار ، فليسوا من أهلها ؛ قال تعالى : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) المدثر : ٤٨ ،

---

(٧٦٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٩) .

(٧٦٣) مسند الإمام أحمد ، ح (٢١٤٣٥). قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح . انظر : مجمع الزوائد ٢٦٢/٨ ، وقال الألباني : صحيح لغيره . انظر : صحيح الترغيب والترهيب ، ح (٣٦٣٦).

(٧٦٤) صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، ح (٦١٤).

(٧٦٥) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، ح (١٣٧٨).

(٧٦٦) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، ح (١٣٧٤).

(٧٦٧) جامع الترمذي ، باب فضل المدينة ، ح (٣٩١٧). صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٦٠١٥).

(٧٦٨) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، ح (٨٠٤).

وقال : (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) غافر : ١٨ . وأما ما ثبت من شفاعة النبي ﷺ في عمه أبي طالب فإما أن يقال : إن مقصود الشفاعة إما درء العقاب أو زيادة الثواب ، وأبو طالب لم يحصل له شيء من ذلك ، وإنما حصل له أمر آخر ؛ وهو نقله من غمرات النار إلى أعلاها ؛ لأنه كان يحوط النبي ﷺ وينصره ، أو يقال : إن ما يتعلق بالنبي ﷺ مخصوص من هذه عمومات الشفاعة المنفية ونظائرها ؛ وبهذا أجاب بعض أهل العلم عن قول عروة بن الزبير : ثويبة مولاة لأبي لهب، كان أبو لهب أعتقها فأرضعت النبي ﷺ ، فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة ، قال له :ماذا لقيت؟ قال أبو لهب :لم ألق بعدكم غير أني سقيت في هذه بعتاقي ثويبة(٧٦٩).

قال ابن حجر : في الحديث دلالة على أن الكافر قد ينفعه العمل الصالح في الآخرة ، لكنه مخالف لظاهر القرآن ؛ قال الله تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) الفرقان : ٢٣ . وأجيب أولا بأن الخبر مرسل أرسله عروة ولم يذكر من حدثه به ، وعلى تقدير أن يكون موصولا فالذي في الخبر رؤيا منام فلا حجة فيه ، ولعل الذي رآها لم يكن إذ ذاك أسلم بعد فلا يحتج به ، وثانيا على تقدير القبول فيحتمل أن يكون ما يتعلق بالنبي ﷺ مخصوصا من ذلك بدليل قصة أبي طالب .. أنه خفف عنه فنقل من الغمرات إلى الضحضاح(٧٧٠).

****

(٧٦٩) صحيح البخاري ، كتاب النكاح ، ح (٥١٠١).

(٧٧٠) فتح الباري ١٤٥/٩ . وانظر في الشفاعة وأنواعها : التذكرة ، للقرطبي ٢٤٣/١-٢٥٢ ، ٣٤٠/٢-٣٥٦ ، فتح الباري ، لابن حجر ٤٢٦/١١- ٤٤٥ ، ٤٥٢ ، الوعد الأخروي ، للمؤلف ١٣٢/١-١٤٦ .

الفصل الخامس

الجنة والنار

خلق الجنة والنار

الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، وأنكر ذلك بعض أهل البدع من المعتزلة وغيرهم[٧٧١]؛ وزعموا أن الله إنما ينشئهما يوم القيامة . ولأهل السنة والجماعة على مذهبهم أدلة كثيرة ؛ منها :-

١- قوله تعالى : (اسكن أنت وزوجك الجنة) البقرة : ٣٥؛ فاللام المذكورة في القصة للعهد ، ولا معهود غير دار الثواب ، وإذا كانت الجنة مخلوقة فكذا النار ؛ إذ لا قائل بالفصل ، وأن الجنة مخلوقة دون النار[٧٧٢]؛ قال ابن القيم : مما يدل على أنها جنة الخلد بعينها أنها جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع، كقوله : (اسكن أنت وزوجك الجنة) البقرة : ٣٥ ، ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها إلا جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب، فقد صار هذا الاسم علما عليها بالغلبة، وإن كان في أصل الوضع عبارة عن البستان ذي الثمار والفواكه، وهذا كالمدينة لطيبة ، والنجم للثريا ، ونظائرها ؛ فحيث ورد اللفظ معرفا بالألف واللام انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين، وأما إن أريد به جنة غيرها فإنها تجيء منكرة، كقوله : (جنتين من أعناب) الكهف : ٣٢ ، أو مقيدة بالإضافة، كقوله : (ولولا إذ دخلت جنتك) الكهف : ٣٩ ، أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة في الأرض ؛ كقوله : (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) القلم : ١٧ ؛

---

(٧٧١) عزا التفتازاني هذا القول لأبي هاشم ، والقاضي عبد الجبار ، ومن جرى مجراهما من المعتزلة . وعزاه الجرجاني إلى أكثر المعتزلة ، وذكر أن منهم من يقول بخلقهما ووجودهما ؛ كأبي علي الجبائي ، وبشر بن المعتمر ، وأبي الحسين البصري. انظر : شرح المقاصد ١٠٨/٥ ، شرح المواقف ٣٢٨/٨ . وهذا القول لا يختص بالمعتزلة ؛ فقد وافقهم عليه الجهمية والضرارية . انظر : أصول الدين للبغدادي ، ص ٢٣٧ .

(٧٧٢) انظر : شرح المواقف مع حاشيته ٣٢٨/٨ ، شرح المقاصد ١٠٩/٥.

فهذا السياق والتقييد يدل على أنها بستان في الأرض[٧٧٣]. وزعم المعتزلة ومن وافقهم أن الجنة التي أهبط منها آدم عليه السلام كانت جنة بشرقي الأرض في مكان عال منها ، لأن جنة الخلد التي وعد المتقون لم يأت زمن دخولها ؛ وهي دار ثواب لا دار تكليف ، ودار مقامة وسلام ، لا يخرج من دخلها ، ولا يبتلى أهلها ، ولا يمكن أن يدخلها الشيطان الذي لعن وأهبط منها مذؤوما مدحورا . وقد أنكر أهل السنة والمتكلمون هذا التأويل ؛ قال ابن تيمية : الجنة التي أسكنها آدم وزوجته عند سلف الأمة وأهل السنة والجماعة هي جنة الخلد ، ومن قال إنها جنة في الأرض بأرض الهند أو بأرض جدة أو غير ذلك فهو من المتفلسفة والملحدين ، أو من إخوانهم المتكلمين المبتدعين ؛ فإن هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة ، والكتاب والسنة يردان هذا القول ، وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول[٧٧٤]، وقال التفتازاني : حملها على بستان من بساتين الدنيا يجري مجرى التلاعب بالدين ، والمراغمة لإجماع المسلمين[٧٧٥]. ومع ذلك فقد مال إلى هذا القول بعض أهل السنة ؛ كمنذر بن سعيد البلوطي ، الذي اختار هذا القول ، وحكاه عن أبي حنيفة ، ومن قال بقوله ، ورجحه أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع آخر من كتبه[٧٧٦]، وهذا هو الذي دفع ابن القيم إلى بسط هذه المسألة بما لعله لا يوجد في شيء من كتب المصنفين ، كما قال[٧٧٧]، ولكنه إما أن يطلق الخلاف ، أو يظهر من كلامه التوقف هذه المسألة[٧٧٨]؛ ولهذا لم يستدل على وجود الجنة بهذه الآية ؛ لقوة الخلاف في نظره[٧٧٩]. والصحيح

---

(٧٧٣) مفتاح دار السعادة ، ١/٤٤ ، ٤٥ .

(٧٧٤) مجموع الفتاوى ٤/٣٧٤ .

(٧٧٥) شرح المقاصد ، ٥/١٠٨ ، ١٠٩ .

(٧٧٦) النبوات ٢/٧٠٥ ، وعلى هذا فشيخ الإسلام له في هذه المسألة قولان .

(٧٧٧) مفتاح دار السعادة ١/٨٧ .

(٧٧٨) انظر : مفتاح دار السعادة ١/ ٨٦ ، ٨٧ ، حادي الأرواح ١/٤٥-٩١ .

(٧٧٩) انظر : حادي الأرواح ١/٤٥ .

أن الجنة التي أهبط منها آدم عليه السلام هي جنة الخلد لا جنة في الأرض ؛ وذلك لعدة أسباب ؛ منها :-

أ- وصف الجنة التي أهبط منها آدم عليه السلام بصفات لا تكون إلا في جنة الخلد ؛ قال تعالى : (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) طه : ١١٧-١١٩؛ قال البزدوي : أخبر أنه لو خرج من الجنة يشقى ، وأنه في الجنة لا يجوع ولا يعرى ، ولا يظمأ ولا يضحى ، وهذا من صفات جنات عدن لا من صفات جنات الدنيا(٧٨٠)، وقال ابن القيم : هذا لا يكون في الدنيا أصلا، فإن الرجل ولو كان في أطيب منازلها فلا بد أن يعرض له شيء من ذلك، وقابل سبحانه بين الجوع والعري، والظمأ والضحى، وذلك أحسن من المقابلة بين الجوع والعطش، والعري والضحى؛ فإن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، والظمأ حر الباطن، والضحى حر الظاهر؛ فنفى عن ساكنها ذل الظاهر والباطن، وحر الظاهر والباطن ، وهذا شأن ساكن جنة الخلد(٧٨١).

ب- قول النبي ﷺ : (احتج آدم وموسى ؛ فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، قال له آدم :يا موسى اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدر الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى) (٧٨٢)؛ فموسى عليه السلام إنما لام آدم عليه السلام على الإخراج من جنة الخلد ، وهو أعظم قدرا من أن يلومه على الإخراج من بستان في الأرض يعوض عنه غيره من بساتينها .

ج- قول النبي ﷺ : (يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون :يا أبانا استفتح لنا الجنة . فيقول :وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم!) (٧٨٣)؛ فدل على أن الجنة التي أخرج منها آدم عليه السلام هي

---

(٧٨٠) أصول الدين ، للبزدوي ، ص ١٦٦ .

(٧٨١) حادي الأرواح ٥٨/١ .

(٧٨٢) صحيح البخاري ، كتاب القدر ، ح (٦٦١٤).

(٧٨٣) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٥).

بعينها التي يطلب منه أن يستفتحها لهم . وأما الأدلة التي اعتمد عليها من قال إن الجنة التي أسكنها آدم عليه السلام ليست جنة الخلد ، وإنما كانت جنة في الأرض فالجواب عنها من وجوه :-

أ- أن الأدلة التي دلت على أن دخول جنة الخلد إنما يكون في الآخرة محمولة على دخول الاستقرار والدوام ، وأما الدخول العارض فيقع قبل ذلك ، كما دخلها النبي ﷺ ليلة المعراج ، وكما تدخلها أرواح الشهداء والمؤمنين في البرزخ .

ب- أن جنة الخلد إنما يمتنع أن تكون دار تكليف إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة ، ونهي آدم عليه السلام وزوجه عن قربان شجرة من أشجارها ليس من جنس التكليف بالصلاة والصيام وغيرها من الأعمال ، وإنما كان حجرا عن شجرة معينة ، وهذا لا يمتنع وقوعه في جنة الخلد ، فكل أحد من أهلها يحجر عليه قربان أهل غيره ، وكذلك من شرب الخمر ، أو لبس الحرير ومات على غير توبة فإنه يحرم من خمر الجنة وحريرها ؛ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعا : (من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة)[٧٨٤]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا : (من لبس الحرير في الدنيا فلن يلبسه في الآخرة)[٧٨٥].

ج- أن وصف الجنة بدار المقامة والسلامة من العري واللغو وغيره ، وأنها لا يخرج من دخلها ، ولا يبتلى أهلها إنما يكون إذا دخلها المؤمنون في الآخرة ، كما يدل عليه سياق الآيات كلها ؛ فإن نفي ذلك مقرون بدخول المؤمنين فيها ، وهذا لا ينفي أن يكون فيها بين آدم وإبليس ما حكاه الله تعالى من الامتحان والابتلاء ، ثم يصير الأمر عند دخول المؤمنين إليها إلى ما أخبر الله تعالى به من الخلود ، والسلامة من اللغو والابتلاء ؛ قال البزدوي : فإن قالوا : لو كان في جنات عدن لما خرج منها ؛ لأن من دخلها لا يخرج منها . قيل : لا ؛ فالملائكة يدخلونها ويخرجون منها ، لكن

---

(٧٨٤) صحيح البخاري ، كتاب الأشربة ، ح (٥٥٧٥).

(٧٨٥) صحيح البخاري ، كتاب اللباس ، ح (٥٨٣٢).

من دخل فيها بطريق الجزاء لا يخرج ؛ لأن الله جعلها جزاء للأعمال بطريق الخلود فضلا منه على عباده[٧٨٦].

د- أن إهباط الشيطان من السماء لا ينافي صعوده إليها صعودا عارضا لتمام الابتلاء والامتحان الذي قدره الله تعالى وقدر أسبابه، وإن لم يكن ذلك المكان مقعدا له ومستقرا ، كما أخبر تعالى عن الشياطين أنهم كانوا قبل المبعث يقعدون من السماء مقاعد للسمع، وهو صعود عارض ، لا يستقرون معه في المكان الذي يصعدون إليه[٧٨٧].

٢- وكذلك استدل أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن بقوله تعالى عن الجنة : (أعدت للمتقين) آل عمران : ١٣٣ ، وقوله : (أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) الحديد : ٢١ ، وقوله : (ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى) النجم : ١٣-١٥ ، وقوله عن النار : (أعدت للكافرين) آل عمران : ١٣١ ، وقوله : (إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا) النبأ : ٢١ ، ٢٢ ، وقوله : (وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) غافر : ٤٥ ، ٤٦ ؛ فعلم من ذلك أن الجنة أعدت وهيئت ، ورآها النبي ﷺ ليلة المعراج ، وكذلك النار أعدت وهيئت ، وآل فرعون يردونها غدوا وعشيا . قال البزدوي : أخبر أن الجنة والنار أعدتا ، والإعداد هو ... تهيئة الشيء لأمر[٧٨٨].

٣- واستدلوا كذلك بتواتر الأحاديث على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ؛ كقول النبي ﷺ : (تحاجت الجنة والنار ؛ فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ، قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنتي عذابي

---

(٧٨٦) أصول الدين ، للبزدوي ، ص ١٦٦ (بتصرف يسير).

(٧٨٧) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٤٧/٤-٣٥٠ ، النبوات ، لابن تيمية ٧٠٥/٢-٧١٣ ، مفتاح دار السعادة ٢٧/١-٨٨ ، حادي الأرواح ٤٥/١-٩١ .

(٧٨٨) أصول الدين ، للبزدوي ، ص ١٦٥ .

أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منهما ملؤها)[٧٨٩]، وقوله : (لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها)[٧٩٠]، وقوله : (ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك)[٧٩١]، وقوله : (بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال :هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، فإذا طينه مسك أذفر)[٧٩٢]، وقوله : (إني أريت الجنة فتناولت منها عنقودا ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا)[٧٩٣]، وقوله : (إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب جهنم)[٧٩٤] ، وقوله : (اشتكت النار إلى ربها ؛ فقالت : رب أكل بعضي بعضا ؛ فأذن لها بنفسين ؛ نفس في الشتاء ونفس في الصيف ، فأشد ما تجدون من الحر ، وأشد ما تجدون من الزمهرير)[٧٩٥]؛ قال ابن عبد البر : هذا الحديث أبين شيء في أنها خلقت ، وأنها باقية شتاء وصيفا[٧٩٦]. أما المعتزلة ومن وافقهم فاستدلوا على القول بأن الجنة والنار لم تخلقا بعد بثلاثة أدلة :-

١- أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارا أن تفنى يوم القيامة ، وأن يهلك كل من فيها ويموت ؛ لقوله تعالى : (كل شيء هالك إلا وجهه) القصص : ٨٨ . والجواب أن المراد هلاك كل شيء كتب الله عليه الفناء ، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ،

---

(٧٨٩) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٨٥٠).

(٧٩٠) جامع الترمذي ، أبواب صفة الجنة ، ح (٢٥٦٠). وإسناده حسن . انظر : صحيح الترغيب والترهيب ، للألباني ، ح (٣٦٦٩).

(٧٩١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٦٣).

(٧٩٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٨١).

(٧٩٣) صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، ح (٧٤٨).

(٧٩٤) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، ح (٣٢٧٧).

(٧٩٥) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، ح (٣٢٦٠).

(٧٩٦) التمهيد ١١٣/١٩.

وكذلك العرش فإنه سقف الجنة . وهذا جواب الإمام أحمد ، وقال الإمام البخاري : كل شيء هالك إلا وجهه إلا ملكه ، ويقال : إلا ما أريد به وجهه[٧٩٧].

٢- أن الجنة والنار داران للجزاء على الأعمال ، والجزاء إنما يكون في الآخرة ؛ فيكون خلقهما قبل يوم القيامة عبثا ؛ لبقائهما معطلتين مددا متطاولة ، والعبث على الله محال ! والجواب عن هذا من وجهين :-

أ- أن هذا الدليل مبني على أصلهم في التحسين والتقبيح العقلي الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله تعالى ! وهو أصل فاسد ، بني على قياس الخالق على المخلوق في فعله ؛ ولهذا كانوا مشبهة في باب الأفعال .

ب- أن الزعم بأن وجودهما الآن يلزم منه بقاؤهما معطلتين زعم غير مسلم ؛ لدلالة النصوص على عرض الجنة والنار على أهلها في البرزخ ، ودخول أرواح كثير منهم في الجنة أو النار ؛ لتنال قسطا من جزاء أعمالها قبل يوم القيامة ؛ قال تعالى : (وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) غافر : ٤٥ ، ٤٦ ، وعن عبد الله بن عمر ﷺ مرفوعا : (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال :هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)[٧٩٨]، وعن ابن مسعود ﷺ أنه سئل عن هذه الآية : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ آل عمران : ١٦٩؛ قال: (أما إنا سألنا عن ذلك ؛ فقال : أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل)[٧٩٩]، وعن كعب بن مالك ﷺ مرفوعا : (إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في الجنة حتى يرجعه الله تبارك

---

(٧٩٧) صحيح البخاري ، مع شرحه فتح الباري ، لابن حجر ، ٥٠٥/٨ .

(٧٩٨) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، ح (١٣٧٩).

(٧٩٩) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، ح (١٨٨٧).

وتعالى إلى جسده يوم يبعثه)[٨٠٠]، قال ابن القيم : هذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة[٨٠١].

٣- دلالة النصوص على أن الجنة لم يفرغ من خلقها ، وأنها لا زالت تخلق وتنشأ ؛ كقوله تعالى عن امرأة فرعون : (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) التحريم : ١١ ، وقول النبي ﷺ : (لقيت إبراهيم ليلة أسري بي ، فقال :يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[٨٠٢]، وقوله : (من قال سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة)[٨٠٣]، وقوله : (من بنى مسجدا لله بنى الله له في الجنة مثله)[٨٠٤]، وفي رواية : (من بني لله مسجدا، ولو كمفحص قطاة، بنى الله له بيتا في الجنة)[٨٠٥]، فلو كانت مخلوقة مفروغا منها لم تكن قيعانا، ولم يكن لهذا البناء والغراس معنى . والجواب أن يقال : إن أردتم بقولكم إنها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور، فهذا باطل ترده أدلة أهل السنة على خلقها ووجودها، وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنها لا يزال الله يحدث فيها شيئا بعد شيء، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أمورا أخر فهذا حق لا يمكن رده، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر[٨٠٦].

---

(٨٠٠) مسند الإمام أحمد ، ح (١٥٧٧٨) . وإسناده صحيح . انظر : تخريج أحاديث المسند ، ٥٨/٢٥.

(٨٠١) حادي الأرواح ٤٠/١ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، ص (٤٢٢).

(٨٠٢) جامع الترمذي ، أبواب الدعوات ، ح (٣٤٦٢). وإسناده حسن . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٥١٥٢).

(٨٠٣) جامع الترمذي ، أبواب الدعوات ، ح (٣٤٦٤). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٦٤٢٩)، تخريج الألباني لشرح العقيدة الطحاوية ، ح (٥٩٠).

(٨٠٤) صحيح مسلم ،كتاب المساجد ، ح (٥٣٣).

(٨٠٥) صحيح ابن حبان ، ح (٤٠) ، وإسناده صحيح . انظر : التعليقات الحسان ، للألباني ، ح (١٦٠٨).

(٨٠٦) انظر : التمهيد ، لابن عبد البر ٨/٥- ١٢ ، ١١٣/١٩-١١٧ ، مفتاح دار السعادة ٤٥/١-٥٠ ، حادي الأرواح ٩١/١- ١٠١ ، طبقات الحنابلة ٢٨/١ ، شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤٢٠-٤٢٥ ، شرح النونية ، للهراس ٣١/١ ، ٣٢ .

مكان الجنة والنار

الجنة في السماء بلا ريب ، وعلى ذلك تواطأت أقوال السلف ؛ قال تعالى : (وفي السماء رزقكم وما توعدون) الذاريات : ٢٢ ؛ قال ابن كثير : يعني الجنة ؛ قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد[٨٠٧]. ولا يشكل على هذا قوله تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض) آل عمران : ١٣٣ ، وقوله : (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) الحديد : ٢١ ؛ أي جنس السماء والأرض ؛ كما يدل لذلك الجمع في الآية التي قبلها[٨٠٨]، وذلك لأن المراد بكون الجنة في السماء أنها فوقها ؛ لأن في بمعنى على ؛ ولهذا ورد عن ابن عباس ﷺ أنه قال الجنة في السماء ، وفي رواية قال مجاهد : قلت لابن عباس أين الجنة ؟ قال : فوق سبع سموات[٨٠٩]. وسئل أنس بن مالك ﷺ عن الجنة ؛ أفي السماء هي أم في الأرض ؟ فقال : أي أرض وأي سماء تسع الجنة ! قيل له : فأين هي ؟ قال : فوق السموات ، وتحت العرش[٨١٠]. واستقراء النصوص إنما يدل على هذا المعنى ؛ قال تعالى : (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى) النجم : ١٣-١٥ ؛ وسدرة المنتهى فوق السماء[٨١١]، وقال النبي ﷺ : (في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلى الجنة وأوسطها، وفوق ذلك عرش الرحمن)[٨١٢]؛ قال قتادة : كانوا

---

(٨٠٧) تفسير ابن كثير ٣٣/٧ ، وانظر : حادي الأرواح ، لابن القيم ١٢٨/١ .

(٨٠٨) انظر : تفسير ابن كثير ١٨٦/٧.

(٨٠٩) حادي الأرواح ١٣٠/١ ، ١٣١ .

(٨١٠) تفسير الخازن ٤٢٠/١ .

(٨١١) حادي الأرواح ١٢٨/١ .

(٨١٢) جامع الترمذي ، أبواب صفة الجنة ، ح (٢٥٣٠) . قال الألباني : صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح (٣٤٢٩). وقد ذكر أهل العلم أن العرش أعلى المخلوقات وأعظمها، وسقفها، وهو كالقبة على العالم، ورأوا أن في ذلك دلالة على أن الجنة عرضها كطولها ؛ لأنها قبة تحت العرش ، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله. انظر : تفسير ابن كثير ٤١٩/٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، ص ٢٧٨ .

يرون أن الجنة فوق السموات السبع[٨١٣]. وذهب ابن حزم إلى أن الجنة هي السموات السبع ؛ لأن النبي ﷺ أخبر أنه رأى الأنبياء عليهم السلام في السموات ، سماء سماء ، ولا شك في أن أرواح الأنبياء في الجنة ، فصح أن الجنات هي السموات ! وذكر في موضع آخر أنها جنتان ؛ جنة عرضها السموات والأرض ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ؛ فالتي عرضها السموات والأرض هي السموات السبع ، والتي عرضها كعرض السماء والأرض هي الكرسي المحيط بالسموات والأرض ، وذكر أن في كل سماء باب ، وفي الكرسي باب ، وهذه الأبواب الثمانية هي أبواب الجنة التي أخبر النبي ﷺ عنها بقوله : في الجنة ثمانية أبواب[٨١٤]. وهذا القول مخالف لما تواطأت عليه أقول السلف في مكان الجنة ، وأنها فوق السموات ، ومخالف كذلك لمقتضى النصوص ؛ لأن دار الخلود لا يمكن أن تكون السماء محلا لها ؛ لأنها أكبر منها وأعظم بكثير ، ولأن السماء تبدل وتنشق وتكشط وتطوى ، فكيف تكون مع ذلك محلا لدار الخلود ! وأما القول بأن الكرسي محل الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض فقول مخالف لما ثبت عن السلف الصالح من اختصاص الكرسي بالله تعالى ؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما : الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى[٨١٥]، وقال أبو موسى : الكرسي موضع القدمين ، وله أطيط كأطيط الرحل[٨١٦]. ولا يلزم من رؤية الأنبياء عليهم السلام ليلة المعراج في السماء أن تكون هي الجنة ، فقد رآهم النبي ﷺ في الأرض ، وأمهم في بيت المقدس ، ورأى موسى عليه السلام قائما يصلي في قبره ، وفرق النبي ﷺ في حديث المعراج تفريقا بيّنا بين السموات والجنة ، فقال بعد الإخبار عن رؤية الأنبياء

---

(٨١٣) تفسير الخازن ١/٤٢٠ .

(٨١٤) انظر : الفصل ٢/٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٤/١٤١ ، ١٤٢ . وحديث : (في الجنة ثمانية أبواب) ، رواه البخاري . انظر : صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، ح (٣٢٥٧).

(٨١٥) كتاب التوحيد ، لابن خزيمة ، ١/٢٤٨ ، ٢٤٩ . وإسناده صحيح . انظر : تعليقات الألباني على شرح الطحاوية ، ح (٢٩٩).

(٨١٦) مختصر العلو ، للألباني ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

في السموات ، سماء سماء : (ثم أدخلت الجنة ، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك)[٨١٧]؛ فعلم أن الجنة غير السموات قطعا . وأما النار فقد اختلف أهل العلم في مكانها على أربعة أقوال :-

١- أنها في السماء ؛ لقوله تعالى : (وفي السماء رزقكم وما توعدون) الذاريات : ٢٢ ؛ قال الضحاك ومجاهد : وما توعدون من الجنة والنار[٨١٨]، ولقول النبي ﷺ : (أتيت بالبراق ... فلم نزايل ظهره أنا وجبريل عليه السلام حتى أتيت بيت المقدس ، ففتحت لنا أبواب السماء ، ورأيت الجنة والنار)[٨١٩]. وقد اختلف المتأخرون من أهل العلم في تفسير هذا القول ؛ فمنهم من رأى أن في الآية دلالة ظاهرة على أن النار في السماء ؛ كالآلوسي والشوكاني ، ومنهم من رأى أن مرادهم أن أعمال النار مقدرة في السماء لا أن النار فيها ؛ قال ابن القيم : قول مجاهد ومن معه يحتاج لتفسير ؛ فإن النار في أسفل سافلين ، ليست في السماء ، وإنما المراد أن أعمال الجنة والنار مقدرة في السماء ، فالخير والشر كلاهما يأتي من السماء ، كما صرح بذلك مجاهد في رواية أخرى عنه[٨٢٠]. ومما يدل على امتناع إجراء هذا القول على ظاهره إخبار الله تعالى بأن آل فرعون يعرضون في البرزخ على النار غدوا وعشيا ، وإخباره أن الكفار لا تفتح لهم أبواب السماء ، فدل أن النار ليست في السماء قطعا[٨٢١]. وأما حديث الإسراء فلا حجة فيه على أن النار في السماء ؛ قال السفاريني : ليس في هذا ونحوه حجة على أن النار في السماء ، لجواز أن يراها في الأرض وهو في السماء ، وهذا الميت يرى وهو في قبره الجنة والنار وليست الجنة في الأرض ، وقد ثبت أنه ﷺ رآهما وهو في

---

(٨١٧) صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، ح (٣٤٩) ، وحبايل اللؤلؤ يحتمل أن تكون بمعنى جنابذ اللؤلؤ ؛ أي قباب اللؤلؤ ، ويحتمل أن تكون بمعنى عقود اللؤلؤ وقلائده . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ، ١/ ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

(٨١٨) انظر : تفسير البغوي ٣٧٥/٧ (طبعة دار طيبة) ، حادي الأرواح ١٢٨/١ ، رسائل ابن رجب ١٥٦/٤ .

(٨١٩) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٣٣٣٣) . وإسناده حسن . انظر : تخريج أحاديث المسند ، ٣٥٧/٣٨.

(٨٢٠) حادي الأرواح ١٢٨/١ ، ١٢٩ (بتصرف)، وانظر : رسائل ابن رجب ١٥٨/٤ .

(٨٢١) رسائل ابن رجب ١٥٢/٤ .

صلاة الكسوف وهو في الأرض[٨٢٢].

٢- أن نار الله الكبرى هي البحر ؛ لحديث يعلى بن أمية ﷺ مرفوعا : (البحر هو جهنم)[٨٢٣]؛ قال ابن رجب : هذا إن ثبت فالمراد به أن البحار تفجر يوم القيامة، فتصير بحرا واحدا ، ثم تسجر، ويوقد عليها فتصير نارا ، وتزاد في نار جهنم . وقد فسر غير واحد من السلف قوله تعالى : (وإذا البحار سجرت) التكوير : ٦ ، بنحو هذا[٨٢٤]؛ سأل علي بن أبي طالب ﷺ رجلا من اليهود لم ير في اليهود مثله عن النار الكبرى ؟ فقال الحبر : يبعث الله الريح الدبور على البحر فتعود نارا ، فهي النار الكبرى[٨٢٥]، وفي رواية قال علي ﷺ : ما أراه إلا صادقا ، قال تعالى : (والبحر المسجور) الطور : ٦ ، وقال : (وإذا البحار سجرت) التكوير : ٦[٨٢٦]. وقال ابن عباس ﷺ : تكور الشمس والقمر والنجوم في البحر ، فيبعث الله عليها ريحا دبورا فتنفخه حتى يرجع نارا[٨٢٧] ، وقال في قوله: (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) العنكبوت : ٥٤ : هو هذا البحر تنتشر الكواكب فيه ، وتكور الشمس والقمر فيكون هو جهنم[٨٢٨] . وتلا عطاء بن يسار هذه الآية يوما : (وجمع الشمس والقمر) القيامة : ٩ ، وقال : يجمعان يوم القيامة ، ثم يقذفان في البحر ، فيكون نار الله الكبرى[٨٢٩]. وظاهر كلامه أن النار تنشأ عن إلقائهما في البحر يوم القيامة ، وفي هذا نظر ؛ لأن النار قد خلقت ووجدت كما أجمع على ذلك أهل السنة والجماعة ، والشمس والقمر إنما يقذفان في النار يوم

---

(٨٢٢) لوامع الأنوار ٢/٢٣٩ .

(٨٢٣) مسند الإمام أحمد ، ح (١٧٩٦٠) ، وإسناده ضعيف . انظر : تخريج أحاديث المسند ، للأرنؤوط ورفاقه ٢٩/٤٩٧.

(٨٢٤) رسائل ابن رجب ٤/١٥٤ .

(٨٢٥) انظر : التمهيد ، لابن عبد البر ١٨/١٦٤ .

(٨٢٦) رسائل ابن رجب ٤/١٥٥ .

(٨٢٧) المرجع السابق ، ٤/١٥٤ .

(٨٢٨) المرجع السابق .

(٨٢٩) تفسير الطبري ٢٩/١٨٠.

القيامة ، كما نص على ذلك عطاء وغيره من أهل العلم والفضل ؛ لقول النبي ﷺ : (الشمس والقمر مكوران يوم القيامة)[٨٣٠]، وفي رواية : (الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة)[٨٣١]، وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : (والذي نفسي بيده إن الشمس والقمر ليعلمان أنهما سيصيران إلى النار يوم القيامة)[٨٣٢]، وليس المراد من كونهما في النار تعذيبهما بذلك ؛ لأن الله لا يعذب من أطاعه اختيارا أو تسخيرا ، ولكن ليراهما من عبدهما ، كما قال تعالى : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) الأنبياء : ٩٨ ، أو ليكونا وقودا للنار وعذابا على أهلها[٨٣٣].

٣- أن النار تحت البحر ؛ قال مجاهد : قلت لابن عباس أين الجنة ؟ قال : فوق سبع سموات ، قلت : فأين النار ، قال تحت سبعة أبحر مطبقة[٨٣٤]. وقال علي رضي الله عنه ليهودي : أين جهنم ؟ قال : تحت البحر ، قال علي: صدق ، ثم قرأ : (وإذا البحار سجرت) التكوير : ٦[٨٣٥] . وقال سعيد بن أبي الحسن : البحر طبق جهنم[٨٣٦] . وأما حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعا : (لا يركب البحر إلا حاج ، أو معتمر ، أو غاز في سبيل الله ؛ فإن تحت البحر نارا ، وتحت النار بحرا)[٨٣٧]، فلا حجة فيه لهذا

---

(٨٣٠) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، ح (٣٢٠٠).

(٨٣١) شرح مشكل الآثار ، لأبي جعفر الطحاوي ، ح (١٨٣). قال الألباني : إسناده صحيح على شرط البخاري . سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٢٤).

(٨٣٢) مختصر العلو ، للألباني ، ح (٣٥) ، ص ٩٧ ، وإسناده صحيح .

(٨٣٣) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٢٩٩/٦ ، ٣٠٠ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني ١٩٤/١ .

(٨٣٤) حادي الأرواح ١٣١/١ .

(٨٣٥) رسائل ابن رجب ١٥٥/٤ .

(٨٣٦) الزهد ، للإمام أحمد ، ح (١٦٦٤) . والمراد بقوله طبق جهنم أن البحر غطاء على جهنم ، لأن الطبق يدل لغة على وضع شيء مبسوط على مثله حتى يغطيه ، ويقال لما علا الأرض حتى غطاها هو طبق الأرض . انظر : معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ٤٣٩/٣ .

(٨٣٧) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، ح (٢٤٨٩) ، وإسناده ضعيف . انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ح (٤٧٨ ، ٤٧٩).

القول ؛ لضعف إسناده ، ونكارة متنه ، ولأن غاية ما فيه لو كان ثابتا الدلالة على أن تحت البحر نار ، ولا يلزم من ذلك أن تكون هي نار الله الكبرى التي هي أعظم من أن تسعها بحار الدنيا وآلاف أمثالها ؛ قال الألباني : لا يخفى ما في هذا الحديث من المنع من ركوب البحر في سبيل طلب العلم والتجارة ونحو ذلك من المصالح التي لا يعقل أن يصد الشارع الحكيم الناس عن تحصيلها بسبب مظنون ؛ ألا وهو الغرق في البحر ، كيف والله تعالى يمتن على عباده بأنه خلق لهم السفن ، وسهل لهم ركوب البحر بها ؛ فقال : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) يس : ٤١ ، ٤٢ ؛ أي السفن على القول الصحيح ؛ الذي رجحه القرطبي وابن كثير وابن القيم وغيرهم ؛ ففي هذا دليل على ضعف هذا الحديث ، وكونه منكرا، والله أعلم . ويؤيد هذا قوله ﷺ : (المائد في البحر ؛ الذي يصيبه القيء له أجر شهيد الغرق ، والغرق له أجر شهيدين) ، رواه أبو داود والبيهقي عن أم حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بسند حسن ، وهو مخرج في الإرواء (١١٤٩) ؛ ففيه حض على ركوب البحر حضا مطلقا ، غير مقيد بغزو ونحوه[٨٣٨].

٤- أن النار في الأرض السفلى ؛ لقوله تعالى : (إن كتاب الفجار لفي سجين) المطففين : ٧ ؛ أي إن مصيرهم ومأواهم لفي سجين ، وسجين في الأرض السفلى ، لحديث البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعا : (وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ... الحديثَ ، وفيه : فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحا)[٨٣٩]، وقال تعالى : (ثم رددناه أسفل سافلين) التين : ٥ ؛ قال ابن القيم : أسفل سافلين هو سجين ، الذي هو مكان الفجار ، كما أن عليين مكان الأبرار[٨٤٠]، وقال السفاريني : الجنة فوق السماء السابعة ،

---

(٨٣٨) سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ٤٩١/١ ، ٤٩٢ (الطبعة الخامسة ، ١٤٠٥هـ) .

(٨٣٩) مسند الإمام أحمد ، ح (١٨٥٣٤). صححه الألباني . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (١٦٧٦).

(٨٤٠) التبيان ، ص ٧٤ .

وسقفها العرش ، والنار في الأرض السابعة على الصحيح المعتمد[٨٤١]. وقيل : إن سجين تحت الأرض السابعة ؛ قال قتادة : كانوا يرون أن الجنة فوق السموات السبع ، وأن جهنم تحت الأرضين السبع[٨٤٢]. والصحيح أن سجين في الأرض السفلى[٨٤٣]، ولكن لا دلالة في ذلك على أن مكان النار في الأرض السفلى ؛ لوجوه:-

أ- أن قول الله تعالى : (إن كتاب الفجار لفي سجين) المطففين : ٧ ، وقول النبي ﷺ : (فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى)[٨٤٤] إنما يدلان على موضع كتب الفجار ، وأنها في سجين ، وهو علم لموضع في الأرض السفلى ، أو علم لديوان الشر ؛ الذي تدون فيه أعمال الفجرة من الخلق ، ولا دلالة فيهما على أن جهنم في الأرض السفلى[٨٤٥].

ب- دلالة النصوص على تبدل الأرض والسماء ؛ قال تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) إبراهيم : ٤٨ ؛ فإذا كانت الأرض كلها تبدل فكيف يتصور مع ذلك أن تكون الأرض السفلى منها مكانا للنار الكبرى !

ج- أن السنة دلت على تعظيم خلق الكفار في النار ليذوقوا العذاب ؛ فما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاث للراكب المسرع ، وضرسه مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة

---

(٨٤١) لوامع الأنوار ٢/٢٣٩ .

(٨٤٢) تفسير الخازن ١/٤٢٠ . وهذا القول لم أر له مستندا فيما وقفت عليه من النصوص ، مع أن بعض المتكلمين حكاه عن الأكثرين . انظر : شرح الجوهرة ، للبيجوري ، ص ١٨٢ . والظاهر أنه مأخوذ عن أهل الكتاب ، كما يدل لذلك ما رواه ابن المبارك عن كعب الأحبار أنه قال : إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقبلها، فيهبط بها إلى الأرض، وتأبى الأرض أن تقبلها، فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهى بها إلى سجين . كتاب الزهد والرقائق ، لابن المبارك ، ح (١٢٢٣).

(٨٤٣) انظر فيما يتعلق بأقوال أهل العلم في مكان الجنة والنار : حادي الأرواح ، لابن القيم ١/١٢٨- ١٣٦ ، مجموع رسائل ابن رجب ٤/١٥١-١٥٩ ، لوامع الأنوار ، للسفاريني ٢/٢٣٧-٢٤٠ . وقد تعرض المتكلمون لذلك باقتضاب . انظر : شرح المقاصد ، للتفتازاني ٥/١١١ ، شرح الجوهرة ، للبيجوري ، ص ١٨٢ .

(٨٤٤) مسند الإمام أحمد ، ح (١٨٥٣٤). قال الألباني : صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (١٦٧٦).

(٨٤٥) انظر : تفسير الآية السابعة من سورة المطففين في تفسير القرطبي ، وابن جزي ، والشوكاني ، والآلوسي .

ثلاث !! وحينئذ يقال : كيف تسع الأرض السفلى أهل النار وهم كثير جدا ، وبهذه الأجسام الهائلة !

د- دلالة النصوص على عظمة خلق النار ، وأنها أعظم من الأرض بأضعاف مضاعفة ؛ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة ، فقال النبي ﷺ : تدرون ما هذا ؟ قلنا: الله ورسوله أعلم . قال : هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا ، فهو يهوي في النار الآن، حتى انتهى إلى قعرها)[٨٤٦]، وفي رواية : (هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفا ، فالآن انتهى إلى قعرها)[٨٤٧]، وعن مجاهد بن جبر قال : قال ابن عباس ﷺ : (أتدري ما سعة جهنم ؟ قلت : لا ، قال : أجل ، والله ما تدري ، حدثتني عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله : والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ؛ قالت : فأين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : على جسر جهنم)[٨٤٨]؛ فهذه النصوص ونظائرها تدل على عظمة خلق النار ، وأنها أكبر من أن تسعها الأرض السفلى ، يحقق ذلك أن الشمس وهي أضعاف حجم الأرض[٨٤٩]تلقى في النار لتكون من جملة وقودها ! والأظهر والله أعلم أن الجنة والنار عالم مستقل تماما عن هذا العالم ، وأنهما أعظم منه بكثير ، بل لا نسبة بينهما ، يحقق ذلك اطراد النصوص في الدلالة على زوال معالم هذا العالم المشهود بأرضه وبحاره وسمائه وكواكبه ؛ قال تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) إبراهيم : ٤٨ ، وقال : (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب) الأنبياء : ١٠٤ ، وقال : (وما قدروا الله حق قدره

---

(٨٤٦) صحيح مسلم ، كتاب القيامة والجنة والنار ، ح (٢٨٤٤).

(٨٤٧) مسند الإمام أحمد ، ح (٨٨٣٩) . وإسناده صحيح على شرط مسلم . انظر : تخريج أحاديث المسند ، ٤٣٣/١٤.

(٨٤٨) جامع الترمذي ، أبواب تفسير القرآن ، ح (٣٢٤١) . وإسناده صحيح . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٥٦١) ، تخريج أحاديث شرح السنة ، للبغوي ، ٢٥١/١٥ .

(٨٤٩) حجم الشمس حوالي (١٣٠٠٠٠٠) ضعف حجم الأرض . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ص (١٠٩٤).

والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) الزمر : ٦٧ ، وقال : (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت ... الآيات) التكوير ١-٣ ، وقال النبي ﷺ : (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ : إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت)[٨٥٠].

صفة الجنة والنار

نصوص القرآن والسنة حافلة بتفاصيل صفات الجنة والنار وصفات أهلها ، ومن ذلك الأمور التالية :-

الأول : الفوز بالجنة والنجاة من النار دائر مع الإيمان وجودا وعدما ، ويدخل في ذلك دخولا أوليا الصبر على المكاره وعن الشهوات المحرمة ؛ قال الله تعالى : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) التوبة : ٧٢ ، وقال : (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) البقرة : ٣٩ ، وقال النبي ﷺ : (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات)[٨٥١]، والإيمان الذي جعله الله تعالى مدارا لهذا الفوز العظيم أصل جامع لشعب متعددة منها ماله تأثير خاص في دخول الجنة ، وهكذا شأن مقابله ؛ فبعض شعب الكفر لها تأثير خاص في دخول النار ؛ عن عياض بن حمار ﷺ مرفوعا : (أهل الجنة ثلاثة ؛ ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال . وأهل النار خمسة ؛ الضعيف الذي لا زبر له، الذين هم فيكم تبعا لا يبتغون أهلا ولا مالا ، والخائن الذي لا يخفى له طمع، وإن دق إلا خانه ، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك . وذكر البخل

---

(٨٥٠) جامع الترمذي ، أبواب تفسير القرآن ، ح (٣٣٣٣) ، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي والألباني . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٠٨١) .

(٨٥١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٢٣).

أو الكذب ، والشنظير الفحاش)[٨٥٢]، وعن حارثة بن وهب الخزاعي ﷺ مرفوعا : (ألا أخبركم بأهل الجنة؟ قالوا : بلى ؛ قال ﷺ : كل ضعيف متضعف ، لو أقسم على الله لأبره. ثم قال : ألا أخبركم بأهل النار؟ قالوا : بلى ، قال : كل عُتُل جَوّاظ زنيم مستكبر)[٨٥٣]، وفي رواية : (لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري)[٨٥٤]؛ قال النووي : ضبطوا قوله متضعف بفتح العين وكسرها ، المشهور الفتح ، ولم يذكر الأكثرون غيره ؛ ومعناه يستضعفه الناس ويحتقرونه ، ويتجبرون عليه ؛ لضعف حاله في الدنيا ؛ يقال : تضعفه واستضعفه . وأما رواية الكسر فمعناها متواضع متذلل خامل واضع من نفسه ، قال القاضي : وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها وإخباتها للإيمان ، والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء كما أن معظم أهل النار القسم الآخر وليس المراد الاستيعاب في الطرفين ، وأما العتل فهو الجافي الشديد الخصومة بالباطل ، وأما الجواظ فهو الجموع المنوع ، وأما الزنيم فهو الدعي في النسب ، الملصق بالقوم وليس منهم[٨٥٥]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (صنفان من أهل النار لم أرهما ؛ قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا)[٨٥٦]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصر بهما ، وأذنان يسمع بهما ، ولسان ينطق به ؛ فيقول:

---

(٨٥٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٦٥). وزبر بفتح الزاي وإسكان الباء ؛ أي لا عقل لهؤلاء الأتباع يزبرهم ويمنعهم مما لا ينبغي ، والشنظير بكسر الشين والظاء المعجمة وإسكان النون ، وفسره في الحديث بأنه الفحاش ؛ أي سيء الخلق ، الفاحش المتفحش . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ١٩٩/١٧ ، ٢٠٠ ، رسائل ابن رجب ٣٨٢/٤-٣٨٦ .

(٨٥٣) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٥٣).

(٨٥٤) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، ح (٤٨٠١) . وإسناده صحيح . انظر : تخريج أحاديث جامع الأصول ، ٥٣٦/١٠. والجعظري هو الفظ الغليظ . انظر : جامع الأصول ، لابن الأثير ٥٣٧/١٠.

(٨٥٥) شرح صحيح مسلم ١٨٧/١٧ ، ١٨٨ (باختصار).

(٨٥٦) صحيح مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، ح (٢١٢٨).

إني وكلت بثلاثة ؛ بكل جبار عنيد ، وبكل من ادعى مع الله إلها آخر ، والمصورين)[٨٥٧].

الثاني : الفقراء أكثر أهل الجنة ؛ لقول النبي ﷺ : (احتجت النار والجنة ؛ فقالت هذه :يدخلني الجبارون والمتكبرون ، وقالت هذه : يدخلني الضعفاء والمساكين ؛ فقال الله ﷻ لهذه : أنت عذابي أعذب بك من أشاء ، وربما قال: أصيب بك من أشاء ، وقال لهذه : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها)[٨٥٨]، وقوله : (اطلعت في الجنة[٨٥٩]فرأيت أكثر أهلها الفقراء) [٨٦٠]، وقوله : (قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين[٨٦١]وأصحاب الجد محبوسون) [٨٦٢]؛ والجد بفتح الجيم أي الغنى ، والظاهر أن هذا الحبس يكون على القنطرة ، التي تكون بعد الجواز على الصراط ؛ فيحبس الأغنياء عليها ؛ لمحاسبتهم على المال[٨٦٣]. وأما ما يقوله بعض الناس عن رسول الله ﷺ إنه قال : اطلعت على أهل الجنة فرأيت أكثر أهلها البله ، فهذا لا يصح عن رسول الله ﷺ ، ولا ينبغي نسبته إليه، فإن الجنة إنما خلقت لأولي الألباب، الذين أرشدتهم عقولهم إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقد ذكر الله أهل الجنة بأوصافهم في كتابه، فلم يذكر في أوصافهم البله، الذي هو ضعف العقل، وإنما قال النبي ﷺ : اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، ولم

---

(٨٥٧) مسند الإمام أحمد ، ح (٨٤٣٠) ، وإسناده صحيح . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٥١٢).

(٨٥٨) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٤٦).

(٨٥٩) ظاهره أنه رأى ذلك ليلة الإسراء ، أو مناما ، وقيل : حين خسفت الشمس . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤١٩/١١ .

(٨٦٠) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٤٦).

(٨٦١) هذه الرواية لا تنافي الرواية التي قبلها ؛ لأن الفقير والمسكين كل منهما يطلق على الآخر . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤٢٠/١١.

(٨٦٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٤٧).

(٨٦٣) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤٢٠/١١ .

يقل البله[٨٦٤]. والغريب أن القرطبي صحح هذا الحديث ؛ ولكنه فسره بما لا يعارض أوصاف أهل الجنة التي جاءت بها النصوص ؛ ففسر البله إما بالغفلة عن الشر والمعاصي ، أو بسلامة الصدر وحسن الظن بالناس، وعضد وجهة نظره بقوله تعالى : (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ ، وقول النبي ﷺ : (يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير)[٨٦٥]؛ أي مثلها في أنها خالية من ذنب، سليمة من كل عيب، لا خبرة لهم بأمور الدنيا[٨٦٦]. وهذا التفسير وإن كان لا يعارض ما جاءت به النصوص من صفات أهل الجنة إلا أنه لا أصل له شرعا ولا لغة ؛ فالحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ، وتفسير البله بما ذكره من المعاني يخالف معناه المعروف لغة ؛ قال ابن فارس في تفسير البله : هو شبه الغرارة والغفلة ، قال الخليل وغيره : البله ضعف العقل[٨٦٧]، وأيضا فالمعنى الذي ذكره للحديث الذي عضد به وجهة نظره يخالف المشهور بين أهل العلم من معناه ؛ قال النووي : قوله ﷺ : **يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير** قيل مثلها في رقتها وضعفها ؛ كالحديث الآخر أهل اليمن أرق قلوبا وأضعف أفئدة ، وقيل في الخوف والهيبة ، والطير أكثر الحيوان خوفا وفزعا ، كما قال الله تعالى : إنما يخشى الله من عباده العلماء ، وكأن المراد قوم غلب عليهم الخوف ، كما جاء عن جماعات من السلف في شدة خوفهم ، وقيل المراد متوكلون[٨٦٨].

الثالث : النساء أكثر أهل النار ؛ لقول النبي ﷺ : (اطلعت في النار فرأيت أكثر

---

(٨٦٤) شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، ص ٥٠٨ ، ٥٠٩.

(٨٦٥) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٤٠).

(٨٦٦) انظر : تفسير القرطبي ١١٥/١٣ .

(٨٦٧) معجم مقاييس اللغة ٢٩١/١.

(٨٦٨) شرح صحيح مسلم ، ١٧٧/١٧ .

أهلها النساء)[٨٦٩]، وقوله : (قمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء)[٨٧٠]؛ وقد بين النبي ﷺ في مقام آخر سبب هذه الكثرة ، وأنها ثلاث معاص غالبة على النساء ؛ فقال : (رأيت النار فلم أر كاليوم منظرا قط ، ورأيت أكثر أهلها النساء ؛ قالوا : لم يا رسول الله ؟ قال : بكفرهن ، قيل : يكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ؛ لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط)[٨٧١]، وقال : (إني أريتكن أكثر أهل النار ؛ فقلن : وبم يا رسول الله ؟ قال : تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير)[٨٧٢]، وفي رواية : (لأنكن تكثرن الشكاة ، وتكفرن العشير)[٨٧٣]. وقد رأى بعض أهل العلم أن كون النساء أكثر أهل النار لا يعني أنهن أقل أهل الجنة ؛ ولهذا لما تذاكر بعض السلف في أكثر أهل الجنة ؛ هل هم الرجال أم النساء ؟ قال أبو هريرة رضي الله عنه : أو لم يقل أبو القاسم ﷺ : إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوإ كوكب دري في السماء ، **لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان** ؛ يرى مخ سوقهما من وراء اللحم ، وما في الجنة أعزب)[٨٧٤]؛ فظاهره أن النساء أكثر أهل الجنة أيضا[٨٧٥]، ويعارض هذا الظاهر ما رواه مسلم بسنده عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعا : (إن أقل ساكني الجنة النساء)[٨٧٦]؛ قال ابن رجب : رام بعضهم الجمع بين الحديثين بأن قلة النساء في الجنة إنما هو قبل خروج عصاة الموحدين من النار ، فإذا خرجوا منها كان النساء

---

(٨٦٩) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٤٦).

(٨٧٠) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٤٧). وظاهر الحديث أنه رأى ذلك ليلة الإسراء أو مناما ، وهو غير رؤيته النار وهو في صلاة الكسوف ، ووهم من وحدهما . فتح الباري ، لابن حجر ، ٤١٩/١١.

(٨٧١) صحيح البخاري ، كتاب النكاح ، ح (٥١٩٧).

(٨٧٢) صحيح البخاري ، كتاب الحيض ، ح (٣٠٤).

(٨٧٣) صحيح مسلم ، كتاب صلاة العيدين ، ح (٨٨٥).

(٨٧٤) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٣٤).

(٨٧٥) انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ، ١٧٢/١٧ .

(٨٧٦) صحيح مسلم ، كتاب الرقاق ، ح (٢٧٣٨).

حينئذ أكثر ، والصحيح أن أبا هريرة أراد أن جنس النساء في الجنة أكثر من جنس الرجال ، لأن كل رجل منهم له زوجتان ، ولم يرد أن النساء من ولد آدم أكثر من الرجال ، ويدل على هذا أنه ورد في بعض روايات حديث أبي هريرة هذا الصحيحة ؛ لكل واحد منهم زوجتان من الحور العين(٨٧٧)، وقال القرطبي : نوع النساء المشتمل على الحور والآدميات في الجنة أكثر من نوع رجال بني آدم ، ورجال بني آدم أكثر من نسائهم ، وعن هذا قال النبي ﷺ : أقل ساكني الجنة النساء ، وأكثر ساكني جهنم النساء ؛ يعني نساء بني آدم هن أقل في الجنة ، وأكثر في النار(٨٧٨).

الرابع : في دخول الجن في عمومات الوعد بالجنة والوعيد بالنار ؛ قال الشبلي : اتفق العلماء على أن كافر الجن معذب في الآخرة ، كما ذكر الله في كتابه العزيز ؛ كقوله تعالى : (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله)(٨٧٩) الأنعام : ١٢٨ ، وقوله تعالى : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) الجن : ١٥ ، والله أعلم(٨٨٠)، وقال ابن القيم : اتفق المسلمون على أن كفار الجن في النار ، وقد دل على ذلك القرآن في غير موضع كقوله تعالى : (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) السجدة : ١٣ ، وقوله : (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) ؛ ص : ٨٥ ، فملؤها به وبكفار ذريته ، وقال تعالى : (ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار) ، الأعراف : ٣٨ ، وقال تعالى في حكاية عن مؤمنيهم : (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) الجن ، ١٤ ، ١٥ ، وقال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس) الأعراف : ١٧٩ ، وقال

---

(٨٧٧) رسائل ابن رجب ، ٣٧٤/٤ ، وانظر : فيض القدير ، للمناوي ٤٢٨/٢ .

(٨٧٨) المفهم ، ١٨١/٧ .

(٨٧٩) قال ابن القيم : هذا خطاب للصنفين ـ أي الجن والإنس ـ ، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف ، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب . طريق الهجرتين ، ص ٤٢٠ . (دار المطبعة السلفية ، تحقيق محب الدين الخطيب ، الطبعة الثالثة).

(٨٨٠) آكام المرجان في أحكام الجان ، ص (٥٧).

تعالى : (فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون) ، الشعراء ، ٩٤ ، ٩٥ ، وجنوده إن لم يختص بالشياطين فهم داخلون في عمومه ، وبالجملة فهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الإسلام[٨٨١]. وأما دخول الجن في عمومات الوعد بدخول الجنة فمحل خلاف بين أهل العلم ، ولهم في ذلك قولان رئيسان[٨٨٢] :-

أحدهما : أنهم داخلون فيها ؛ لأنها عامة ، وليس هناك دليل يقتضي قصر دلالتها على الإنس دون الجن . وهذا قول جمهور أهل العلم .

الثاني : أنهم لا يدخلون فيها ؛ لأن الله تعالى جعل غاية ثوابهم النجاة من النار ، ولو كان لهم جزاء أعلى لذكرة في هذا المقام ؛ لأنه مقام دعوة وترغيب ؛ قال تعالى عنهم : (يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) الأحقاف : ٣١ . وهذا قول أبي حنيفة وغيره . والقول الأول هو الصحيح ؛ لأن الوعد والوعيد مرتب على التكليف ، وهم مكلفون بلا ريب ؛ فيدخلون في عمومات الوعد بالجنة كما دخلوا في عمومات الوعيد بالنار ، ولأن من النصوص ما هو صريح في دخولهم الجنة ؛ كقوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان ... الآيات إلى قوله : لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) الرحمن : ٤٦-٥٦ ، بل إن الآية التي استدلوا بها على عدم دخولهم الجنة دليل ظاهر على دخولهم فيها ؛ إذ لا فائدة للمغفرة والإجارة من النار إلا دخول الجنة ؛ فكل من غفر له دخل الجنة ولا بد ، وإنما لم تذكر البشارة بها في الآية اقتصارا على ما يناسب مقام الإنذار ؛ كما قال تعالى عن نوح عليه السلام : (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) الأعراف : ٥٩ ، وعن شعيب عليه السلام : (وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط) هود : ٤٨ ؛ ولا خلاف أن مؤمنهم يدخل الجنة فكذلك مؤمن الجن[٨٨٣].

---

(٨٨١) طريق الهجرتين ، ص ٤١٧ (دار المطبعة السلفية ، تحقيق محب الدين الخطيب ، الطبعة الثالثة).

(٨٨٢) هناك أقوال أخرى ؛ كالقول بأنهم على الأعراف ، أو في ربض الجنة . وهي أقوال ليس لها أدلة ثابتة . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٣٤٦/٦.

(٨٨٣) انظر لمزيد تفصيل للمسألة : مفتاح دار السعادة ، لابن القيم ١٠١/١-١٠٧ ، آكام المرجان ، للشبلي ، ص ٥٧-٦١ ، الوعد الأخروي ، للمؤلف ٣٧٤/١-٣٨٠ .

الخامس : في اقتران الوعد بالجنة بالوعيد بالنار ؛ وذلك ظاهر في نصوص كثيرة ؛ منها:-

١- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد)[٨٨٤]، وفي حديث آخر لأبي هريرة مرفوعا : (لا يدخل أحد الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ؛ ليزداد شكرا ، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ؛ ليكون عليه حسرة)[٨٨٥]؛ قال ابن حجر : وقع عند ابن ماجه بسند صحيح من طريق آخر عن أبي هريرة أن ذلك يقع عند المسألة في القبر ، وفيه: فيفرج له فرجة قبل النار، فينظر إليها ، فيقال له : انظر إلى ما وقاك الله، وفي حديث أنس ... فيقال : انظر إلى مقعدك من النار، زاد أبو داود في روايته : هذا بيتك كان في النار، ولكن الله عصمك ورحمك، وفي حديث أبي سعيد :كان هذا منزلك لو كفرت بربك... ووقع عند ابن ماجه أيضا وأحمد بسند صحيح عن أبي هريرة بلفظ :ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله وذلك قوله تعالى : (أولئك هم الوارثون) المؤمنون : ١٠ ، وقال جمهور المفسرين في قوله تعالى : (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض) الزمر : ٧٤ ؛ المراد أرض الجنة التي كانت لأهل النار لو دخلوا الجنة ، وهو موافق لهذا الحديث . وقيل :المراد أرض الدنيا ؛ لأنها صارت خبزة فأكلوها .. ، وقال القرطبي : يحتمل أن يسمى الحصول في الجنة وراثة من حيث اختصاصهم بذلك دون غيرهم[٨٨٦].

٢- عن أنس بن مالك ﷺ مرفوعا : (يؤتى بأنعم أهل الدنيا، من أهل النار، يوم القيامة ، فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال : يا ابن آدم ، هل رأيت خيرا قط ؟ هل

---

(٨٨٤) صحيح مسلم ، كتاب التوبة ، ح (٢٧٥٥).

(٨٨٥) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٦٩).

(٨٨٦) فتح الباري ٤٤٢/١١.

مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا ، والله يا رب ! ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا، من أهل الجنة ، فيصبغ صبغة في الجنة ؛ فيقال له : يا ابن آدم ! هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا ، والله يا رب ! ما مر بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط)[٨٨٧].

٣- عن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعا : (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح[٨٨٨]، فينادي مناد : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون :نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه . ثم ينادي :يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح[٨٨٩]، ثم يقول :يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت)[٨٩٠]، وفي رواية : (فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم)[٨٩١]، ولا إشكال في الحديث ؛ لأن الموت وإن كان عرضا لا يتصور ذبحه إلا إن الله تعالى بقدرته على كل شيء يقلب الأعراض أجساما ؛ كما في الصحيح أن البقرة وآل عمران يجيئان كأنهما غمامتان ، ونحو ذلك من الأحاديث[٨٩٢]؛ قال ابن أبي العز الحنفي : الموت ... وإن كان عرضا فالله تعالى يقلبه عينا، كما ورد في العمل الصالح أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن ، والعمل القبيح على أقبح صورة ، وورد في

---

(٨٨٧) صحيح مسلم ، كتاب صفة القيامة ، ح (٢٨٠٧).

(٨٨٨) في الأملح إشارة إلى صفتي أهل الجنة والنار ؛ لأن الأملح ما فيه بياض وسواد . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤٢٠/١١.

(٨٨٩) وقع في بعض الروايات تعيين المكان الذي يذبح فيه الموت ، فعن ابن عمر ﷺ مرفوعا : (إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح) . صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٤٨) ، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (فيقال :هل تعرفون هذا؟ قالوا :نعم ، هذا الموت ، فيأمر به فيذبح على الصراط). مسند الإمام أحمد ، ح (٧٥٤٦). وإسناده حسن . انظر : تخريج أحاديث المسند ، ٥٠٩/١٢ .

(٨٩٠) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٧٣٠).

(٨٩١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٤٨).

(٨٩٢) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤٢١/١١.

القرآن أنه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون .. ؛ أي قراءة القارئ ، وورد في الأعمال أنها توضع في الميزان ، والأعيان هي التي تقبل الوزن دون الأعراض، وورد في سورة البقرة وآل عمران أنهما يوم القيامة يظلان صاحبهما ؛ كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف ، وفي الصحيح أن أعمال العباد تصعد إلى السماء[٨٩٣].

السادس : في معنى الجنة وأسمائها وأنواعها ؛ الجنة اسم الجنس ؛ فيقال مرة جنة ، ومرة جنات[٨٩٤]، وأصل هذا اللفظ من الستر والتغطية ، ولهذا سمي البستان جنة ؛ لاستتار داخله بالأشجار ، ولا يستحق هذا الاسم إلا موضع كثير الشجر ، مختلف الأنواع ، وتسمى الجنة أيضا بدار السلام ، والمقام الأمين ؛ لأن الله سلمها وسلم أهلها ؛ فهم آمنون فيها من كل سوء ، وتسمى بجنات النعيم ؛ لأن الله أعد لأهلها من أصناف النعيم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وتسمى كذلك بدار الخلد والمقامة ؛ لأن أهلها لا يموتون فيها ، ولا يظعنون عنها ؛ ولهذا المعنى سميت بجنة عدن وجنة المأوى ؛ يقال : عدن بأرض كذا ؛ أي أقام واستقر ، ويقال : أوى يأوي إذا انضم إلى المكان ، وصار إليه ، واستقر به . ومن أسماء الجنة الفردوس؛ أي البستان الجامع لأنواع الشجر ، وهو يقال على جميع الجنة ، كما في قول الله تعالى : (الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) المؤمنون : ١١، ويقال على أعلاها وأفضلها ؛ كما في قول النبي ﷺ : (فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس ؛ فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة)[٨٩٥]. وقد

---

(٨٩٣) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٢٣ .

(٨٩٤) انظر : التذكرة ، للقرطبي ، ص ٥٠١ .

(٨٩٥) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، ح (٧٤٢٣). واستقراء أسماء الجنة مقتبس من كلام ابن القيم ، ولابن حجر استقراء مقارب له يقول فيه : أسماء الجنة .. عشرة أو تزيد ؛ وهي الفردوس وهو أعلاها ، ودار السلام، ودار الخلد ، ودار المقامة ، وجنة المأوى ، والنعيم ، والمقام الأمين ، وعدن ، ومقعد صدق ، والحسنى ، وكلها في القرآن . والفرق بينهما أن ابن القيم شرح هذه الأسماء ، وذكر زيادة عليها دار الحيوان ؛ لقوله تعالى : (وإن الدار الآخرة لهي الحيوان)

اختلف أهل العلم في هذه الأسماء ؛ هل هي أسماء لجنة واحدة أو لجنان متعددة ، ولهم في ذلك أربعة أقوال :-

١- أنها أسماء لجنة واحدة ، وهذه الأسماء جارية عليها لتحقق معانيها فيها ؛ قال ابن القيم : لها عدة أسماء باعتبار صفاتها ومسماها واحد باعتبار الذات ، فهي مترادفة من هذا الوجه ، وتختلف باعتبار الصفات ، فهي متباينة من هذا الوجه ، وهكذا أسماء الرب ، وأسماء كتابه ، وأسماء رسوله ، وأسماء اليوم الآخر ، وأسماء النار[٨٩٦].

٢- أنها أربع جنان ؛ لقول الله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) الرحمن : ٤٦ ، وقوله : (ومن دونهما[٨٩٧]جنتان) الرحمن : ٦٢ ، وقول النبي ﷺ : (جنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما)[٨٩٨]؛ فلم يثبت في النصوص حين أتى بذكر العدد سوى أربع جنان ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) الرحمن : ٤٦ ، إلى قوله : (ومن دونهما جنتان) الرحمن : ٦٢ ؛ تانك للمقربين، وهاتان لأصحاب اليمين[٨٩٩]. وتعدد أسماء الجنة لا يناقض

العنكبوت : ٦٤ ؛ والمراد الجنة عند أهل التفسير ؛ أي دار الحياة التي لا موت فيها . وهكذا ابن حجر زاد بذكر اسم الحسنى ؛ لقوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) يونس : ٢٦ ؛ فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم . انظر : حادي الأرواح ، ١٩١/١-٢٠٦ ، فتح الباري ، ٤١٩/١١ .

(٨٩٦) حادي الأرواح ١٩١/١.

(٨٩٧) اختلف أهل العلم في المراد بقوله تعالى ومن دونهما ؛ هل المراد أنهما أقرب منهما للعرش فيكونان فوقهما ، أو المراد أنهما دونهما في المنزلة ، وأن الجنتين الأوليين أفضل ، القول الثاني أظهر ؛ لأن السياق القرآني كما قال ابن القيم يدل على تفضيل الجنتين الأولتين من عشرة أوجه ، وقال ابن حجر : في رواية ... جنتان من ذهب للمقربين ، ومن دونهما جنتان من ورق لأصحاب اليمين . أخرجه الطبري وابن أبي حاتم ، ورجاله ثقات ، وفيه رد على ما حكيته عن الترمذي الحكيم أن المراد بقوله تعالى ومن دونهما جنتان الدنو بمعنى القرب لا أنهما دون الجنتين المذكورتين قبلهما . انظر : حادي الأرواح ٢٠٧/١-٢١١ ، فتح الباري ، ٤٣١/١٣ .

(٨٩٨) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، ح (٧٤٤٤). وفي رواية في إسنادها ضعف : (جنان الفردوس أربع ؛ ثنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما ، وثنتان من فضة ... الحديث بنحوه) . انظر : تخريج أحاديث مسند الإمام أحمد ، ٥٠٥/٣٢ .

(٨٩٩) تفسير القرطبي ، ١٨٣/١٧.

القول بأنها أربع جنان ؛ لأنها ليست لتميز جنة من جنة ، لكنها للجنان أجمع ، ولهذا تسمى الجنة باسم في موضع ثم تسمى جميع الجنان بذلك الاسم في موضع آخر ، كما قال تعالى : (عندها جنة المأوى) النجم : ١٥ ، وقال في موضع آخر : (فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون) السجدة : ١٩ ؛ فعلمنا أن جنة المأوى اسم لجميع الجنان لا لجنة بعينها .

٣- أنها أسماء لسبع جنان ، أو ثمان ؛ قال ابن عباس ﷺ: الجنات سبع ؛ دار الجلال، ودار السلام، وجنة عدن، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم، وفي بعض الروايات ثمان ، وذكر دار القرار[٩٠٠]، ويقوي هذا الرأي قول النبي ﷺ : (من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء)[٩٠١].

٤- أنها اسماء لجنان كثيرة أعلاها الفردوس ؛ لقول النبي ﷺ لأم حارثة لما أصيب حارثة يوم بدر : (إنها جنان كثيرة ، وإنه لفي جنة الفردوس)[٩٠٢]، وفي رواية : (وإنه في الفردوس الأعلى)[٩٠٣] . والصحيح أن الجنان أربع ؛ لدلالة القرآن والسنة على ذلك صراحة ، وأما النصوص الدلالة على كثرة الجنان ، فلا تعارض الحصر في أربع ؛ إذ يمكن الجمع بما قال مقاتل : في الجنات الأربع جنان كثيرة[٩٠٤]، وكذلك النصوص الدالة على أن أبواب الجنة ثمانية لا تعارض القول بأنها أربع جنان ؛ لجواز أن لكل جنة من الجنان الأربع بابين[٩٠٥].

---

(٩٠٠) التذكرة ، للقرطبي ، ص ٥٠٠ ، ٥٠١ ، معترك الأقران للسيوطي ٣٥١/٣ .

(٩٠١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (٢٨).

(٩٠٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٥٠).

(٩٠٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٦٧).

(٩٠٤) النكت والعيون ، للماوردي ، ٤٤١/٥.

(٩٠٥) انظر : التذكرة ، للقرطبي ، ص ٥٠٠ ، ٥٠١ ، حادي الأرواح ، لابن القيم ١٩١/١-٢٢١ ، شرح الجوهرة ، للبيجوري ، ص ١٨٣.

السابع : في درجات الجنة ؛ درجات الجنة كثيرة جدا ، أعلاها الفردوس ؛ لقول النبي ﷺ : (الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين منهما كما بين السماء والأرض ، الفردوس أعلاها درجة ، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ، ومن فوقها يكون العرش)[٩٠٦]، وذكر المائة للتكثير لا للتحديد ؛ لقول النبي ﷺ : (يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة : اقرأ واصعد ؛ فيقرأ ويصعد بكل آية درجة ، حتى يقرأ آخر شيء معه)[٩٠٧]؛ قال ابن القيم : هذا صريح في أن درج الجنة تزيد على مائة درجة[٩٠٨]، وأعلى منازل الفردوس ، وأقربها إلى الله تعالى منزلة الوسيلة ؛ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعا : (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي ؛ فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لي الله الوسيلة ؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)[٩٠٩]، وفي رواية : (قالوا : يا رسول الله ، وما الوسيلة ؟ قال : أعلى درجة في الجنة ، لا ينالها إلا رجل واحد ، أرجو أن أكون أنا هو)[٩١٠]؛ قال ابن القيم : أصل اشتقاق لفظ الوسيلة من القرب ؛ ولهذا سميت درجة النبي ﷺ الوسيلة ؛ لأنها أقرب الدرجات إلى عرش الرب تبارك وتعالى ، وهي أقرب الدرجات إلى الله ، ولما كان رسول الله أعظم الخلق عبودية كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله تعالى ، وهي أعلى درجة في الجنة[٩١١]. ومن أعلا الناس درجة في الجنة أهل الغرف ؛ أي القصور

---

(٩٠٦) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٢٧٣٨). وهو حديث صحيح . انظر : تخريج أحاديث المسند ، ج ٣٧ ، ص ٤٠٥.

(٩٠٧) سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، ح (٣٧٨٠) . وهو حديث صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح (٨١٢١).

(٩٠٨) حادي الأرواح ١٥٧/١ .

(٩٠٩) صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، ح (٣٨٤).

(٩١٠) جامع الترمذي ، أبواب المناقب ، ح (٣٦١٢). قال الألباني : صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٣٦٣٦).

(٩١١) حادي الأرواح ١٦٤/١ ، ١٦٦ (بتصرف).

العالية في الجنة[٩١٢]؛ عن أبي سعيد الخدري ﷺ : (إن أهل الجنة ليتراءون[٩١٣]أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب ؛ لتفاضل ما بينهم . قالوا :يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم .قال :بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين)[٩١٤]؛ قال ابن حجر : أي صدقوا المرسلين حق تصديقهم ، وإلا لكان كل من آمن بالله وصدق رسله وصل إلى تلك الدرجة ، وليس كذلك[٩١٥]. وأما أدنى أهل الجنة منزلة فرجل : (يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى له : اذهب فادخل الجنة ؛ فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها)[٩١٦]، وفي رواية : (فيقول : ما أعطي أحد مثل ما أعطيت)[٩١٧]. ولا يشكل على دلالة هذا الحديث المخرج في الصحيح ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا : (إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية)[٩١٨]؛ لأن هذه الرواية لا تثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعة ولا موقوفة[٩١٩].

الثامن : أول أهل الجنة دخولا على الإطلاق سيد المرسلين ﷺ ؛ عن أنس رضي الله عنه مرفوعا : (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ،

---

(٩١٢) انظر : تحفة الأحوذي ، للمباركفوري ، ٢٣٠/٧ .

(٩١٣) في رواية مسلم يرون ، والمعنى أن أهل الجنة تتفاوت منازلهم بحسب درجاتهم في الفضل ، حتى إن أهل الدرجات العلا ليراهم من هو أسفل منهم كالكوكب الدري ؛ أي النجم الشديد الإضاءة . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٣٢٧/٦.

(٩١٤) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٣١).

(٩١٥) فتح الباري ٣٢٨/٦ (بتصرف يسير).

(٩١٦) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٨٦).

(٩١٧) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٨٨).

(٩١٨) جامع الترمذي ، أبواب تفسير القرآن ، ح (٣٣٣٠).

(٩١٩) انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ح (١٩٨٥).

فيقول : بك أمرت ، لا أفتح لأحد قبلك)[٩٢٠]، وأول الأمم دخولا في الجنة أمة محمد ﷺ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة)[٩٢١]؛ قال ابن القيم : الجنة محرمة على الأنبياء حتى يدخلها محمد ﷺ ، ومحرمة على الأمم حتى تدخلها أمته[٩٢٢]، وأول من يدخل الجنة من أمة محمد ﷺ سبعون ألفا منهم ، لا حساب عليهم ولا عذاب ؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا : (عرضت علي الأمم ... فنظرت فإذا سواد كثير ، قلت : يا جبريل هؤلاء أمتي ؟ قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قال : هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم ، لا حساب عليهم ولا عذاب ، قلت : ولم ؟ قال : كانوا لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون)[٩٢٣]؛ قال ابن حجر : عرف من مجموع طرق الحديث أن أول من يدخل الجنة من هذه الأمة هؤلاء السبعون الذين بالصفة المذكورة ، وأما ما ورد أن مع كل ألف منهم سبعون ألفا[٩٢٤]، فيحتمل أن يراد بالمعية مجرد دخولهم الجنة بغير حساب وإن دخلوها في الزمرة الثانية أو ما بعدها[٩٢٥]. وممن يسبق إلى دخول الجنة الفقراء ؛ فيسبقون الأغنياء بأربعين خريفا أو أكثر من ذلك ؛ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعا : (إن فقراء المهاجرين[٩٢٦]

---

(٩٢٠) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٧).

(٩٢١) صحيح مسلم ، كتاب الجمعة ، ح (٨٥٥).

(٩٢٢) حادي الأرواح ٢٢٨/١.

(٩٢٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٤١).

(٩٢٤) كما وقع في المسند بسند جيد ، وفي جامع الترمذي بسند صحيح . انظر : مسند الإمام أحمد ، ح (٨٧٠٧) ، جامع الترمذي ، أبواب صفة الجنة ، ح (٢٤٣٧) . وانظر في الحكم على أسانيدها . فتح الباري ، لابن حجر ٤١٠/١١ ، صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، ح (٧١١١).

(٩٢٥) فتح الباري ، ٤١٣/١١ (بتصرف).

(٩٢٦) الظاهر أن ذكر المهاجرين من قبيل التنصيص على بعض أفراد العام ، وقيل إنه من قبيل التخصيص ، والأول أظهر ، وأنها محمولة على الفقراء بعامة . انظر : الوعد الأخروي ، للمؤلف ١٥٦/١ .

يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفا)[٩٢٧]، وعن أبي هريرة ﷺ : (يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، وهو خمسمائة عام)[٩٢٨]؛ قال ابن القيم : الذي في الصحيح أن سبقهم لهم بأربعين خريفا ؛ فإما أن يكون هو المحفوظ، وإما أن يكون كلاهما محفوظان، وتختلف مدة السبق بحسب أحوال الفقراء والأغنياء، فمنهم من يسبق بأربعين، ومنهم من يسبق بخمس مئة ، كما يتأخر مكث العصاة من الموحدين في النار بحسب جرائمهم والله أعلم ، ولكن ها هنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أنه لا يلزم من سبقهم لهم في الدخول ارتفاع منازلهم عليهم، بل قد يكون المتأخر أعلى منزلة وإن سبقه غيره في الدخول، والدليل على هذا أن من الأمة من يدخل الجنة بغير حساب، وهم السبعون ألفا ، وقد يكون بعض من يحاسب أفضل من أكثرهم، والغني إذا حوسب على غناه، فوجد قد شكر الله تعالى فيه، وتقرب إليه بأنواع البر والخير والصدقة والمعروف، كان أعلى درجة من الفقير الذي سبقه في الدخول، ولم تكن له تلك الأعمال، ولا سيما إذا شاركه الغني في أعماله وزاد عليه فيها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ؛ فالمزية مزيتان؛ مزية سبق، ومزية رفعة، وقد يجتمعان وينفردان، فيحصل لواحد السبق والرفعة، ويعدمهما آخر، ويحصل لآخر السبق دون الرفعة، ولآخر الرفعة دون السبق، وهذا بحسب المتقضي للأمرين، أو لأحدهما وعدمه، وبالله التوفيق[٩٢٩].

التاسع : في أنواع النعيم في الجنة ؛ يقول الله تعالى : (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذخرا ، بله ما أطلعكم الله عليه)[٩٣٠]؛ قال النووي : بله بفتح الباء وإسكان اللام ؛ ومعناها : دع عنك ما

---

(٩٢٧) صحيح مسلم ، كتاب الزهد ، ح (٢٩٧٩) .

(٩٢٨) مسند الإمام أحمد ، ح (١٠٦٥٤). قال محققوا المسند : إسناده صحيح على شرط البخاري . انظر : تخريج أحاديث المسند ، ٣٨٣/١٦ .

(٩٢٩) حادي الأرواح ٢٤٠/١ ، ٢٤١.

(٩٣٠) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٢٤).

أطلعكم عليه ، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم[٩٣١]. والذي أطلع الله عليه عباده أنواع عظيمة جدا من نعيم الجنة ؛ منها :-

١- عظمة أبواب الجنة ؛ قال تعالى : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) الزمر : ٧٣ ، وقال : (جنات عدن مفتحة لهم الأبواب[٩٣٢]) ص : ٥٠ ، ودلت السنة على أنها ثمانية أبواب عظيمة جدا[٩٣٣]، عن سهل بن سعد ﷺ مرفوعا : (في الجنة ثمانية أبواب ، فيها باب يسمى الريان ، لا يدخله إلا الصائمون)[٩٣٤]، وعن عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعا : (ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء)[٩٣٥]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى)[٩٣٦]، وعن معاوية بن حيدة ﷺ مرفوعا : (ما بين مصراعين من مصاريع

---

(٩٣١) شرح صحيح مسلم ، ١٦٦/١٧ .

(٩٣٢) أي إذا دخلوها لم تغلق أبوابها عليهم ، ليذهبوا في الجنة حيث شاؤوا ، وتدخل عليهم الملائكة كل وقت ، بخلاف النار ، فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم ، كما قال تعالى : (إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة) ، أي مطبقة مغلقة ، قد جعلت العمد ممسكة لها من خلفها ، فلا يفتح لها باب ، ولا يخرج منها غم ، ولا يدخل فيها روح . انظر : حادي الأرواح ١٠٦/١.

(٩٣٣) رأى بعض أهل العلم أن في بعض آيات القرآن دلالة على عدد أبواب الجنة ؛ كما في قوله تعالى : (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ... الآيات إلى قوله : أولئك لهم عقبى الدار) الرعد : ٢٠-٢٢ ؛ قال ابن المبارك : هذه ثمان خلال مشيرة إلى ثمانية أبواب للجنة . انظر : تفسير البغوي ١٦/٣ . واستنبط آخرون العدد من قوله تعالى : (وفتحت أبوابها) ، وقالوا : إن الواو تدل على ذلك ؛ لأنها واو الثمانية . انظر : حادي الأرواح ١٠١/١ . وفي دلالة هذه الآيات كلها على عدد أبواب الجنة إما خفاء أو نزاع ، والمعول على ما ورد صريحا في السنة.

(٩٣٤) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، ح (٣٢٥٧).

(٩٣٥) صحيح مسلم ، كتاب الطهارة ، ح (٢٣٤).

(٩٣٦) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٩٤).

الجنة مسيرة أربعين عاما ، وليأتين عليه يوم وإنه لكظيظ)[٩٣٧]، وعن عتبة بن غزوان ﷺ نحوه موقوفا[٩٣٨]؛ وكأن المراد في حديث معاوية وعتبة أوسع الأبواب ؛ وهو الباب الأعظم ؛ لأن الجنة درجات ، وكلما علت الجنة اتسعت ، وعظمت أبوابها ؛ قال ابن القيم : لما كانت الجنان درجات بعضها فوق بعض، كانت أبوابها كذلك، وباب الجنة العالية فوق باب الجنة التي تحتها، وكلما علت الجنة اتسعت، فعاليها أوسع مما دونه، وسعة الباب بحسب وسع الجنة، ولعل هذا وجه الاختلاف الذي جاء في مسافة ما بين مصراعي الباب، فإن أبوابها بعضها أعلى من بعض[٩٣٩]. ويمكن أن يقال : إن المعول على حديث أبي هريرة ﷺ في تقدير سعة أبواب الجنة دون غيره من الأحاديث ؛ لأنه الحديث الصحيح المرفوع السالم عن الاضطراب ، وما يعارضه من الأحاديث إما موقوف ، أو مضطرب ، أو في ذكر مسافة ما بين الباب والباب[٩٤٠]. ومفتاح هذه الأبواب العظيمة شهادة أن لا إله إلا الله ؛ فمن كان من أهل التوحيد علما وعملا دخل من باب العمل الغالب عليه ، وقد يدعى من جميع الأبواب على سبيل التكريم ؛ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله، دعي من أبواب الجنة : يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام، وباب الريان. فقال أبو بكر :ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال :هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال :نعم، وأرجو أن تكون

(٩٣٧) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٠٠٢٥) ، قال الألباني : صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٥٥٩٠).

(٩٣٨) صحيح مسلم ، كتاب الزهد ، ح (٢٩٦٧).

(٩٣٩) حادي الأرواح ١/١٢٣.

(٩٤٠) انظر : حادي الأرواح ١/١١٥-١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، فيض القدير ، للمناوي ٥/٤٣٤ .

منهم يا أبا بكر)[٩٤١]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (لكل أهل عمل باب من أبواب الجنة يدعون منه بذلك العمل)[٩٤٢]؛ فالتوحيد وإن كان مفتاح الجنة إلا انه لا بد أن يقارنه عمل صالح ليفتح لصاحبه باب أو أكثر من أبواب الجنة ؛ قيل لوهب بن منبه : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان ؛ فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك ، وإلا لم يفتح لك[٩٤٣].

٢- قباب اللؤلؤ ؛ عن أبي موسى الأشعري ﷺ مرفوعا : (إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا ، في كل زاوية منها أهل ، ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون)[٩٤٤]، وعن أبي ذر الغفاري ﷺ مرفوعا : (ثم أدخلت الجنة فإذا

---

(٩٤١) صحيح البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ح (٣٦٦٦). ومعنى قوله : من أنفق زوجين ؛ أي أنفق شيئين من أصناف المال في طلب ثواب الله ، والإنفاق في الصلاة والجهاد والعلم والحج ظاهر، وأما الإنفاق في غيرها فمشكل . وقيل :المراد بالإنفاق في الصلاة والصيام بذل النفس فيهما، فإن العرب تسمي ما يبذله المرء من نفسه نفقة كما يقال :أنفقت في طلب العلم عمري وبذلت فيه نفسي . وأما قوله : هذا خير فلفظ خير بمعنى فاضل لا بمعنى أفضل وإن كان اللفظ قد يوهم ذلك، ففائدته زيادة ترغيب السامع في طلب الدخول من ذلك الباب، ومن وجه آخر عن أبي هريرة : دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب ؛ أي خزنة كل باب : أي فل هلم، ولفظة فل لغة في فلان . وقد وقع في الحديث ذكر أربعة أبواب من أبواب الجنة، وأبواب الجنة ثمانية ، وبقي من الأركان الحج فله باب بلا شك، وأما الثلاثة الأخرى فمنها باب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس رواه أحمد بن حنبل، عن روح بن عبادة، عن أشعث، عن الحسن مرسلا :إن لله بابا في الجنة لا يدخله إلا من عفا عن مظلمة، ومنها الباب الأيمن وهو باب المتوكلين الذي يدخل منه من لا حساب عليه ولا عذاب، وأما الثالث فلعله باب الذكر فإن عند الترمذي ما يومئ إليه، ويحتمل أن يكون باب العلم . والله أعلم . وإنما يدعى بعض المؤمنين من جميع الأبواب على سبيل التكريم له، وإلا فدخوله إنما يكون من باب واحد، ولعله باب العمل الذي يكون أغلب عليه . وأما ما أخرجه مسلم، عن عمر :من توضأ ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله الحديث، وفيه :فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء، فلا ينافي ما تقدم وإن كان ظاهره أنه يعارضه، لأنه يحمل على أنها تفتح له على سبيل التكريم، ثم عند دخوله لا يدخل إلا من باب العمل الذي يكون أغلب عليه. انظر : فتح الباري ٢٨/٧ ، ٢٩ .

(٩٤٢) صحيح البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ح (٣٦٦٦).

(٩٤٣) مسند الإمام أحمد ، ح (٩٨٠٠) . قال ابن حجر : أخرجه أحمد وابن أبي شيبة بإسناد صحيح . فتح الباري ، ٢٨/٧.

(٩٤٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، ح (٤٨٨٠).

فيها جنابذ اللؤلوء ، وإذا ترابها المسك)[٩٤٥]؛ وجنابذ اللؤلؤ هي قباب اللؤلؤ ، التي يزيدها بهاءً بناءُ حوائط الجنة المرصع من الذهب والفضة ، ورائحة المسك التي تفوح من ملاطها[٩٤٦]، ومن ترابها الذي إشراقة لونه كالزعفران ، ونعومتة وطعمه كالدرمك ؛ عن أبي هريرة ﷺ قال : (قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : لبنة ذهب ولبنة فضة[٩٤٧]، وملاطها المسك الأذفر[٩٤٨]، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وتربتها الزعفران)[٩٤٩]، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ لابن صائد : (ما تربة الجنة ؟ قال : درمكة بيضاء ، مسك يا أبا القاسم ، قال : صدقت)[٩٥٠]؛ والدرمك هو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه[٩٥١].

٣- أنهار الجنة وأشجارها ؛ قال تعالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى) محمد : ١٥ ، وعن عبادة بن الصامت ﷺ مرفوعا : (في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ، ومنها

---

(٩٤٥) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٦٣).

(٩٤٦) الملاط الطين الذي يجعل بين كل لبنتين في البناء . انظر : تحفة الأحوذي ، للمباركفوري ١٩٣/٧ ، المعجم الوسيط ، إصدار مجمع اللغة العربية ، ص ٨٤٥ .

(٩٤٧) لا يشكل على هذا حديث أبي موسى الأشعري ﷺ مرفوعا : (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما) . صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، ح (٧٤٤٤) ؛ إذ يمكن الجمع بينهما بأنه هذا في صفة ما في كل جنة من آنية وغيرها، وحديث أبي هريرة ﷺ في صفة حوائط الجنان كلها، ويؤيده أنه وقع عند البيهقي في البعث في حديث أبي سعيد :أن الله أحاط حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤٣٢/١٣ .

(٩٤٨) الأذفر أي شديد الرائحة . انظر : تحفة الأحوذي ١٩٣/٧ .

(٩٤٩) مسند الإمام أحمد ، ح (٨٠٤٤). صححه الألباني . انظر : صحيح الجامع الصغير ، (٣١١٦).

(٩٥٠) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، ح (٢٩٢٨).

(٩٥١) انظر : فتح الباري ، لابن رجب ١٢٠/٢ ، ١٢١ ، النهاية ، لابن الأثير ١١٤/٢ ، لسان العرب ، لابن منظور ٢٢٠/٤ ، تحفة الأحوذي ١٩٣/٧ ، ١٩٤ .

تفجر أنهار الجنة الأربعة)[٩٥٢]، وعن معاوية بن حيدة ﷺ مرفوعا : (إن في الجنة بحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر اللبن ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار بعد)[٩٥٣]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (إن في الجنة لشجرة[٩٥٤]يسير الراكب في ظلها[٩٥٥]مائة سنة ، واقرؤوا إن شئتم : وظل ممدود)[٩٥٦]، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعا : (إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها)[٩٥٧]. وأشجار الجنة على عظمتها دانية الظلال ، مذللة القطوف ؛ ثمارها قريبة المأخذ ، سهلة التناول ؛ قال تعالى : (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) الإنسان : ١٤ ؛ قال مجاهد : إن قام ارتفع ، وإن قعد تدلى إليه القطف ، وقال تعالى : (قطوفها دانية) الحاقة : ٢٣ ؛ أي عناقيدها ، كلما أرادوا أن يقطفوا منها شيئا دنا منهم ؛ قعودا كانوا أو مضطجعين[٩٥٨].

---

(٩٥٢) جامع الترمذي ، أبواب صفة الجنة ، ح (٢٥٣١) . وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، ح (٤٢٤٤).

(٩٥٣) جامع الترمذي ، أبواب صفة الجنة ، ح (٢٥٧١) . وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، ح (٢١٢٢).

(٩٥٤) وقع في بعض الروايات تعيين هذه الشجرة ؛ ففي رواية أنها سدرة المنتهى ، وفي أخرى أنها شجرة طوبى . وفي أسانيدها مقال ، ومن أهل العلم من يحسنها . انظر : مسند الإمام أحمد ، ٢١١/١٨ ، ح (١١٦٧٣) ، جامع الترمذي ، أبواب صفة الجنة ، ح (٢٥٤١) ، فتح الباري ، لابن حجر ٤٢٤/١١ ، صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، ح (٣٩١٨).

(٩٥٥) قال ابن حجر : قوله : في ظلها أي في نعيمها وراحتها ، ومنه قولهم عيش ظليل، وقيل معنى ظلها ناحيتها، وأشار بذلك إلى امتدادها ،ومنه قولهم :أنا في ظلك أي ناحيتك، قال القرطبي :والمحوج إلى هذا التأويل أن الظل في عرف أهل الدنيا ما يقي من حر الشمس وأذاها ، وليس في الجنة شمس ولا أذى. وفي هذا نظر ؛ لأن الجنة وإن لم يكن فيها شمس ولا قمر ففيها أنوار أخرى تظهر من قبل العرش وتعرف بها الأوقات . انظر : فتح الباري ٣٢٦/٦ ، ٣٢٧ ، ٤٢٤/١١ ، مجموع الفتاوى ، لابن تيمية ٣١٢/٤.

(٩٥٦) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، ح (٣٢٥٢).

(٩٥٧) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٢٨).

(٩٥٨) انظر : شرح السنة ، للبغوي ٢٠٢/١٥ ، ٢٠٣.

٤- طعام أهل الجنة وشرابهم ؛ قال تعالى : (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) الطور : ٢٢ ، وقال : (فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات) محمد : ١٥ ، وقال : (يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) الزخرف : ٧١ ، وقال : (ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا قواريرا من فضة قدروها تقديرا) الإنسان : ١٥ ، ١٦ . وأول طعام أهل الجنة إذا دخلوها زيادة كبد النون ؛ وهي القطعة المنفردة المعلقة في الكبد ، وهي في المطعم في غاية اللذة، ويقال : إنها أهنأ طعام وأمرؤه[٩٥٩]، ثم ينحر لهم على إثرها ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها ؛ عن أنس ﷺ مرفوعا : (وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد النون)[٩٦٠]، وعن ثوبان ﷺ قال : (جاء حبر من أحبار اليهود فقال للنبي ﷺ : ... فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال : زيادة كبد النون ، قال: فما غذاؤهم على إثرها ؟ قال : ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها ، قال: فما شرابهم عليه؟ قال : من عين فيها تسمى سلسبيلا)[٩٦١]. وطعام أهل الجنة وشرابهم منزه عن الأذى ، ومصرفه جشاء ورشح كرشح المسك ؛ عن جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعا : (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ولا يتفلون ولا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ، قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك)[٩٦٢].

٥- اللباس والزينة ؛ فاللباس في الجنة من الحرير بنوعيه ؛ السندس والإستبرق ، والحلية من الذهب المرصع باللؤلؤ ، والأمشاط من الذهب والفضة ، والمباخر تفوح برائحة أطيب العود ؛ قال تعالى : (يلبسون من سندس واستبرق) الدخان : ٥٣ ، وقال :

---

(٩٥٩) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٢٧٣/٧.

(٩٦٠) صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، ح (٣٩٣٨).

(٩٦١) صحيح مسلم ، كتاب الحيض ، ح (٣١٥).

(٩٦٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٣٥).

(يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) الحج : ٢٣ ، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (أمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة)[٩٦٣]؛ وهو العود الذي يتبخر به[٩٦٤].

٦- الفرش والخدم ؛ فالفرش في الجنة منها المبطن بالديباج ، ومنها الزرابي ، وهي البسط الجيدة ، ومنها النمارق ، وهي المساند والوسائد ، ومنها الأرائك ، والسرر الموضونة ؛ وهي المنسوجة بقضبان الذهب ، وهي أعم من الأرائك ؛ لأن السرير لايكون أريكة إلا إذا كان فوقه فراش وعليه حجلة ؛ وهي القبة التي تعلق فوقه ؛ قال تعالى : (متكئين على فرش بطائنها من استبرق) الرحمن : ٥٤ ، وقال : (فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة) الغاشية : ١٣-١٦ ، وقال : (إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون) المطففين : ٢٢ ، ٢٣ ، وقال : (على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين) الواقعة : ١٥ ، ١٦ . وأما خدم أهل الجنة فولدان مخلدون ، لا يتغيرون ، كأنهم اللؤلؤ المصون في الصدف ، أو المنثور على بساط من حرير[٩٦٥]؛ قال تعالى : (ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) الطور : ٢٤ ، وقال : (ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) الإنسان : ١٩ ، وقال : (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين) الواقعة : ١٧ ، ١٨ .

٧- الأزواج ؛ قال تعالى : (كذلك وزوجناهم بحور عين) الدخان : ٥٤ ، وقال : (وكواعب أترابا) النبأ : ٣٣ ، وقال : (كأنهن الياقوت والمرجان) الرحمن : ٥٨ ، وقال : (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) الرحمن : ٥٦ ، وقال : (ولهم فيها أزواج مطهرة) البقرة : ٢٥ ، وقال : (عربا أترابا) الواقعة : ٣٧ ، وقال : (وعندهم قاصرات الطرف عين) الصافات

---

(٩٦٣) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، ح (٣٢٤٥).

(٩٦٤) انظر : النهاية ، لابن الأثير ٦٣/١ ، حادي الأرواح ، لابن القيم ٤١٩/١ ، ٤٢٤ .

(٩٦٥) انظر : حادي الأرواح ، لابن القيم ٤١٩/١-٤٥٣ ، ٤٥٨-٤٧٠ ، الوعد الأخروي ، للمؤلف ، ١٦٥/١-١٦٨ .

: ٤٨ ، وعن أنس ﷺ مرفوعا : (لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأته ريحا[٩٦٦]، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها)[٩٦٧]؛ فهذه النصوص الشريفة فيها دلالة بينة على عظم جمال نساء أهل الجنة ؛ فهن بينات الحور ، واسعات الأعين ، ناهدات الأثداء ، كأنهن الياقوت والمرجان في البياض والصفاء ، وهن مع هذا الجمال الباهر أبكار لم يطمثن ، طاهرات الأبدان والأنفس ، طيبات الرائحة ، متحببات إلى أزواجهن ، قد قصرن طرفهن على أزواجهن ، لا ينظرن إلى غيرهم . وكل واحد من أهل الجنة له زوجتان منهن إلا الشهداء فإن للواحد منهم اثنتان وسبعون زوجة ؛ قال النبي ﷺ : (لكل امرئ منهم زوجتان)[٩٦٨]، وقال : (للشهيد عند الله ست خصال ... الحديث ، وفيه : ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين)[٩٦٩]. وذهب كثير من أهل العلم إلى أن المراد بالحديث زوجتاه من نساء الدنيا ، وأن له مع ذلك كثير من الحور العين ؛ لأحاديث وردت في ذلك ؛ كحديث : (وإن له من الحور العين لاثنتين وسبعين زوجة ، سوى أزواجه من الدنيا)[٩٧٠]، وحديث : (إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء يعني في الجنة)[٩٧١]. وفيما قالوه نظر ؛ لأنه لا يبقي للشهيد ميزة على غيره من المؤمنين ، ولأن استقراء الأحاديث يدل على أن الزوجتين من الحور العين ؛ كقول النبي ﷺ : (لكل امرئ

---

(٩٦٦) أي ريحا طيبة ، كما وقع في بعض الروايات . والنصيف هو الخمار . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤٤٢/١١.

(٩٦٧) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٦٨).

(٩٦٨) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، ح (٣٢٤٦).

(٩٦٩) جامع الترمذي ، أبواب فضائل الجهاد ، ح (١٦٦٣). وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، ح (٥١٨٢).

(٩٧٠) مسند الإمام أحمد ، ح (١٠٩٣٢) . قال ابن حجر : في سنده شهر بن حوشب ، وفيه مقال . انظر : فتح الباري ٣٢٥/٦ .

(٩٧١) رواه أبو نعيم ، والضياء في صفة الجنة . قال الألباني : سنده صحيح ، ولا نعلم له عله . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٣٦٧).

منهم زوجتان من الحور العين ، يرى مخ سوقهن من وراء العظم واللحم)[٩٧٢]، وقوله : (فتدخل عليه زوجتاه من الحور العين ؛ فتقولان : الحمد لله الذي أحياك لنا ، وأحيانا لك)[٩٧٣]، وأما الأحاديث التي استدلوا بها ففيها مقال ، وإن ثبتت فيمكن أن تحمل على أن الواحد من أهل الجنة يعطى قوة الوصول إلى هذا العدد ، كما ورد عن زيد بن أرقم ﷺ مرفوعا : (إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة)[٩٧٤]، أو تحمل على السراري لا الزوجات ، ولعل هذا هو المراد بحديث أبي موسى الأشعري ﷺ مرفوعا : (في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة ، عرضها ستون ميلا ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن)[٩٧٥]؛ قال ابن القيم : الأحاديث الصحيحة إنما فيها إن لكل منهم زوجتين ، وليس في الصحيح زيادة على ذلك ، فإن كانت هذه الأحاديث محفوظة فإما أن يراد بها ما لكل واحد من السراري زيادة على الزوجتين ، ويكونون في ذلك على حسب منازلهم في القلة والكثرة ؛ كالخدم والولدان ، وإما أن يراد أنه يعطي قوة من يجامع هذا العدد ، ويكون هذا هو المحفوظ ، فرواه بعض هؤلاء بالمعنى ؛ فقال له كذا وكذا زوجة[٩٧٦]. وأما المرأة من أهل الجنة فإن كانت ذات زوج واحد فلا إشكال أنها مع زوجها إن كان من أهل الجنة ، وإن كانت ذات أزواج فقيل إنها تكون لأحسنهم خلقا ، وقيل إنها تخير ، وقيل إنها تكون لآخرهم[٩٧٧]؛ وهو الأصح ؛ لما رواه الطبراني

---

(٩٧٢) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، ح (٣٢٥٤) .

(٩٧٣) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٨٨).

(٩٧٤) مسند الدارمي ، ح (٢٨٦٧) . وإسناده صحيح . انظر : تخريج أحاديث جامع الأصول ، ٥٣٠/١٠ .

(٩٧٥) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٣٨).

(٩٧٦) حادي الأرواح ٥٠٤/١ ، ٥٠٥ . وانظر : شرح السنة ، للبغوي ، ٢٠٥/١٠ ، جامع الأصول ، لابن الأثير ، ٥٣٢/١٠ ، مجموع الفتاوى ، لابن تيمية ٤٣٢/٦ ، حادي الأرواح ، لابن القيم ٤٩٦/١-٥٠٧ ، فتح الباري ، لابن حجر ٣٢٥/٦ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني ، ح (٦٤١) ، الوعد الأخروي ، للمؤلف ١٦٧/١-١٧١ .

(٩٧٧) انظر : التذكرة ، للقرطبي ص ٤٨٢ ، الإصابة ، لابن حجر ١٢/٨ ، ١٢٣ ، ١٣١ .

عن أبي الدرداء ﷺ مرفوعا : (أيما امرأة توفي عنها زوجها فتزوجت بعده فهي لآخر أزواجها)[٩٧٨]؛ ولهذا أبت أم الدرداء أن تنكح بعد أبي الدرداء ؛ عن جبير بن نفير، عن أم الدرداء أنها قالت لأبي الدرداء ﷺ :إنك خطبتني إلى أبوي في الدنيا فأنكحوني، وإني أخطبك إلى نفسك في الآخرة، قال :فلا تنكحي بعدي، فخطبها معاوية فأخبرته بالذي كان، فقال لها :عليك بالصيام[٩٧٩]. ومن الشواهد لحديث أبي الدرداء ﷺ أن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا كانت تحت الزبير بن العوام وكان شديدا عليها، فأتت أباها، فشكت ذلك إليه، فقال :يا بنية اصبري فإن المرأة إذا كان لها زوج صالح، ثم مات عنها فلم تزوج بعده جمع بينهما في الجنة ، وعن حذيفة ﷺ أنه قال لامرأته : إن شئت أن تكوني زوجتي في الجنة، فلا تزوجي بعدي، فإن المرأة في الجنة لآخر أزواجها في الدنيا ؛ فلذلك حرم الله على أزواج النبي ﷺ أن ينكحن بعده لأنهن أزواجه في الجنة[٩٨٠].

٨- جمال الخَلْق والخُلُق ؛ قال تعالى : (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) الحجر : ٤٧ ، وقال : (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) الواقعة : ٢٥ ، ٢٦ ، وقال : (وهدوا إلى الطيب من القول) الحج : ٢٤ ، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة، ثم هم بعد ذلك منازل، لا يتغوطون، ولا يبولون، ولا يمتخطون، ولا يبزقون، أمشاطهم الذهب ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على طول أبيهم آدم، ستون ذراعا) [٩٨١]، وفي رواية : (لا تباغض بينهم ولا

---

(٩٧٨) المعجم الأوسط ، للطبراني ، ح (٣١٣٠) ، صححه الألباني . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٢٧٠٤).

(٩٧٩) الإصابة ، لابن حجر ١٢٣/٨ .

(٩٨٠) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٧٦/٣ .

(٩٨١) صحيح مسلم ،كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٣٤). وفي الحديث دلالة على أن أهل الجنة يزول عنهم النقص الذي طرأ على خلقتهم ، ويعودون لأكمل أحوالهم ، ويكون خلقهم على طول أبيهم آدم ؛ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (كل من يدخل الجنة على صورة آدم ، وطوله ستون ذراعا ، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن). صحيح مسلم ،كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٤١).

تحاسد)[٩٨٢]، وفي رواية ثانية : (لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا) [٩٨٣] ، وفي رواية ثالثة : (يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس) [٩٨٤]، وعن معاذ بن جبل ﷺ مرفوعا : (يدخل أهل الجنة الجنة جردا مردا مكحلين، أبناء ثلاثين ، أو ثلاث وثلاثين سنة)[٩٨٥] . وجمال أهل الجنة لا يبليه مرور الأيام كما هو الشأن في جمال أهل الدنيا ، وإنما يزيده حسنا وجمالا ؛ عن أنس بن مالك ﷺ مرفوعا : (إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنا وجمالا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا، فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا)[٩٨٦]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (من يدخل الجنة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه)[٩٨٧].

٩- رضوان الله تعالى وكلامه ورؤيته ؛ وهو أعظم نعيم أهل الجنة ؛ عن صهيب بن سنان ﷺ مرفوعا : (إذا دخل أهل الجنة الجنةَ يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؛ فيكشف الحجاب. فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)[٩٨٨]، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعا : (إن الله يقول: لأهل الجنة: يا أهل الجنة، يقولون :لبيك ربنا وسعديك، فيقول :هل رضيتم؟ فيقولون :وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول :أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا :يا رب، وأي شيء

---

(٩٨٢) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، ح (٣٢٥٤).

(٩٨٣) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٣٤).

(٩٨٤) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٣٥).

(٩٨٥) جامع الترمذي ، أبواب صفة الجنة ، ح (٢٥٤٥) . صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير ، ح (٨٠٧٢).

(٩٨٦) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٣٣).

(٩٨٧) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٣٦).

(٩٨٨) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٨١).

أفضل من ذلك؟ فيقول :أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا)[٩٨٩]، وفي رواية : (يقول: رضواني أكبر)[٩٩٠]؛ قال ابن حجر : فيه تلميح بقوله تعالى : (ورضوان من الله أكبر) التوبة : ٧٢ ؛ لأن رضاه سبب كل فوز وسعادة، وكل من علم أن سيده راض عنه كان أقر لعينه، وأطيب لقلبه، من كل نعيم ؛ لما في ذلك من التعظيم والتكريم . وفي هذا الحديث أن النعيم الذي حصل لأهل الجنة لا مزيد عليه[٩٩١].

العاشر : في شدة عذاب النار وأنواعه ؛ والدلائل على ذلك كثيرة جدا ؛ منها :-

١- عظمة خلق النار ، وشدة حرها ، وغلظة زبانيتها ؛ قال تعالى : (إنها لإحدى الكبر) المدثر : ٣٥ ، أي لإحدى الدواهي ، والأمور العظام ؛ قال الحسن البصري : والله ما أنذر الله بشيء أدهى من جهنم[٩٩٢] ، وقال تعالى : (إنها ترمي بشرر كالقصر) المرسلات : ٣٢ ؛ أي ان شررها المتطاير من لهبها كالبناء العظيم ؛ لعظم النار نفسها[٩٩٣]، وقال تعالى : (كلما خبت زدناهم سعيرا) الإسراء : ٩٧ ، وقال : (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) التحريم : ٦ ، وقال : (سندع الزبانية) العلق : ١٨ ؛ أي الشداد الغلاظ من الملائكة[٩٩٤]، وعن ابن مسعود ﷺ مرفوعا : (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)[٩٩٥]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (ناركم هذه، التي يوقد ابن آدم، جزء من سبعين جزءا من حر جهنم ، قالوا : والله إن كانت لكافية ، يا رسول الله !

---

(٩٨٩) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٤٩).

(٩٩٠) المستدرك ، للحاكم ، ح (٢٧٦). وهو حديث صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٥٢٤).

(٩٩١) فتح الباري ، لابن حجر ٤٢٢/١١ .

(٩٩٢) انظر : شرح السنة ، للبغوي ٢٣٦/١٥ ، تفسير ابن الجوزي ٤١٠/٨ ، تفسير ابن كثير ٧/ ٤٢٨.

(٩٩٣) انظر : تفسير البغوي ، طبعة دار طيبة ، ٣٠٦/٨.

(٩٩٤) شرح السنة ، للبغوي ، ٢٣٧/١٥ .

(٩٩٥) صحيح مسلم ، كتاب القيامة والجنة والنار ، ح (٢٨٤٢).

قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا ، كلها مثل حرها)[٩٩٦]، قال أبو هريرة ﷺ : (أترونها حمراء كناركم هذه ، لهي أسود من القار)[٩٩٧]، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة ، فقال النبي ﷺ : تدرون ما هذا ؟ قلنا: الله ورسوله أعلم . قال : هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا ، فهو يهوي في النار الآن، حتى انتهى إلى قعرها)[٩٩٨]، وفي رواية : (هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفا ، فالآن انتهى إلى قعرها)[٩٩٩]، وعن مجاهد بن جبر قال : قال ابن عباس ﷺ : (أتدري ما سعة جهنم ؟ قلت : لا ، قال : أجل، والله ما تدري ، حدثتني عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله : " والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه " ؛ قالت : فأين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : على جسر جهنم)[١٠٠٠]، وعن أنس بن مالك ﷺ مرفوعا : (لا تزال جهنم يلقى فيها ، وتقول: هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه ؛ فينزوي بعضها إلى بعض ، وتقول : قط قط ، بعزتك وكرمك)[١٠٠١]. ونطق النار هذا نطق حقيقي ؛ ينطقها الله تعالى الذي ينطق الجلود ، وكل شيء ، خلافا لمن حمل نطقها على المجاز ، وزعم أنه كقول عنترة : وشكا إلي بعبرة وتحمحم ، وكقول ذي الرمة : فقالت لي العينان سمعا وطاعة ! ونصوص القرآن والسنة مطردة في الدلالة على نطق النار حقيقة ؛ كما في قوله تعالى : (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا)

---

(٩٩٦) صحيح مسلم ، كتاب القيامة والجنة والنار ، ح (٢٨٤٣).

(٩٩٧) موطأ الإمام مالك ، كتاب الجامع ، ح (٢٨٤٣) ، شرح السنة للبغوي ، باب صفة النار ، ح (٤٤٠٠) . وإسناده صحيح . انظر : تخريج أحاديث شرح السنة ، ٢٤٠/١٥ .

(٩٩٨) صحيح مسلم ، كتاب القيامة والجنة والنار ، ح (٢٨٤٤).

(٩٩٩) مسند الإمام أحمد ، ح (٨٨٣٩) . وإسناده صحيح على شرط مسلم . انظر : تخريج أحاديث المسند ، ٤٣٣/١٤.

(١٠٠٠) جامع الترمذي ، أبواب تفسير القرآن ، ح (٣٢٤١) . وإسناده صحيح . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٥٦١) ، تخريج أحاديث شرح السنة ، للبغوي ، ٢٥١/١٥ .

(١٠٠١) صحيح مسلم ، كتاب القيامة والجنة والنار ، ح (٢٨٤٨).

الفرقان : ١٢ ، وقوله : (تدعو من أدبر وتولى) المعارج : ١٧ ، وقول النبي ﷺ : (اشتكت النار إلى ربها، فقالت : يا رب أكل بعضي بعضا ؛ فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون في الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير)[١٠٠٢]، وقوله : (يخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان يبصر بهما ، وأذنان يسمع بهما ، ولسان ينطق به ؛ يقول : إني وكلت بثلاثة ؛ بكل جبار عنيد ، وبكل من ادعى مع الله إلها آخر ، والمصورين)[١٠٠٣]، أعاذنا الله منها[١٠٠٤].

٢- كثرة أسماء النار التي تدل على شدتها ، واضطرامها ، وتلهبها ؛ كجهنم ، والجحيم ، والحطمة ، ولظى ، وسقر ، والسعير ، والهاوية . وقد اختلف أهل العلم في هذه الأسماء ؛ فقيل إنها كلها أعلام للنار بجملتها ، وقيل إنها أسماء لدركات النار وطبقاتها السبع ؛ قال تعالى : (وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) الحجر : ٤٣ ، ٤٤ ؛ وأبواب النار هي أطباقها ودركاتها التي ينزلونها بحسب مراتبهم ؛ فأعلاها جهنم ، لعصاة الموحدين ، وهي التي تخلو من أهلها فتصفق الريح أبوابها ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، وهو الدرك الأسفل ؛ الذي يكون فيه المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة ، وقال الضحاك : في الدرك الأعلى المحمديون ، وفي الثاني النصارى ، وفي الثالث اليهود ، وفي الرابع الصابئون، وفي الخامس المجوس، وفي السادس مشركو العرب ، وفي السابع المنافقون[١٠٠٥]. والظاهر أن هذه الأسماء منها ما هو علم للنار بجملتها ، ومنها ما هو من أوصافها لا من أسمائها ؛ قال الآلوسي : ظاهر القرآن والحديث يدل على أن منها ما هو من أوصاف النار نحو السعير والجحيم والحطمة والهاوية ، ومنها ما هو

(١٠٠٢) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، ح (٦١٧).

(١٠٠٣) مسند الإمام أحمد ، ح (٨٤٣٠) ، وإسناده صحيح . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٥١٢).

(١٠٠٤) انظر : التمهيد ، لابن عبد البر ١١٦/١٩ ، ١١٧ ، تفسير البغوي ٤ / ٣٩٤ ، شرح السنة ، للبغوي ٢٣٦/١٥ .

(١٠٠٥) التذكرة ، للقرطبي ، ص ٣٨٢ .

علم للنار كلها نحو جهنم وسقر ولظى[١٠٠٦]، وتفسير الأبواب بالدركات والطبقات وإن كان قولا لكثير من المفسرين[١٠٠٧]إلا ان الأظهر أن أبواب النار على معناها المعروف ، كما يفهم من دلالة الاقتران في قوله تعالى : (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها ... الآيات إلى قوله : وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها) الزمر : ٧١-٧٣ ، وفي قول النبي ﷺ : (الجنة لها ثمانية أبواب ، والنار لها سبعة أبواب)[١٠٠٨]، ولا مانع أن يكون في ذلك دلالة على دركات النار ، وأنها سبعة أطباق ؛ لأن أبواب جهنم بعضها فوق بعض ، وفي كل طبق منها باب يخصه ؛ ليدخل كل واحد من أهل النار من الباب المناسب لعمله ، ويستقر في الدرك المعد لجرمه[١٠٠٩].

٣- تعظيم خلق الكفار في النار ؛ لتمتلئ منهم النار ، وليذوقوا العذاب ؛ قال أبو هريرة ﷺ : (يعظمون لتمتلئ منهم[١٠١٠]وليذوقوا العذاب)[١٠١١]؛ فـ(ما بين منكبي

(١٠٠٦) روح المعاني ، ١٤/٥٣.

(١٠٠٧) انظر : تفسير آية الحجر (٤٤) في الطبري ، والبغوي ، وابن الجوزي ، وابن عطية ، والقرطبي ، والآلوسي ، والنسفي .

(١٠٠٨) طبقات ابن سعد ، ٧/٤٣٠ ، وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح ٣١١٩ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح ١٨١٢ .

(١٠٠٩) انظر : تفسير القرطبي وابن كثير لآية الحجر (٤٤) ، التذكرة ، للقرطبي ، ص ٣٧٨ – ٣٨٧ ، رسائل ابن رجب ، ٤/١٥٩-١٦٢ ، ١٦٩-١٨٢ .

(١٠١٠) أي النار ، بدليل ما روى البغوي بسند صحيح عن أبي هريرة ﷺ قال : (يعظمون لتمتلئ منهم النار) . شرح السنة ، ١٥/٢٥٠ ، ح (٤٤١٣).

(١٠١١) كتاب الزهد ، لابن المبارك ، ح (١٦٢٧). قال ابن حجر : سنده صحيح ، ولم يصرح برفعه ، لكن له حكم الرفع ؛ لأنه لا مجال للرأي فيه . فتح الباري ، ١١/٤٢٣ . وقد اقتصر بعض شراح الحديث على العلة الثانية لتعظيم خلق الكافر ؛ فقالوا : يعظم خلقه ليعظم عذابه ، ويضاعف ألمه ، أو ليكون أبلغ في إيلامه ، والأولى ذكر العلتين معا ، كما نص على ذلك أبو هريرة ﷺ . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ١٧/١٨٦ ، فتح الباري ، لابن حجر ١١/٤٢٣ .

الكافر ثلاثة أيام للراكب المسرع)[١٠١٢]، (وضرس الكافر مثل أحد ، وفخذه مثل البيضاء[١٠١٣]، ومقعده من النار كما بين قديد إلى مكة)[١٠١٤]، (وغلظ جلده مسيرة ثلاث)[١٠١٥] ، وفي رواية : (غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا بذراع الجبار)[١٠١٦]، وفي رواية ثانية : (وكثافة جلده أربعين ذراعا بذراع الجبار)[١٠١٧]، وكأن اختلاف هذه المقادير في هذه الروايات وغيرها محمول على اختلاف تعذيب الكفار في النار ؛ كما نص على ذلك ابن حجر [١٠١٨]. وتعظيم الخلق في النار يعم كل كافر وإن تفاوتوا في ذلك بحسب كفرهم وإفسادهم في الأرض ، خلافا لمن رأى أن تعظيم الخلق في النار إنما هو لبعض الكفرة لا لجميعهم ؛ مستدلا بحديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعا : (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان)[١٠١٩]؛ لأن الحديث المذكور كما قال ابن حجر : لا حجة فيه لمدعاه ؛ لأن ذلك إنما هو في أول الأمر عند الحشر، وأما الأحاديث الأخرى فمحمولة على ما بعد الاستقرار في النار[١٠٢٠]. ويحسن التنبيه في نهاية هذه المسألة إلى أن حديث : (إن من أمتي لمن يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها)[١٠٢١]لا يثبت عن النبي ﷺ[١٠٢٢].

(١٠١٢) انظر : صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٥١).

(١٠١٣) البيضاء اسم جبل . انظر : رسائل ابن رجب ٢٦٥/٤ .

(١٠١٤) انظر : السنة ، لابن أبي عاصم ، ح (٦١١) . وإسناده حسن . انظر : ظلال الجنة ، للألباني ، ٢٧١/١.

(١٠١٥) انظر : صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٥١).

(١٠١٦) انظر السنة ، لابن أبي عاصم ، ح (٦١٠) . وإسناده صحيح على شرط الشيخين . انظر : ظلال الجنة ، للألباني ، ٢٧١/١.

(١٠١٧) انظر : السنة ، لابن أبي عاصم ، ح (٦١١) . وإسناده حسن . انظر : ظلال الجنة ، للألباني ، ٢٧١/١.

(١٠١٨) انظر : فتح الباري ٤٢٣/١١ .

(١٠١٩) جامع الترمذي ، أبواب صفة القيامة ، ح (٢٤٩٢) . قال ابن حجر : سنده جيد . فتح الباري ٤٢٤/١١ .

(١٠٢٠) فتح الباري ، ٤٢٤/١١ .

(١٠٢١) مسند الإمام أحمد ، ح (١٧٨٥٩).

(١٠٢٢) انظر : ضعيف الجامع الصغير ، للألباني ، ح (١٩٩٨).

٤- تفاوت الكفار في العذاب ؛ قال الله تعالى : (ولكل درجات مما عملوا) الأحقاف : ١٩ ، وقال تعالى : (جزاء وفاقا) النبأ : ٢٦ ؛ أي وفق أعمالهم ؛ فليس عقاب من تغلظ كفره كمن ليس كذلك[١٠٢٣]. وقال النبي ﷺ : (منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته)[١٠٢٤]، وقال : (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان ، يغلي منهما دماغه ، كما يغلي المرجل والقمقم)[١٠٢٥]. وأما أشد أهل النار عذابا فهم المنافقون ورؤساء الكفر وأئمته ؛ قال تعالى : (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) النساء : ١٤٥ ، وقال : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) النحل : ٨٨ ؛ عن ابن مسعود ﷺ في قوله تعالى : (زدناهم عذابا فوق العذاب) النحل : ٨٨ أنه قال : زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال[١٠٢٦]؛ قال ابن القيم : استقرت حكمة الله

(١٠٢٣) انظر : رسائل ابن رجب ٢٨١/٤ .

(١٠٢٤) صحيح مسلم ، كتاب القيامة والجنة والنار ، ح (٢٨٤٥) . والحجزة بضم الحاء وإسكان الجيم معقد الإزار والسراويل ، والترقوة بفتح التاء وضم القاف هي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق . انظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي ١٨٠/١٧ .

(١٠٢٥) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٦٢). والمرجل الإناء الذي يُغلى فيه الماء ، وهكذا القمقم ، إلا أنه ضيق الرأس . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤٣٠/١١ ، ٤٣١ .

(١٠٢٦) المستدرك ، للحاكم ، ح (٣٣٥٧) . قال الألباني : صحيح . انظر : صحيح الترغيب والترهيب ، ح ، (٣٦٧٨) . وورد نحوه من حديث عبد الله بن الحارث ﷺ مرفوعا : (إن في النار حيات كأمثال أعناق البخت، تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا، وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة، تلسع إحداهن اللسعة، فيجد حموتها أربعين سنة) ، مسند الإمام أحمد ، ح (١٧٧١٢) ، ولكن في ثبوته خلاف بين أهل العلم . انظر : تخريج أحاديث مسند الإمام أحمد ، ٢٩ / ٢٥١ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني ، ح (٣٤٢٩). وورد في أحاديث أخرى في أسانيد بعضها مقال ما يدل على تسليط الحشرات على أهل النار ؛ كحديث ابن عمر ﷺ مرفوعا : (الذباب كله في النار إلا النحل) ، صحيح الجامع الصغير ، ح (٣٤٤٢) ، وحديث علي ﷺ مرفوعا : (كل مؤذ في النار) ، ضعيف الجامع الصغير ، ح (٤٢٥٣) ؛ أي كل ما يؤذي الناس من الحشرات والسباع وغيرها في النار ؛ وذلك لتكون عقوبة لأهل النار يتأذون بها كما يتأذون بالعقارب ونحوها ، انظر : تفسير القرطبي ٢٣٦/١ ، فيض القدير ، للمناوي ، ٥٦٩/٣ . وضعف بعض هذه الأحاديث لا يقدح في ثبوت هذا النوع من العذاب ؛ لثبوت ذلك عن ابن مسعود ﷺ موقوفا ، ومثله لا يقال بالرأي .

وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له ، ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به ؛ ولهذا كان فرعون وقومه في أشد العذاب ؛ كما قال تعالى : (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) غافر : ٤٦ ؛ وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك ؛ لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعا له ، فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم ، وفي كتاب النبي ﷺ لهرقل : (فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين)[١٠٢٧]؛ أي الأتباع ؛ ولهذا كان إبليس أشد أهل النار عذابا ؛ لأنه إمام كل شر[١٠٢٨]. وأما ما ورد في حق بعض العصاة أنهم أشد الناس عذابا ؛ كقول النبي ﷺ : (إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون)[١٠٢٩]، فهو على تقدير من ؛ أي من أشدهم عذابا ، أو أن المراد أنهم أشد عذابا من غيرهم من عصاة الموحدين[١٠٣٠].

٥- طعام أهل النار وشرابهم ؛ قال تعالى : (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم) الدخان : ٤٣-٤٦ ؛ والزقوم شجرة خبيثة ، شديدة المرارة ، تنبت في قرار النار ، ويصل طلعها القبيح إلى دركات النار كلها[١٠٣١]، قال تعالى : (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون) الصافات : ٦٤-٦٦ ، وقال : (إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة) المزمل : ١٣ ؛ وذلك لأن الزقوم لا يسوغ في الحلق ؛ لخبثه وشدة مرارته[١٠٣٢]؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا : (لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على

(١٠٢٧) صحيح البخاري ، كتاب الوحي ، ح (٧).

(١٠٢٨) طريق الهجرتين ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ {باختصار }، (دار المطبعة السلفية ، الطبعة الثانية).

(١٠٢٩) صحيح البخاري ، كتاب اللباس ، ح (٥٩٥٠).

(١٠٣٠) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ، ٢٨٣/١٠ ، ٣٨٤ ، ١١/ ٤٠٣ ، ٤٢٤ ، ٤٤٤ .

(١٠٣١) انظر : تفسير البغوي ، ٢٨/٤ ، ٢٩ .

(١٠٣٢) انظر : شرح السنة ، للبغوي ٢٣٧/١٥ .

أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه)[١٠٣٣]، وفي رواية : (لأمرت على أهل الأرض عيشهم)[١٠٣٤]. وظاهر القرآن يدل على أن طعام أهل النار نوع واحد لا تعدد فيه ؛ قال تعالى : (فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين) الحاقة : ٣٥ ، ٣٦ ، وقال : (ليس لهم طعام إلا من ضريع) الغاشية : ٦ ؛ ولهذا رأى بعض أهل العلم أن الغسلين والضريع هما عين الزقوم لا غيره ، ورأى آخرون أنهما نوعان مغايران للزقوم ، وأشهر ما قيل في الفرق بينهما أن الغسلين صديد أهل النار ، والضريع نوع من الشجر كثير الشوك[١٠٣٥]. وشراب أهل النار مثل طعامهم أو أخبث ؛ قال تعالى : (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم) الواقعة : ٥١-٥٥ ، وقال : (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) محمد : ١٥ ، وقال : (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا) النبأ : ٢٤ ، ٢٥ ؛ والحميم ماء شديد الحرارة ، يشبه المهل في شدة غليانه ، والصديد في نتنه ومرارته[١٠٣٦]، ومع ذلك يشربه أهل النار شرب الهيم ؛ وهي الإبل التي بها داء تشرب معه ولا تروى . أما الغساق فهو عصارة أهل النار على قول ، وحينئذ يكون بمعنى طينة الخبال[١٠٣٧]،

(١٠٣٣) جامع الترمذي ، أبواب صفة جهنم ، ح (٢٥٨٥) . والحديث مختلف في حكمه ؛ فمن أهل العلم من يصححه ، ومنهم من يضعفه . انظر : صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، ح (٥٢٥٠) ، سلسلة الأحاديث الضعيفة ، للألباني ، ح (٦٧٨٢) ، تخريج أحاديث مسند الإمام أحمد ، للأرنؤوط ورفاقه ، ٤٦٧/٤ .

(١٠٣٤) مسند الإمام أحمد ، ح (٢٧٣٥) . قال محققوا المسند : إسناده صحيح على شرط الشيخين . انظر : تخريج أحاديث المسند ، ٤٦٧/٤ .

(١٠٣٥) انظر : تفسير ابن كثير ، ٧/ ٣٧١ ، ٥٤٩ .

(١٠٣٦) المهل ما أذيب من المعادن حتى ماج من شدة الغليان ، والصديد ما حال بين الجلد والدم من القيح ؛ فالحميم يشبه المهل في غليانه ، والصديد في نتنه ؛ ولهذا أطلق عليه اسم الصديد في قوله تعالى : (ويسقى من ماء صديد) إبراهيم : ١٦ ؛ لأن المراد التمثيل لنتن الحميم ، لا الإخبار عن نوع مستقل من الشراب . انظر : المفردات للراغب ، ص ٤٧٦ ، الوعد الأخروي ، للمؤلف ٢١٣/١ ، ٢١٤ .

(١٠٣٧) ورد ذكرها في حديث جابر ﷺ مرفوعا : (إن على الله عز وجل عهدا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال ، قالوا : يا رسول الله ، وما طينة الخبال ؟ قال : عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار). صحيح مسلم ، كتاب الأشربه ، ح (٢٠٠٢).

أو الشراب الذي لا يستطاع من شدة برده على قول آخر ؛ قال ابن كثير : أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره ، وأما الغساق فهو ضده ؛ وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم ؛ ولهذا قال : (وآخر من شكله أزواج) ص : ٥٨ ؛ أي وأشياء من هذا القبيل ؛ الشيء وضده يعاقبون بها[١٠٣٨]. والتعذيب بالحميم لا يختص بالشرب ، بل يكون مع ذلك بالسحب فيه تارة ، والصب على الرؤوس تارة أخرى ؛ قال تعالى : (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون) غافر : ٧١ ، ٧٢ ، وقال : (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود) الحج : ١٩ ، ٢٠ ، وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه، حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان) [١٠٣٩].

٦- الدفع والسحب والضرب وآلات ذلك ؛ قال تعالى : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون) فصلت : ١٩ ؛ أي يدفعون ويساقون إلى جهنم بشدة وعنف[١٠٤٠]، كما قال تعالى : (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) الطور : ١٣ ، وقال تعالى : (يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) القمر : ٤٨ ، وقال : (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) الأحزاب : ٦٦ ؛ قال ابن كثير : أي يسحبون في النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم[١٠٤١]. وقال تعالى

(١٠٣٨) تفسير ابن كثير ، ٤٣٣/٦ ، وانظر : شرح السنة ، للبغوي ، ٢٣٨/١٥ ، تفسير القرطبي ٢٢٢/١٥ .

(١٠٣٩) جامع الترمذي ، أبواب صفة جهنم ، ح (٢٥٨٢) . وإسناده حسن . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٣٤٧٠) ، تخريج أحاديث جامع الأصول ٥٤٠/١٠ ، تخريج أحاديث شرح السنة ، للبغوي ، ٢٤٤/١٥ . قال الألباني : والذي أراه ـ والله أعلم ـ أنه حسن ؛ للخلاف المعروف في أبي السمح ، واسمه دراج ، وقد كنت ضعفت حديثه هذا قديما كأحاديثه الأخرى، ثم ترجح عندي قول أبي داود في التفريق بين ما يرويه عن أبي الهيثم؛ فضعيف، وما يرويه عن ابن حجيرة؛ فمستقيم، كما سبق أن بينت ذلك، وهذا من روايته عنه. والله أعلم . سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ج ٧ ، ق ٣ ، ص ١٣٨٣ .

(١٠٤٠) انظر : تفسير البغوي والقرطبي لآية فصلت (١٩) ، وآية الطور (١٣) .

(١٠٤١) تفسير ابن كثير ، ٢٤٩/٦.

: (ولهم مقامع من حديد) الحج : ٢١ ؛ أي مطارق من حديد[١٠٤٢]. وقال تعالى : (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا) الإنسان : ٤ ، وقال تعالى : (إنا لدينا أنكالا وجحيما) المزمل : ١٢ ؛ فالأغلال في الأعناق[١٠٤٣]، والأنكال – وهي القيود الثقال الشداد – في الأرجل ، والسلاسل ليسحبوا بها ، أو يسلكوا فيها ؛ قال تعالى : (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل) غافر : ٧١ ؛ قال ابن كثير : أي متصلة بالأغلال ، بأيدي الزبانية ؛ يسحبونهم على وجوههم ، تارة إلى الحميم ، وتارة إلى الجحيم ؛ ولهذا قال : (يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون) غافر : ٧١ ، ٧٢ ، كما قال : (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) الرحمن : ٤٣ ، ٤٤[١٠٤٤]. وقال تعالى : (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) الحاقة : ٣٠-٣٢ ؛ أي أدخلوه فيها ؛ وذلك بأن تدخل من دبره وتخرج من فمه على قول ، أو تلف على بدنه حتى تحيط به من جميع جهاته على قول آخر[١٠٤٥].

٧- فرش أهل النار وألبستهم ؛ قال تعالى : (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) الأعراف : ٤١ ؛ فالمهاد الفرش ، والغواش اللحف ؛ كما قال تعالى : (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) الزمر : ١٦ ، وقال : (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) الإسراء : ٨ ؛ أي فراشا ومهادا ، كما قال الحسن البصري[١٠٤٦].وقال تعالى : (فالذين كفروا

(١٠٤٢) رسائل ابن رجب ٤/٢٣٠ .

(١٠٤٣) قال الإمام البخاري: لا تكون الأغلال إلا في الأعناق . صحيح البخاري ، كتاب التعبير ، باب القيد في المنام.

(١٠٤٤) تفسير ابن كثير ، ٦/٥٠٧ ، ٥٠٨ .

(١٠٤٥) انظر : رسائل ابن رجب ٤/٢٢٣-٢٣٠ ، وانظر : تفسير ابن كثير ، والبقاعي ، والآلوسي لآية الحاقة (٣٢) ، وتفسير القرطبي والآلوسي لآية المزمل (١٢).

(١٠٤٦) تفسير الطبري ١٥/٤٥ ، وهو القول الذي رجحه الطبري ، وقال في ذلك : الصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : معنى ذلك (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) فراشا ومهادا لا يزايله ، من الحصير الذي بمعنى البساط ، لأن ذلك إذا كان كذلك كان جامعا معنى الحبس والامتهاد ، مع أن الحصير بمعنى البساط في كلام العرب أشهر منه بمعنى الحبس ، وأنها إذا أرادت أن تصف شيئا بمعنى حبس شيء فإنما تقول هو له حاصر أو محصر ، فأما الحصير فغير موجود في كلامهم ... فلذلك قلت قول الحسن أولى بالصواب في ذلك . تفسير الطبري ، ١٥/٤٦ .

قطعت لهم ثياب من نار) الحج : ١٩ ؛ أي فصلت على قدر أجسادهم ، وكان إبراهيم التيمي إذا تلا هذه الآية في قصصه يقول : سبحان من خلق من النار ثيابا[١٠٤٧] ! والعقاب بالثياب النارية لا يختص بالكفر ، بل يحصل كذلك بمعاص دون الكفر ؛ عن المستورد بن شداد ﷺ مرفوعا : (من كُسِي ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم)[١٠٤٨].

٨- السموم واليحموم والزمهرير؛ قال تعالى : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم) الواقعة : ٤١-٤٤ ، وقال تعالى : (إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها) الكهف : ٢٩ ؛ فالسموم الريح الحارة ، واليحموم الدخان الذي اشتد سواده[١٠٤٩]؛ تقول العرب : أسود يحموم إذا كان شديد السواد ، والسرادق دخان يحيط بأهل النار على قول ، أو حائط من نار يطيف بهم على قول آخر ؛ قال ابن رجب : هذه الآية تضمنت ذكر ما يتبرد به في الدنيا من الكرب والحر ، وهو ثلاثة ؛ الماء والهواء والظل ؛ فهواء جهنم السموم ، وهو الريح الحارة الشديدة الحر، وماؤها الحميم الذي قد اشتد حره ، وظلها اليحموم ، وهو قطع دخانها، أجارنا الله من ذلك كله بكرمه ومنه[١٠٥٠]. وأما الزمهرير فدليله حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (قالت النار: رب! أكل بعضي بعضا ، فأذن لي أتنفس ، فأذن لها بنفسين ؛ نفس في الشتاء ، ونفس في الصيف ؛ فما وجدتم من برد أو زمهرير

(١٠٤٧) رسائل ابن رجب ٢٥٩/٤ ، وانظر : تفسير البغوي ، وابن كثير ، لآية الأعراف (٤١) ، وآية الزمر (١٦) ، وتفسير ابن جزي لآية الحج ، (١٩).

(١٠٤٨) سنن أبي داود ،كتاب الأدب ، ح (٤٨٨١) ، وإسناده صحيح . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح ، (٩٣٤).

(١٠٤٩) من الأعمال الصالحة التي تمنع أهلها من دخان جهنم الجهاد في سبيل الله تعالى ؛ لما رواه النسائي وغيره بسند صحيح عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (لا يجتمع غبار في سبيل الله، ودخان جهنم، في جوف عبد أبدا) . سنن النسائي ،كتاب الجهاد ، ح (٣١١٠) ، صحيح سنن النسائي ، للألباني ، (٢٩١٥).

(١٠٥٠) رسائل ابن رجب ٢٠٦/٤ . وانظر : تفسير ابن كثير ، والبغوي لآيات الواقعة (٤١-٤٤) ، وتفسير ابن عطية ، وابن جزي ، والوجيز للواحدي لآية الكهف (٢٩).

فمن نفس جهنم ، وما وجدتم من حر أو حرور فمن نفس جهنم)[١٠٥١]؛ قال ابن حجر : المراد بالزمهرير شدة البرد ، واستشكل وجوده في النار ، ولا إشكال ؛ لأن المراد بالنار محلها ، وفيها طبقة زمهريرية[١٠٥٢]. وكذلك استشكل على وجود البرد في النار بقوله تعالى : (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا) النبأ : ٢٥ ؛ ولا إشكال أيضا ؛ لأن المراد بالبرد في الآية النوم على قول ، أو البرد النافع على قول آخر ؛ قال مقاتل : لا يذوقون في جهنم بردا ينفعهم من حرها ، ولا شرابا ينفعهم من عطشها[١٠٥٣].

٩- شدة العذاب وتنوعه ؛ قال تعالى : (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) فاطر : ٣٦ ، وقال : (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) إبراهيم : ١٧ ، وقال : (هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها وبئس المهاد هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج) ص : ٥٥-٥٨؛ قال الحسن البصري : ألوان من العذاب[١٠٥٤]، وقال ابن رجب : لأهل النار أنواع من العذاب لم يطلع الله خلقه عليها في الدنيا ، قال الحسن : ذكر الله السلاسل والأغلال والنار وما يكون في الدنيا، ثم قرأ : (وآخر من شكله أزواج) ص : ٥٨ ؛ قال : آخر لا يرى في الدنيا[١٠٥٥]. وإلى جانب أنواع العذاب الحسي هناك أنواع من العذاب المعنوي يزداد بها أهل النار عذابا ونكالا ؛ كالإذلال ، والسخرية ، والتلاعن ، والتخاصم ، والندم ، والحرمان من كلام الله تعالى ورؤيته ؛ وهو أشدها عليهم ؛ قال تعالى : (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) غافر : ٦٠ ؛ أي أذلاء[١٠٥٦]، وقال تعالى : (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما

(١٠٥١) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ح (٦١٧) .

(١٠٥٢) فتح الباري ، ١٩/٢ .

(١٠٥٣) انظر : تفسير البغوي والقرطبي لآية النبأ ، (٢٥).

(١٠٥٤) تفسير ابن كثير ، ٤٣٣/٦ .

(١٠٥٥) رسائل ابن رجب ٣٠١/٤ ، (باختصار يسير).

(١٠٥٦) انظر : المفردات ، للراغب ، ص ١٦٦ .

لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يونس : ٢٧ ، وقال : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) الدخان : ٤٩ ، وقال : (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) المطففين : ٣٤ – ٣٦ ، وقال : (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) الأعراف : ٣٨ ، وقال : (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) الأنعام : ٢٧ ، وقال : (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) سبأ : ٣٣ ، وقال : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) المطففين : ١٥ ، قال الحسين بن الفضل : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته[١٠٥٧]، وقال تعالى : (قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون) المؤمنون : ١٠٨ ؛ وذلك أن أهل جهنم يدعون ربهم فيقولون : ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، فيرد الله عليهم بقوله : اخسؤوا فيها ولا تكلمون ؛ فما ينبسون بعدها بكلمة ، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم[١٠٥٨].

أبدية الجنة والنار

أبدية الجنة من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة ؛ قال تعالى : (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) آل عمران : ١٥ ، وقال : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) النساء : ٥٧ ، وقال النبي ﷺ : (من يدخل الجنة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه)[١٠٥٩]، وفي رواية : (ويخلد لا يموت)[١٠٦٠]، وقال : (يقال لأهل الجنة :

(١٠٥٧) تفسير البغوي ، ٣٦٦/٨ ، (طبعة دار طيبة).

(١٠٥٨) انظر : تفسير ابن كثير ، ٤٨٢/٥.

(١٠٥٩) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، ح (٢٨٣٦).

(١٠٦٠) مسند الإمام أحمد ، ح (٨٠٤٤) . وإسناده صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ح ، (٣١١٦).

خلود لا موت ، ولأهل النار يا أهل النار خلود لا موت)[١٠٦١]. ولا ينافي أبدية الجنة الاستثناء في قوله تعالى : (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) هود : ١٠٨ ؛ لأن الاستثناء في الحكم ، وكذلك تعليق الحكم على الشرط قد يقعان في الأمور الممتنعة إما لبيان عموم المشيئة ، أو للتغليظ في الحكم[١٠٦٢]؛ كما في قوله تعالى : (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك) الإسراء : ٨٦ ، وقوله : (فإن يشأ الله يختم على قلبك) الشورى : ٢٤ ، وقوله : (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) الزمر : ٦٤ . ولو سلم بوجود المنافاة فالاستثناء في الآية من المتشابه ، وقوله تعالى فيها : (عطاء غير مجذوذ) هود : ١٠٨ ، من المحكم الذين اطردت النصوص على تقرير معناه ؛ كما في قوله تعالى : (أكلها دائم وظلها) الرعد : ٣٥ ، وقوله : (وما هم منها بمخرجين) الحجر : ٤٨ ، والمحكم هو الأصل المبين لمعنى المتشابه[١٠٦٣]. وكذلك الشأن في أبدية النار عند جماهير السلف ؛ قال تعالى : (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا) الأحزاب : ٦٤ ، ٦٥ ، وقال : (إن عذابها كان غراما) الفرقان : ٦٥ ؛ أي ملازما دائما ، وقال : (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) المائدة : ٣٧ ، وقال : (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) النبأ : ٣٠ ، وقال : (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) الأعراف : ٤٠ ، وقال : (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين) الأعراف : ٥٠ ، وقد خالف الجمهور في أصل أبدية النار وفي تفاصيله عدة طوائف ، وافترقوا على أربعة أقوال رئيسة :-

---

(١٠٦١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، ح (٦٥٤٥).

(١٠٦٢) انظر : الجواب الصحيح ، لابن تيمية ٤٧٢/١ ، ٤٧٣ .

(١٠٦٣) لأهل العلم في التوفيق بين الاستثناء في آية هود وأدلة أبدية الجنة أجوبة أخرى . انظر في بيانها وتوجيهها ونقد بعضها . حادي الأرواح ، لابن القيم ، ٧١٨/٢-٧٢٣ ، شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

الأول : القول بفناء الجنة والنار ؛ لامتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث . وهذا قول الجهم بن صفوان ؛ بناه على أصله في منع التسلسل في المستقبل كما منعه في الماضي ، ووافقه على هذا الأصل أبو الهذيل العلاف ، ولكنه رأى أنه يقتضي فناء الحركات لا الذوات ؛ فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار دون ذواتهم . والقولان كلاهما مبتدعان ، لم يقلهما أحد من الصحابة ، ولا من التابعين ، ولا من أئمة الإسلام .

الثاني : القول ببقاء النار ولكن مع تبدل طبيعة أهلها ؛ فقد زعم ابن عربي الطائي أن أهل النار يعذبون فيها مدة ، ثم تنقلب طبيعتهم إلى طبيعة نارية ؛ يتلذذون بها ؛ لموافقتها لطبيعتهم ! وهذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الإسلام ، قال تعالى : (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) النساء : ٥٦ ، فلو كان العذاب ينقلب عذوبة لما بدلت الجلود لإذاقة العذاب ! وهو كذلك يؤول إلى هدم أصل اليوم الآخر ؛ قال ابن تيمية : جماع أمر ابن عربي هدم أصول الإيمان الثلاثة ؛ فأما الإيمان بالله فزعموا أن وجوده وجود العالم ، ليس للعالم صانع غير العالم ، وأما الرسل فزعموا أنهم أعلم بالله منهم ، وأما الإيمان باليوم الآخر فقالوا : إن النار تصير لأهلها طبيعة نارية يتمتعون بها ، وحينئذ فلا خوف ، ولا محذور ، ولا عذاب ؛ لأنه أمر مستعذب(١٠٦٤).

الثالث : القول ببقاء النار ، مع مخالفة النصوص في تعيين من يخلد فيها ومن يخرج منها ؛ فقد زعمت الوعيدية أن كل من دخلها فهو خالد فيها ، وزعم اليهود أنهم يعذبون فيها وقتا محدودا ، ثم يخرجون منها ، قال تعالى : (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون) البقرة : ٨٠ ، وقال النبي ﷺ : (أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم ، أو قال بخطاياهم فأماتهم إماته

(١٠٦٤) مجموع الفتاوى ، ٢/٢٤١ ، ٢٤٢ (باختصار). وانظر : الوعد الأخروي ، للمؤلف ، ١/٢٦٠ ، ٢٦١.

، حتى إذا كانوا فحما، أذن بالشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ؛ فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل)[١٠٦٥]؛ فعلم بذلك بطلان القول بأن كل من دخل النار خلد فيها.

الرابع : القول ببقاء الجنة وفناء النار ؛ فالله تعالى إذا أخرج عصاة الموحدين من النار ، أبقاها ما شاء من الأحقاب ، ثم يفنيها على قول ، أو يفني عذابها على قول آخر ؛ لأن الله تعالى جعل لها أمدا تنتهي إليه ، أو يزول عذابها عنده ، ويحكى هذا القول عن بعض السلف ، كعمر ، وابن مسعود ، وأبي سعيد الخدري ﷺ . وقد أطال ابن القيم في الاستدلال لهذا القول في عدة مواضع من كتبه ، وفهم ابن حجر والألباني من ذلك أنه يميل لهذا القول[١٠٦٦]، والذي رأيته في كلامه ، وفيما نقله عن شيخه ابن تيمية ، أو صرح به في كتبه أنهما إما أن يقطعا ببقاء النار ، أو يتوقفا في هذه المسألة ، ولم أر لهما قولا صريحا في القطع بصحة هذا القول أو ترجيحه ، وإنما قطع ابن القيم بفناء دار العصاة بعد أن يعذبوا بقدر أعمالهم[١٠٦٧]. وأما أدلة القول بفناء النار بجميع طبقاتها فثلاثة أنواع من الأدلة :-

١- أدلة من القرآن ؛ وهي قوله تعالى : (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) الأنعام : ١٢٨ ، وقوله : (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) هود : ١٠٧ ؛ فهذا الاستثناء أتى على كل وعيد في القرآن . وكذلك رأوا في قوله تعالى : (إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لا بثين فيها أحقابا) النبأ : ٢١-٢٣ ؛ دليلا على فناء النار أو فناء عذابها ؛ لأن الأبدي لا يقدر بالأحقاب . وفي استدلالهم نظر من وجوه :-

أ- أن دلالة الأحقاب على توقيت العذاب دلالة بمفهوم العدد ، وهو من أضعف

(١٠٦٥) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٨٥).

(١٠٦٦) انظر : فتح الباري ، لابن حجر ، ٤٢٢/١١ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة ، للألباني ، ٧٥/٢ .

(١٠٦٧) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، ٣٠٧/١٨ ، شفاء العليل ، لابن القيم ، ص ٤٣٥ ، حادي الأرواح ، لابن القيم ، ٧٩١/٢ ، الوابل الصيب ، لابن القيم ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

المفاهيم ، وقد عارضه منطوق الآية التي بعدها ؛ وهي قوله تعالى : (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) النبأ : ٣٠ ، كما عارضه منطوق قوله تعالى : (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا) الأحزاب : ٦٤ ، ٦٥ ، وغيرها من الآيات التي دلت على خلود أهل النار وتأبيد عذابهم ، ودلالة المنطوق مقدمة على دلالة المفهوم .

ب- أن الاستثناء في آية الأنعام وآية هود من المتشابه ، والنصوص الكثيرة التي اطردت على التصريح بأبدية عذاب النار ، وخلود الكافرين والمشركين فيها ، وتحريم الجنة عليهم ، كل ذلك ونظائره من المحكم ، والواجب رد المتشابه إلى المحكم ، كما سلموا بذلك في الاستثناء الوارد في نعيم الجنة .

ج- أن الاستثناء في الآيتين يمكن أن يحمل على ما تواترت به الأحاديث من إخراج عصاة الموحدين ؛ وهو المحمل الذي جنح إليه كثير من أهل العلم ؛ قال ابن كثير : الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر ، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط، وقال يوما من الدهر : لاإله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديما وحديثا في تفسير هذه الآية الكريمة ، وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن عمرو ، وجابر وأبي سعيد ، من الصحابة، وعن أبي مجلز ، والشعبي ، وغيرهما من التابعين، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وإسحاق بن راهويه ، وغيرهما من الأئمة أقوال غريبة[١٠٦٨].

٢- الآثار المروية عن بعض الصحابة ؛ كما روي عن عمر رضي الله عنه قال : (لو لبث أهل

(١٠٦٨) تفسير ابن كثير ٤/٤٧٥ ، وانظر : رفع الإستار ، للصنعاني ، ص ١٠٩-١١٢.

النار في النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه)[١٠٦٩]، وعن ابن مسعود ﷺ قال : (ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ، ليس فيها أحد ، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابا)[١٠٧٠]، وروي عن عبد الله بن عمرو ﷺ نحوه[١٠٧١]، وعن أبي هريرة ﷺ قال : (ما أنا بالذي لا أقول: إنه سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد، وقرأ : (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق) هود : ١٠٦ ؛ قال عبيد الله :كان أصحابنا يقولون: يعني به الموحدين[١٠٧٢]، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ ، أو عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله : (إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) هود : ١٠٧ ؛ قال : هذه الآية تأتي على القرآن كله ، يقول : حيث كان في القرآن : (خالدين فيها) التوبة : ٦٨ تأتي عليه[١٠٧٣]. وفي استدلالهم بهذه الآثار نظر من وجهين :-

أ- أن هذه الآثار إما ضعيفة لا حجة فيها ، وإما ثابتة ولا دلالة فيها على المدعى ؛ إذ ليس في هذه الآثار كلها ما ثبت منها وما لم يثبت إلا الدلالة على الخروج من النار ، والخروج منها لا يدل على فنائها ؛ لأنه لا يكون إلا وهي باقية ؛ فلا بد من حملها على معنى صحيح ؛ إذ لا يقول أحد بخروج الكفار من النار ، فتحمل كما قال علماء السلف على خروج من دخل النار من عصاة الموحدين ، ولا يشكل على

(١٠٦٩) أخرجه عبد بن حميد في تفسيره من رواية الحسن عن عمر مرسلا ، ومراسيل الحسن واهية عند أهل العلم . انظر : فتح الباري ، لابن حجر ٤٢٢/١١ ، رفع الأستار ، للصنعاني ، ص ٦٦ ، سلسلة الأحاديث الضعيفة ، للألباني ٧٣/٢ .

(١٠٧٠) رواه الطبري بإسناد مظلم ، وذكره البغوي معلقا . انظر : تفسير الطبري ١١٨/١٢ ، تفسير البغوي ٤٠٣/٢ ، وكذلك تحقيق وتخريج الألباني لرفع الأستار ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

(١٠٧١) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ، وقال الذهبي : هذا منكر ، وقال الألباني : سنده ضعيف . انظر : المعرفة والتاريخ ، للفسوي ١٠٣/٢ ، ميزان الاعتدال ، للذهبي ٣٨٥/٤ ، تعليق الألباني على شرح الطحاوية ، رقم (٦٠١) ، ص ٤٢٩ ، وكذلك تعليقاته على كتاب رفع الأستار ، ص ٨١ .

(١٠٧٢) رواه إسحاق ابن راهويه بسند صحيح . انظر : حادي الأرواح ٧٤١/٢ ، الدر المنثور ، للسيوطي ٣٥٠/٣ ، تحقيق وتخريج الألباني لرفع الأستار ، ص ٧٥ .

(١٠٧٣) تفسير الطبري ١١٨/١٢ ، وإسناده صحيح . انظر : تخريج الألباني لأحاديث رفع الأستار ، ص ٧٨ ، تخريج الأرنؤوط لشرح العقيدة الطحاوية ، (طبعة الرسالة) ، ص ٦٢٧.

ذلك ما في هذه الآثار من عموم ؛ للعلم بتخصيصها بنصوص الشفاعة ، وبالأدلة الدالة على أن الكفار لا يخرجون من النار ، كما لا يشكل على ذلك ما في بعضها من التقدير برمل عالج ؛ لأنه لم يقل إنهم يلبثون كقدر رمل عالج ، بل أتى بقضية شرطية فقال : لو لبثوا ، أي أنه لو طال لبثهم ذلك القدر لخرجوا ، ولا دليل في كلامه على أنهم يلبثون ذلك القدر .

ب- أن الاستدلال بهذه الآثار مشكل جدا من حيث مآلُ الكفار بعد فنائها ؛ لأنه إن أريد بذلك أن النار تأكلهم وتفنيهم[١٠٧٤] كان في ذلك مخالفة لما قال به أهل الحق في مآل الأرواح ، وأنها من جملة المخلوقات التي لا يطرأ عليها الفناء[١٠٧٥]، وإن أريد به أن الكفار يدخلون الجنة بعد فناء النار[١٠٧٦] فهذا أشد إشكالا ؛ لأن في النار من لا يتصور دخوله الجنة بحال ؛ وهم إبليس وذريته ، الذين اجتالوا العباد عن الدين الحنيف الذي خلقوا عليه ، مع ما في ذلك من مصادمة النصوص الدالة على تحريم الجنة على كل من لقي الله مشركا ! فإن قالوا : إن الوعيد بتحريم الجنة على الكفار ، والحكم بخلودهم في النار ، وتأبيد عذابهم لا ينافي انقطاع عذابهم ؛ لأنها تجري مجرى وعيد عصاة الموحدين ؛ فقد وردت نصوص فيها تحريم الجنة عليهم ، أو الحكم بخلودهم ، وتأبيد عذابهم ، وذلك كله لا ينافي انقطاع وعيدهم بمانع التوحيد وغيره من موانع الوعيد ، فكذلك وعيد الكفار ينقطع عذاب الكفار بغلبة الرحمة على الغضب ! فالجواب عن ذلك أن يقال : إن الكفار ليسوا من أهل الرحمة في الآخرة بنص القرآن ؛ قال تعالى : (والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم) العنكبوت : ٢٣ ، وهذا مانع من تأويل نصوص الوعيد في حق الكفار ، بخلاف تأويلها في حق عصاة الموحدين ؛ فهو مبني على أدلة في غاية الصحة

(١٠٧٤) في بعض الآثار التي ذكرها ابن القيم ما يدل على أن ذلك مآلهم . انظر : شفاء العليل ، ص ٤٢٨ .

(١٠٧٥) تقدم إثبات القول ببقاء الروح بشيء من التفصيل في مسألة خلود الروح . وانظر لمعرفة المخلوقات التي لا يطرأ عليها الفناء : نونية ابن القيم بشرحها ، للهراس ١/٣٩-٤٣ .

(١٠٧٦) نص الصنعاني على أن ذلك مرادهم . انظر : رفع الأستار ، ص ٦٤ .

؛ فقد تواترت نصوص الشفاعة في الدلالة على أن عصاة الموحدين لا يخلدون في النار .

٣- المعنى والنظر ؛ فقد رأوا أن النظر العقلي يدل على وجود فروق بين الجنة والنار تمنع من قياس النار على الجنة في التأبيد ؛ منها :-

أ- أن الجنة من موجب رحمة الله تعالى ، والنار من موجب غضبه ، ورحمته سبحانه تسع كل شيء ، وتغلب غضبه ؛ قال تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء) الأعراف : ١٥٦ ، وقال النبي ﷺ : (لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي)[١٠٧٧]؛ فلو بقي أهل النار فيها لا إلى غاية لم تسعهم رحمة الله تعالى ، ولو كانت النار أبدية كالجنة لم تكن الرحمة غالبة للغضب ؛ لأن أهل النار أضعاف أهل الجنة ؛ كما دل على ذلك قول النبي ﷺ : (يقول الله ﷻ : يا آدم ... أخرج بعث النار ؟ قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين)[١٠٧٨]. وهذا الوجه لا حجة فيه على فناء النار ؛ لأن رحمة الله تسع الخلق جميعا في الدنيا ، وأما في الآخرة فهي خاصة بالمؤمنين ؛ قال الحسن البصري : وسعت رحمته في الدنيا البر والفاجر ، وهي يوم القيامة للمتقين خاصة ، وكذلك قال قتادة[١٠٧٩]، ونصوص القرآن تدل منطوقا ومفهوما على أن الكفار ليسوا من أهل رحمة الله تعالى في الآخرة ؛ قال تعالى : (والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم) العنكبوت : ٢٣ ، وقال : (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) الأعراف : ١٥٦ ، وقال : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) التوبة : ٧١ ، وقال النبي : (لله ﷻ مائة رحمة، وإنه قسم رحمة واحدة بين أهل

(١٠٧٧) صحيح مسلم ، كتاب التوبة ، ح (٢٧٥١) .

(١٠٧٨) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (٢٢٢).

(١٠٧٩) تفسير البغوي ، ٢٨٧/٣ (طبعة دار طيبة).

الأرض، فوسعتهم إلى آجالهم، وذخر تسعة وتسعين رحمة لأوليائه، والله ﷻ قابض تلك الرحمة التي قسمها بين أهل الأرض إلى التسع والتسعين فيكملها مائة ؛ رحمة لأوليائه يوم القيامة)[١٠٨٠]؛ فعلم أن الرحمة يوم القيامة خاصة بأولياء الله تعالى لا نصيب لأعداء الله فيها .

ب- أن الجنة يبقى فيها فضل، فينشئ الله لها خلقا يسكنهم إياها بغير عمل كان منهم ؛ فإذا كان جوده ورحمته قد اقتضيا أن يدخل هؤلاء الجنة بغير عمل تقدم منهم ولا معرفة ولا إقرار، فما المانع أن تدرك رحمته من أقر به في دار الدنيا ، واعترف بالله ربه ومالكه إذا مرت به أحقاب في النار تخرج خبثه كما يخرج الكير خبث الحديد ! والجواب عن هذا الوجه أن يقال : إن هذا قياس فاسد ؛ لاختلاف العلة بين الفريقين ؛ فهؤلاء لم يشركوا بالله طرفة عين ، وأهل النار عاشوا على الشرك وماتوا عليه ، وتوحيد الربوبية الذي أقروا به في الدنيا لم يترتب عليه شيء من أحكام الإيمان في الدنيا ؛ فلم يرفع عنهم اسم الشرك ، ولم يعصم دماءهم وأموالهم ، فكيف يتصور أن تترتب عليه أعلى أحكام الإيمان في الآخرة ؛ وهو دخول الجنة ، والنجاة من النار !

ج- أن الله تعالى يخبر عن العذاب أنه عذاب يوم عظيم ، وأليم ، وعقيم ، ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم ، وهذا مانع آخر من قياس النار على الجنة في التأبيد . والجواب عن هذا الوجه أن يقال : إن اليوم إذا أطلق في الأمور الأخروية كان المراد به مطلق الزمان من غير تحديد بنهاية ؛ ولهذا ورد في الإخبار عن النعيم ، وهو أبدي وفاقا ؛ قال تعالى : (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) الزخرف : ٦٨ ، وقال : (ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود) ق : ٣٤ ، وقال : (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) يس : ٥٥ ؛ ومعلوم أنهم في شغل أبد الآباد.

د - أن القول بفناء النار لا يناقض النصوص الدالة على الخلود فيها ، وتأبيد عذابها

(١٠٨٠) مسند الإمام أحمد ، ح (١٦٧٠ – ١٦٧٢) ، وأسانيده صحيحة موصوله إلا الأول منها فهو مرسل صحيح الإسناد . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٦٣٤).

، وعدم خروج أهلها منها ؛ لأن هذه النصوص وأمثالها تقتضي خلودهم في دار العذاب ما دامت باقية ، وأبدية عذابهم تعني أبدية مدة بقاء النار ودوامها ؛ فلا يخرجون منها أبدا مع بقائها كما يخرج أهل التوحيد ، وإنما يخرجون بعد فنائها وانقضاء أمدها ؛ فلا يكونون بمنزلة الموحدين في الخروج من النار ؛ لظهور الفرق بين الأمرين ؛ فليس من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله كمن يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه . وفي هذا الاستدلال نظر ؛ لأن رفع دلالة هذه النصوص على أبدية النار يفضي إلى رفع دلالة النصوص الدالة على خلود أهل الجنة ، وتأبيد نعيمهم ، وعدم خروجهم منها ، وهذا باطل وفاقا ؛ فيكون كل ما أدى إليه باطلا ، ولأن النصوص الصحيحة الصريحة دلت على أن الخروج من النار مختص بعصاة الموحدين دون المشركين ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، عن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعا : (أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم ، أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة ، حتى إذا كانوا فحما، أذن بالشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل :يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل)[١٠٨١]، والقول بأن هذا النص ونظائره إنما يدل على خروج الموحدين قبل فناء النار مجرد تخصيص للعموم بالمذهب لا بدليل مسلم ؛ فلا يكون مقبولا .

هـ – أن أفعال الله تعالى لا تخرج عن الحكمة ؛ وليس في الحكمة دوام العذاب أبد الآباد ؛ لأن الله فطر الخلق جميعا على الإيمان ، والكفر طارئ على الفطرة ، وليس أمرا ذاتيا يستحيل زواله ، فإذا أخذت النار مأخذها منهم ، ومرت عليهم أحقاب في الجحيم زال الكفر الطارئ وعادوا للفطرة التي خلقوا عليها ، فيزول عنهم موجب العذاب ؛ لحصول الحكمة المقصودة من عذابهم . والجواب عن هذا الوجه أن يقال : لا شك أن الخلق ولدوا على الفطرة ، وأن الله خلقهم حنفاء كلهم ، ولكن هناك أمر

(١٠٨١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ح (١٨٥).

أسبق من الفطرة ؛ وهو الميثاق الذي أخذه الله على خلقه وهم على هيئة الذر ، والحكم قدرا للميثاق لا للفطرة ؛ لأن الميثاق هو الأصل الذي نشأت عنه الفطرة ، وقد دل الميثاق بطرق شتى على أن الخلق منهم السعداء والأشقياء ، وليسوا كلهم حنفاء ؛ عن هشام بن حكيم ﷺ مرفوعا : (إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه ، فقال : هؤلاء في الجنة ، وهؤلاء في النار)[١٠٨٢]، وفي رواية : (إن الله خلق آدم ، ثم أخذ الخلق من ظهره ، وقال : هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي)[١٠٨٣]، والأحاديث الواردة في الميثاق كثيرة ، ولا يبعد أن تبلغ درجة التواتر المعنوي[١٠٨٤]. ولا شك أيضا أن أفعال الله لا تخرج عن الحكمة ، ولكن العقول لا يمكنها الاطلاع على أسرار الحكمة في هذا المقام ، فلا بد لها من التسليم بما دلت عليه النصوص من دوام العذاب ، وأن الشرك لا يغفر بحال ، وأن خبث أهله لا يزول بمضي الأحقاب في العذاب ؛ قال تعالى : (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا) الأحزاب : ٦٤ ، ٦٥ ، وقال : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) النساء : ٤٨ ؛ وهو عام غير مقيد بزمان ولا حال ، وقال تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) الأنعام : ٢٧ ، ٢٨ ؛ فهؤلاء لما وقفوا على النار ؛ أي في النار[١٠٨٥]، وذاقوا العذاب وباشروه لم يزل سببه ومقتضيه من نفوسهم ، بل خبث الشرك قائم بها ، لم يفارقها ، بحيث لو ردوا

(١٠٨٢) السنة ، لابن أبي عاصم ، ح (١٦٨) ، وإسناده صحيح . انظر : ظلال الجنة ، للألباني ، ٧٤/١ .

(١٠٨٣) مسند الإمام أحمد ، ح (١٧٦٦٠) ، وإسناده صحيح . انظر : تخريج أحاديث المسند ، ٢٠٦/٢٩ ، أخذ الميثاق ، للعثيم ، ص ٢٠-٢٤.

(١٠٨٤) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني ، ١٥٩/٤ (الطبعة الثالثة).

(١٠٨٥) قال البغوي : قوله تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النار) يعني في النار ،كقوله : (على ملك سليمان) ؛ أي في ملك سليمان . تفسير البغوي ٩٢/٢ .

لعادوا إلى شركهم كما كانوا ، وهذا يدل على أن دوام عذابهم من مقتضى الحكمة ، كما جاء بذلك السمع ، ولو سلم بأن النص إخبار عن حالهم قبل دخول النار فإنه لا يقتضي حصر دلالته على هذه الحال ؛ لأن الله تعالى حكى عنهم وهم في غمرات النار أنهم يعترفون بظلمهم ، ويطلبون الرجعة إلى الدنيا فلا يجابون إلا بما يقتضي أبدية عذابهم ، وأنه ليس مغيا بمضي أحقاب يزول معها خبث الكفر الطارئ على الفطرة ؛ قال تعالى : (وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) فاطر : ٣٧ ، وقال : (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون) المؤمنون : ١٠٦-١٠٨ ؛ أي لا تكلمون في رفع العذاب ؛ فإني لا أرفعه عنكم[١٠٨٦]؛ قال ابن القيم : لما كان المشرك خبيث العنصر ، خبيث الذات لم تطهر النار خبثه، بل لو خرج منها لعاد خبيثا كما كان ؛ كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه، فلذلك حرم الله تعالى على المشرك الجنة[١٠٨٧].

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين[١٠٨٨]

(١٠٨٦) انظر : تفسير البغوي ، ٥/٥٣٠ (طبعة دار طيبة) ، تفسير ابن كثير ٦/٤٨٥ .

(١٠٨٧) زاد المعاد ، ١/٦٨ . وانظر في أبدية الجنة والنار : حادي الأرواح ٢/٧١٨- ٧٩٢ ، شفاء العليل ، ص ٤١٦- ٤٣٦ ، مختصر الصواعق ، ٢/٦٦٢-٦٨٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤٢٤-٤٣٢ ، فتح الباري ، لابن حجر ١١/ ٤٢١ ، ٤٢٢ ، رفع الأستار ، للصنعاني ، ص ٦١-١٤١.

(١٠٨٨) بدأت في هذا الكتاب ليلة الإثنين ٢٥ / ٨ / ١٤٤٣ هـ ، وتأنيت في جمع معلوماته وصياغته وتحريره ، وكان لدي مع ذلك أعمال علمية أخرى ؛ ولهذا طال زمن إنجازه ؛ فلم أفرغ من تحريره إلا ليلة الأربعاء ١٤٤٧/٨/٢٣هـ.

مراجع الكتاب

- آكام المرجان في أحكام الجان ، لعمر الشبلي ، دار المعرفة ، بيروت .
- الاتقان في علوم القرآن ؛ لجلال الدين السيوطي ، مكتبة الحلبي بمصر ، الطبعة الرابعة .
- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، لابن القيم ، دار عالم الفوائد ، الطبعة الثانية .
- أحاديث فضائل الشام ، لأبي الحسن الربعي ، بتخريج الألباني ، مكتبة المعارف ، الطبعة الأولى .
- أحكام الجنائز ، لمحمد الألباني ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى .
- الأربعين في أصول الدين ، للفخر الرازي ، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ، الطبعة الأولى .
- الاستذكار ، ليوسف بن عبد البر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى .
- الإسلام عقيدة وشريعة ، لمحمود شلتوت ، دار الشروق ، الطبعة الثانية .
- أشراط الساعة ، ليوسف الوابل ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الثانية عشرة .
- الإصابة في تمييز الصحابة ، لأحمد بن حجر العسقلاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية.
- أصول الدين ، لعبد القاهر البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- أصول الدين ، لمحمد بن عبدالكريم البزدوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ .
- اعلام الموقعين ، لمحمد بن أبي بكر بن القيم ، دار عالم الفوائد ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى .
- البداية والنهاية ، لابن كثير ، مكتبة المعارف ، بيروت .
- بغية المرتاد (السبعينية) ، لابن تيمية ، تحقيق ، د/ موسى الدويش ، مكتبة العلوم ، الطبعة الأولى .
- بيان تلبيس الجهمية ، لابن تيمية ، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .
- تحفة الأحوذي ، لمحمد المباركفوري ، المكتبة السلفية ، المدينة النبوية ، الطبعة الثانية .
- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، لمحمد بن أحمد القرطبي ، دار الفكر .
- تعريف عام بدين الإسلام ، لعلي الطنطاوي ، دار الوفاء بمصر ، الطبعة الثانية عشرة .
- تفسير البغوي ، دار المعرفة ببيروت ، الطبعة الثانية .
- تفسير الخازن ، لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي ، دار الفكر ، ١٣٩٩ هـ .
- تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الأولى .
- تفسير الطبري ، لابن جرير ، دار الفكر ، ١٤٠٥ هـ .
- تفسير القرطبي ، تصحيح أحمد البردوني ، الطبعة الثانية .
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، لابن عبد البر ، مطبعة فضالة ، المحمدية .
- تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني ، دائرة المعارف ، الهند ، الطبعة الأولى .
- تهذيب الكمال ، لجمال الدين المزي ، دار الرسالة ، دمشق ، الطبعة الرابعة .

- تهذيب اللغة ، للأزهري ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ .
- تهذيب معالم السنن ، لابن القيم ، المكتبة السلفية ، المدينة النبوية ، الطبعة الثانية ,
- تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان ، لعبد الرّحمن بن ناصر السّعدي . المؤسّسة السعيدية بالرّياض.
- جامع الأصول في أحاديث الرسول ، لابن الجزري ، مكتبة الحلواني ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٩ هـ .
- جامع العلوم والحكم ، لابن رجب الحنبلي ، دار المعرفة ، بيروت .
- جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام ، لابن القيم ، دار العروبة بالكويت .
- جلاء العينين ، لنعمان الآلوسي ، مطبعة المدني ، ١٤٠١ هـ .
- الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح ، لأحمد بن عبد الحليم بن تَيْمِيَّة . الطبعة الأولى .
- الجواب الكافي عن السؤال الخافي ، لابن حجر العسقلاني ، ضمن مجموع الرسائل المنيرية .
- الجواب الكافي أو الداء والدواء ، لابن القيم ، دار عالم الفوائد ، الطبعة الثالثة .
- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، لابن القيم ، دار عطاءات العلم ، الطبعة الرابعة .
- حاشية أحمد الصاوي على تفسير الجلالين ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ .
- حي ابن يقظان ، لمحمد بن طفيل ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٩ م .
- درء تعارض العقل والنّقل ، لشيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة . مطابع جامعة الإمام ، الرياض ، الطّبعة الأولى.
- دراسات في دلالات المثلات ، لعيسى السعدي ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الأولى .
- الدر المنثور ، لجلال الدين السيوطي ، دار الفكر ، بيروت .
- دفع إيهام الاضطراب ، للشنقيطي ، دار عالم الفوائد ، الطبعة الأولى .
- الرد على الشاذلي ، لابن تيمية ، دار عالم الفوائد ، الطبعة الثانية .
- الرد على المنطقيين ، لابن تيمية ، إدارة ترجمان السنة بلاهور ، الطبعة الرابعة .
- رسائل ابن رجب الحنبلي ، دار الفاروق الحديثة ، الطبعة الثانية .
- الرسالة الأضحوية ، لابن سينا ، المؤسسة الجامعية ، لبنان ، الطبعة الثانية .
- الرسالة التدمرية ، لابن تيمية ، تحقيق د/ محمد السعوي ، الطبعة الأولى .
- رفع الأستار ، لمحمد بن إسماعيل الصنعاني ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى .
- الروح ، لابن القيم ، دار عالم الفوائد ، مكة المكرمة ، الطبعة الثانية .
- روح المعاني ، لمحمود الآلوسي ، دار الفكر ، ١٤٠٨ هـ .
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، لمحمد بن حبان البستي ، الدار العلمية بمصر ، الطبعة الأولى .
- روضة المحبين ، لابن القيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- الروض المربع ، لمنصور البهوتي ، بحاشية عبد الرحمن بن قاسم ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٧ .
- زاد المسير ، لابن الجوزي ، طبعة المكتب الإسلامي الرابعة ، ١٤٠٧ هـ .

- زاد المعاد ، لابن القيم ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الخامسة عشرة .
- سلسلة الأحاديث الصّحيحة ، لناصر الدِّين الألباني . الطبعة الثّانية ، مكتبة المعارف بالرّياض .
- سلسلة الأحاديث الضعيفة ، لناصر الدِّين الألباني . الطبعة الأولى ، مكتبة المعارف بالرّياض .
- السنّة ، لابن أبي عاصم الشيباني ، الطبعة الأولى ، المكتب الإسلامي .
- السنة ، لعبد الله بن الإمام أحمد ، دار ابن القيم ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ .
- سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة السابعة .
- شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلي ، دار ابن كثير ، الطبعة الثانية .
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، لأبي القاسم اللالكائي ، دار طيبة ، الرياض .
- شرح جوهرة التوحيد ، لإبراهيم البيجوري ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى .
- شرح السنة ، للبغوي ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ .
- شرح صحيح مسلم ، للحافظ يحيى بن شرف النّووي . دار الكتب العلميّة ببيروت .
- شرح العقائد النسفية ، لسعد الدين التفتازاني ، مطبعة كردستان بمصر ، الطبعة الأولى .
- شرح العقيدة الطحاوية ، لعليّ بن عليّ بن أبي العزّ الحنفي ، المكتب الإسلامي ، الطبعة التاسعة .
- شرح كتاب التوحيد ، لعبد الله بن حميد ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٨ .
- شرح مشكل الآثار ، لأحمد بن محمد الطحاوي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى .
- شرح المقاصد ، لسعد الدين التفتازاني ، عالم الكتب ببيروت ، الطبعة الأولى .
- الشرح الممتع ، لمحمد بن صالح بن عثيمين ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الأولى .
- شرح المواقف ، لعلي الجرجاني ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى .
- شرح النونية ، لمحمد هراس ، دار الكنب العلمية ، بيروت .
- الشريعة ؛ لأبي بكر الآجري ، دار الوطن ، الطبعة الثانية .
- شفاء العليل ، لابن القيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى .
- الشفاعة ، لمقبل بن هادي الوادعي ، مطبعة المدني بمصر ، الطبعة الأولى .
- صحيح الجامع الصّغير وزيادته ، لمحمّد ناصر الدِّين الألباني . الطبعة الثّانية ، المكتب الإسلاميّ .
- الصفدية ، لابن تيمية ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ هـ .
- الضوء اللامع ، لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى .
- طبقات الحنابلة ، لأبي يعلى ، مطبعة السنة المحمدية بمصر .
- طريق الهجرتين ، لابن القيم ، المكتبة السلفية ، الطبعة الثالثة .
- عدة الصابرين ، لابن القيم ، دار عالم الفوائد ، مكة المكرمة ، الطبعة الثالثة .
- عون المعبود ، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء ، جمع / أحمد الدويش ، الطبعة السادسة .
- فتح الباري ، مع مقدمته هدي الساري ، لابن حجر العسقلاني ، دار المعرفة ببيروت .
- فتح الباري ، لابن رجب الحنبلي ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الثالثة .
- فتح القدير ، لمحمد بن علي الشوكاني ، دار المعرفة ، بيروت .
- الفصل ، لابن حزم ، دار الجيل ، بيروت .
- الفوائد ، لابن القيم ، دار عالم الفوائد ، الطبعة الثالثة .
- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، لعبد الرؤوف المناوي ، دار المعرفة ، بيروت .
- قاعدة في المحبة ، لابن تيمية ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة .
- لسان العرب ، لابن منظور ، دار إحياء التراث ، بيروت .
- لطائف المعارف ، لابن رجب الحنبلي ، الدار العالمية بمصر ، الطبعة الأولى .
- لوامع الأنوار ، لمحمد بن أحمد السفاريني ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية .
- مجمع الزوائد ، للهيثمي ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ .
- مجموع رسائل ابن رجب ، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية .
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تَيْمِيَّة ، جمع وترتيب ابن قاسم . مطبعة المساحة العسكريّة بالقاهرة.
- مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز ، جمع الشويعر ، دار أصداء المجتمع ، الطبعة السادسة .
- مختار الصحاح ، لمحمد بن أبي بكر الرازي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى .
- مختصر الصواعق المرسلة ، للموصلي ، أضواء السلف ، الطبعة الأولى .
- مختصر العلو ، للألباني ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى .
- مدارج السّالكين ، للإمام ابن قيّم الجوزيّة ، دار الرشاد بالمغرب .
- مرقاة المفاتيح ، لملا علي قاري ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢ هـ .
- مروج الذهب ، لعلي بن الحسين المسعودي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ .
- معترك الأقران ، لجلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى .
- معجم البلدان ، لياقوت بن عبد الله الحموي ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة التاسعة .
- معجم مقاييس اللّغة ، لأحمد بن فارس ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ .
- المعجم الوسيط ، إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الطبعة الثانية .
- مفتاح دار السعادة ، لابن القيم ، دار عالم الفوائد ، الطبعة الثانية .
- المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، دار المعرفة ، بيروت .
- المفهم ، للقرطبي ، دار ابن كثير ، دمشق ، الطبعة الثالثة .

- الملل والنحل ، لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية .
- المنار المنيف ، لابن القيم ، مكتب المطبوعات الإسلامية .
- منهاج السنّة النّبويّة ، لشيخ الإسلام أحمد بن تَيْمِيَّة ، الطّبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ .
- الموسوعة العربية الميسرة ، إصدار دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للنشر ، إشراف محمد غربال .
- ميثاق الإيمان ، لعيسى عبد الله السعدي ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الأولى .
- ميزان الاعتدال ، لمحمد بن أحمد الذهبي ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى .
- النجاة ، للحسين بن علي بن سينا ، مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الثانية .
- النبوّات ، لابن تَيْمِيَّة ، أضواء السّلف ، الطّبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ .
- النكت والعيون ، لعلي بن محمد الماوردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- النّهاية في غريب الحديث والأثر ، لمجد الدِّين الجزري ، مكتبة الباز بمكّة .
- النهاية في الفتن والملاحم ، لابن كثير ، تحقيق نجم الكردي .
- هداية الحيارى ، لابن القيم ، دار عالم الفوائد ، الطبعة الأولى .
- الوابل الصيب ، لابن قيم الجوزية ، دار عطاءات العلم ، الطبعة السادسة .
- الوعد الأخروي ، لعيسى السّعدي . دار عالم الفوائد بمكّة ، الطّبعةالأولى ، ١٤٢٢ هـ .

****

موضوعات الكتاب

المقدمة ٢

محتويات الكتاب ٣

الفصل الأول : أهمية اليوم الآخر ٤- ١٥

معنى اليوم الآخر ٥

منزلة اليوم الآخر ٩

الفصل الثاني : أشراط الساعة ١٥-٥١

أشراط الساعة الصغرى ١٦

أنواع الأشراط الصغرى ١٨

أشراط الساعة الكبرى ٣١

الفصل الثالث : أحوال البرزخ ٥١-١٢٣

أولا : القيامة الصغرى ٥٢

حضور الأجل ٥٢

تمني الموت ٥٥

حسن الخاتمة ٥٨

فتنة الممات ٦١

رؤية الملائكة ٦١

سكرات الموت ٦٣

الميت مستريح أو مستراح منه ٦٥

ثانيا : حقيقة الروح وأحكامها ٦٧

اطلاقات الروح ٦٧

حقيقة الروح ٦٩

حدوث الروح ٧٢

خلود الروح ٧٤
مصير الروح ٧٦
إدراك الروح المفارقة ٨٢
تلاقي الأرواح ٨٦
حياة الأنبياء في قبورهم ٨٧
ثالثا : عذاب القبر ونعيمه ٩٣
ثبوته والرد على من أنكره ٩٣
متعلق الفتنة والجزاء في القبر ٩٩
أسباب عذاب القبر وموانعه ١٠٥
عموم الفتنة في القبر ١١٦
أنواع عذاب القبر ١١٩
الفصل الرابع : القيامة الكبرى ١٢٣-١٩٥
النفخ في الصور ١٢٣
البعث ١٢٨
متعلق البعث ١٣٣
تبدل العالم ١٣٦
أهوال القيامة ١٤١
المحاسبة ١٥٥
وزن الأعمال ١٦٤
المرور على الصراط ١٧١
الحوض المورود ١٧٩
الشفاعة الموعودة ١٨٧
الفصل الخامس : الجنة والنار ١٩٥-٢٦٢

خلق الجنة والنار ١٩٥
مكان الجنة والنار ٢٠٣
صفة الجنة والنار ٢١١
أبدية الجنة والنار ٢٥٠
مراجع الكتاب ٢٦٢- ٢٦٧
موضوعات الكتاب ٢٦٧-٢٧٠

****